قضيـة التصوف

(٢)

المدرسة الشاذلية الحديثة
وإمامها
أبو الحسن الشاذلي

بقلم

الدكتور عبد الحليم محمود

يطلب من
دار الكتب الحديثة
١٤ شارع الجمهورية - تليفون ٩١٦١٠٧
صاحبها توفيق عفيفي

دار النصر للطباعة
لأحمد حمدي أحمد شعبان
١٣ شارع سعد الله
الدرب الأحمر ـ القاهرة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير المرسلين وخاتم النبيين ، سيدنا محمد الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

هذا الكتاب :

لقد اضطررت إلى كتابته اضطراراً ، لقد حملت على تأليفه حملا ، وما كان لى فى تحديد زمن كتابته من إرادة حرة أو اختيار يبيح لى التأجيل الطويل .

وسأذكر قصة تأليفه ، سواء أسخر الناس منها أم لم يسخروا ، وسواء أصدقوها أم أنكروها :

إننى أروى هنا ماوقع لى شخصيا ، أرويه كما حدث ، دون زيادة أو نقص . وما من شك فى أن مثله ، بل وأغرب منه ، يحدث كل يوم ، ومع ذلك فإن المنكرين والشاكين والساخرين لا يزيدهم ذلك إلا شكا وإنكاراً واستمراراً فى السخرية .

فلننصرف النظر عنهم ولنرو الأمر كما حدث :

منذ أكثر من خمس عشرة سنة كنت فى زيارة أحد الأصدقاء ، وأخذ الحديث مجراه فى نواح عدة ، ثم تطرق إلى أبى الحسن الشاذلى .

وكنت فى ذلك الوقت أجهل الكثير عن هذا القطب الكبير ، كنت أسمع اسمه فى كل مكان ولكن الظروف لم تكن قد أتاحت لى بعد أن أتصل به اتصالا يزيد على سماع الاسم إلا قليلا .

وسألت الصديق عما إذا كان عنده من المراجع ما يعطينى صورة موجزة صادقة عن الشيخ تزيل بعض الجهل به .

وقدم لى الصديق كتاب الأستاذ السندوبى عن أبى العباس المرسى ، وذلك لأن المؤلف كتب فيه عن أبى الحسن الشاذلى صفحات عدة ، ولم يكن عند الصديق غيره للتعريف بأبى الحسن .

وأخذت فى قراءة ما كتبه الأستاذ السندوبى فوجدت فى نفسى رغبة ملحة فى أن أزداد معرفة بالشاذلى ، وفى أن أكتب عنه إذا يسر الله ذلك .

وأخذت أسأل عن المراجع هنا وهناك ، ووجدت فى دار العشيرة المحمدية كتاب « المفاخر العلية » لابن عياد مخطوطا بقلم الشيخ العروسى نفسه ، بخط جميل ، على ورق جميل فاخر ، وقد راجعه الشيخ بعد كتابته وأثبت ما نسيه ، وصحح ما أخطأ فى نقله ، ولم يبخل فضيلة رائد العشيرة المحمدية على به .

ووجدت فى الدار أيضا الكتاب النادر كتاب (دُرَّة الأسرار) وهو من أنفس المراجع عن أبى الحسن الشاذلى ، استقى فيه مؤلفه أخبار أبى الحسن عمن التقوا به مباشرة ، وعن أصحاب أصحابه .

ولقد سافر من أجل ذلك إلى عدة أقطار ، وبين فى مقدمة كتابه كيفية جمعه إذ يقول :

« وكان من جملة منن الله سبحانه على ، وعلى من سلف لى ، هو تتبع ما لسيدنا الشيخ الولى الصديق العارف المحقق الغوث القطب الشريف الحسنى أبى الحسن على المعروف بالشاذلى من الآثار ، وتقييد ما له من الدعوات والأذكار .

وكنت أطلبها وأجهد فى جمعها ، وأصرف الرغبة فى التوجه إلى من عرف بها .

فمنها ما أخذته تلقيا بتونس من سيدنا الشيخ الصالح أبى العزائم ماضى ابن سلطان ، تلميذ سيدنا الشيخ أبى الحسن وخادمه .

ومنها ما أخذته بأرض المشرق ، من سيدنا الشيخ أبى عبدالله محمد ، المدعو بشرف الدين ، ولد سيدنا الشيخ الصالح ياقوت الحبشى ، رضى الله عنه .

ومنها ما أخذته عن غيرهم من معتقدى طريق الشيخ ، وأصحاب أصحابه من أهل المشرق والمغرب ، حتى اجتمع عندى من ذلك ما يبهج سماعه ، ويعز اجتماعه » اهـ .

ولم تبخل على العشيرة المحمدية أيضا بهذا الكتاب النادر .

وأخذت — مع الزمن — استكمل المراجع ، فكان من أهمها كتاب « لطائف المنن » ، فى مناقب الشيخ أبى العباس وشيخه أبى الحسن ، تأليف ابن عطاء الله السكندرى .

وهو تلميذ أبى العباس المرسى أكبر تلاميذ أبى الحسن والخليفة بعده ، وقد حصلت على الطبعة المصرية حينئذ . .

واستغرقت فى القراءة والدراسة فترة من الزمن ، وكتبت فى مجلة الأزهر مقالا بعنوان « أبو الحسن الشاذلى ومعركة المنصورة » .

ثم صرفتنى الصوارف ، وطويت صحف أبى الحسن ، وشغلت بأمور أخرى ، ومضت الأيام والسنون وصحف أبى الحسن مطوية . .

حتى إذا كانت سنة ١٩٦٢ دعيت إلى تونس أستاذا زائرا ـ لمدة شهر ـ بجامعة الزيتونة ، فتجددت عندى الذكريات عن أبى الحسن ، وأخذت أتنسم عبيره فى تونس ، لقد صعدت إلى الجبل الذى كان يتعبد به ، ودخلت المغارة التى كان يعتكف بها ، وهى مغارة تتسع فى المبدأ لمجموعة من الناس ، ثم ينزل بها الإنسان فيصل إلى مكان يتسع لأفراد قليلين ، وينزل فيها من جديد حتى يصل إلى المكان الأخير الذى لايتسع إلا لشخص واحد ، ونزلت إلى نهايتها ، وجلست خاشعا متعبدا حيث كان يتعبد أبو الحسن ، وحيث كان يقضى الساعات الطوال ليلا ونهارا ، وحيث كان يخلو — فريدا — بربه متضرعا ، يغلبه الشوق ، وتغمره المحبة ، ويعمر قلبه اليقين .

وشعرت فى المغارة بطمأنينة النفس ، وبالسكينة تملأنى ، وبتجمع خواطرى بصورة عجيبة ، وبالتركز الذهنى الذى يندر ويعز وجوده .

وترددت على المغارة فى أعلا الجبل .

وفى كل مرة أزور فيها المغارة : تتردد ذكريات الكتاب على ذهنى ، والصحف التى طويت ، وتتجدد مع ذلك الرغبة فى الكتابة عن أبى الحسن .

ومع ذلك بقيت الصحف مطوية . بيد أن المراجع عن أبى الحسن قد ازدادت فها أنا أجد طبعة تونسية لكتاب « لطائف المنن » .

وها هو ذا شيخ الجامع الذى فى أعلا الجبل عند المغارة يزودنى بأحزاب أبى الحسن التى طبعوها فى تونس .

وها أنا ذا أحضر الحضرات الشاذلية فى المكان نفسه الذى كان يقيمها فيه أبو الحسن رضى الله عنه .

وفى هذه الفترة كان الأستاذ على سالم عمار ينشر دراسة مستفيضة مرواة فى جزأين عن أبى الحسن .

كل ذلك جعل عدتى للكتابة عن أبى الحسن تزداد عتادا ، وتزداد قوة . . ولكن الصحف ماتزال مطوية .

ثم كانت ملابسات عديدة ، وظروف متناسقة ، جعلتنى آخذ الطريق الشاذلى ، وأندمج فى جو المريدين ، وأواظب على الأوراد والأذكار الشاذلية ، ومكثت كذلك إلى أن كان شهر مارس سنة ١٩٦٤ .

كنت فى ليبيا أستاذا زائرا للجامعة الإسلامية هناك . وكنت قد انتهيت من إلقاء المحاضرات فى البيضاء ، وبنى غازى ، وزليطن ، وطرابلس ، وكنت قد اتخذت الإجراءات للسفر حاجا إلى بيت الله الحرام .

وبينا أنا فى طرابلس انتظر أن أبحر منها إلى الأراضى المقدسة إذا بى أرى ـ فيما يراه النائم ـ شخصا أعرفه ـ اسمه «توفيق» ، أراه فى ملابس غير ملابسه العادية ، أراه يلبس ملابس شرطى ، ويمسك بيده قيدا ويقول لى آمرا :

أكتب عن أبى الحسن الشاذلى .

وتلكأت فى الاستجابة ، وأردت أن أهمل الموضوع ، وأن أتحدث معه فى شىء آخر ، فإذا به يهدد بوضع القيد فى يدى ، وإذا به ينذر ويتوعد ، فقلت له :

هل معنى ذلك أن أترك ما بيدى من أعمال لأكتب عن أبى الحسن الشاذلى ؟ فقال :

نعم : اترك ما بيدك من أعمال واكتب عن أبي الحسن ، ورضي «توفيق» حينما وعدت بالكتابة . . واستيقظت .

ويسر الله أمر الحج والحمد لله .

وحينما عدت إلى القاهرة حاولت – مع وضوح الرؤيا في ذهني ومع تذكري لها – أن أرجئ أمر الكتابة عن أبي الحسن . لماذا ؟ لست أدري .

وأخذت في دراسة سهل بن عبد الله التستري ، فقد كنت موطنا النفس على أن أعطي لطلبة كلية أصول الدين محاضرات عن التفسير الصوفي ، وأن آخذ الأمثلة من سهل بن عبد الله ، ورأيت أن من الخير أن يكون بين يدي الطلبة كتاب عن هذا الصوفي الذي لم ينل حظه من الدراسة .

وبينما أنا سائر في البدايات الأولى من الدراسة والكتابة : إذا بعاصفة من هذه العواصف التي تمر بالإنسانية من آن لآخر ، تبعدني عن التستري ، وعن التفسير الصوفي ، تبعدني عنه في المكان ، وتبعدني عنه في الجو الروحي ، وطويت صحف التستري بل زالت من نفسي – وأرجو أن يكون ذلك مؤقتا – الطاقة الدافعة التي كانت تحفزني على الكتابة عنه . وعند ذلك تذكرت الرؤيا ، وتذكرت « توفيق » وهو يقول : « اترك كل شيء واكتب عن أبي الحسن الشاذلي » .

ومضت أسابيع لم أشتغل فيها إلا بالقراءة السهلة في مختلف الموضوعات كيفما اتفق .

وفي خلال هذه الأسابيع أخذ الانفعال الذي سببه تذكر الرؤيا ، والرؤيا نفسها ، يزول من نفسي شيئاً فشيئاً ، وبمرور الزمن لم تعد الرؤيا في بؤرة الشعور وأصبحت في الهامش البعيد .

ثم رأيت ـ ولست أدرى الآن كيف جاءت الفكرة حينئذ ـ أننى كتبت فيما مضى ، فى فترات متباعدة ، عن موضوع « الإيمان » وأن هذا الموضوع ـ وقد فكرت فيه فيما مضى وكتبت فى زوايا منه ، وتحدثت عنه فى الإذاعة وفى التليفزيون ـ يسهل على تناوله بالبحث والدراسة ، ويتيسر أن أعود فيه إلى المراجع من جديد ، وإلى ما كتبت ، فأنسق وأضيف ، وأحذف وأزيد آملا أن أنشر دراسة لعلها تفيد فى العصر الحاضر .

وذات يوم أخذت بعض المراجع عن موضوع الإيمان فى رحلة إلى الريف آمل أن أجد فى هدوء الريف وصفائه ما يساعد على التركيز الذهنى والسرعة فى إنجاز الموضوع ، وكنت مع بعض الأصدقاء . . ونزلنا من السيارة ـ سيارة أجرة ـ أمام القرية ، وعادت السيارة من حيث أتت ، عادت وبداخلها المراجع ، ولم نتذكرها إلا بعد أن أصبحت السيارة بحيث لا أثر لها من رقم أو عنوان ، أو غير ذلك من آثار ؛ وكما تذكرت الرؤيا عند عاصفة التسترى ، تذكرتها عندما أصبحت السيارة لاعينا ولا أثرا :

« اترك ما بيدك واكتب عن الشاذلى » .

وقلت فى نفسى لنكتف بهذه الدروس ولنبدأ — والله المستعان وبه التوفيق — بالشاذلى ثم يكون ما يريده الله بعد ذلك من مؤلفات ، وعدت إلى الشاذلى ووجدت المراجع مستكملة :

المراجع الأصيلة .

والمراجع الثانوية .

وكتب الطبقات .

وجدت المراجع القديمة والمراجع الحديثة .

لقد وجدت كل ما أحتاج إليه عن الشاذلى فى متناول يدى . ووجدت العمل ميسرا سهلا ووجدت الصدر منشرحا والحمد لله .

هذه قصتى مع أبى الحسن رويتها كما حدثت دون زيادة أو نقص .

ولقد كان لأبى الحسن أثر هائل فى هداية الناس على مر الزمن . لقد كان له أثر ينتقل أريجه الزكى من شخص إلى شخص ، ومن عصر إلى عصر حتى وقتنا الحاضر ، ولقد بدأ هذا الأثر بالثمرة اليافعة فى العارف بالله ، القطب الكبير أبى العباس المرسى وفى من حول الشيخ من أصدقاء ومريدين وأسلم أبو العباس المشعل — مشعل الهداية — إلى شيخ العلماء وشيخ الصوفية فى عصره : ابن عطاء الله السكندرى صاحب الحكم التى قال عنها أحد كبار العلماء : كاد الحكم أن يكون قرآنا ، رضى الله عنه .

لقد حمل ابن عطاء الله المشعل فأنار به من حوله واستنار به من بعده ، وبقى النور للآن فى كتبه يضىء الطريق للسالكين وبقى متنقلا من جيل إلى جيل يشير بسنائه إلى أبى الحسن كمنبع من منابع الهدى وكعلم من الأعلام الذين اتبعوا هدى الله فى كتابه العزيز واقتفوا أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولا وعملا واتخذوه أسوة فى سلوكهم فى اليسير من الأمور والعظيم منها .

لقد بقى نور أبى الحسن للآن ، وإن المدرسة الشاذلية الحديثة فى عصرنا الراهن بقادتها وهم كالنجوم وبمريديها يسيرون فى ضوئهم لخير دليل على الأثر الضخم الذى تركه أبو الحسن رضى الله عنه .

يقول الله تعالى :

سنكتب ما قدموا وآثارهم

وما من شك فى أن آثار أبى الحسن ستملأ سجلات وسجلات بمن هداهم الله إلى سلوك طريق الحق على يديه وعلى يدى أتباعه سلسلة بعد سلسلة إلى ما شاء الله .

ولقد رأينا بمشيئة الله ، أن نبين فى وضوح أثر الإمام الشاذلى فى العصر الحديث ، خاصة ، فتخطينا القرون ، منذ أن دعا الشاذلى إلى الله ، حتى وصلنا إلى القرن الرابع عشر الهجرى .

والقرن الرابع عشر الهجرى مليء بالمقربين من أعلام الشاذلية ، الذين أرضوا الله ورسوله فتخلقوا بأخلاق الله واتبعوا سنة رسوله ، ولـكننا تخيرنا ، بتوفيق الله ، من بين أولياء الله المقربين شيخين جليلين : لاتصالنا بهما عن قرب ، وكان هذا الاتصال هو السبب فى اختيارهما .

أحدهما من أوربا : فرنسى ، من أعماق فرنسا ، عاش شبابه فى باريس ثم تابع حياته فى القاهرة ، يعرفه الغرب كله : أمريكا وأوربا ، لأنه من نابهى قادة الاتجاه الصوفى الأصيل ، يذكره المؤرخون للأديان ، ويذكره المتصلون بالروحية ، ويذكره أئمة الدعاة إلى إصلاح الحضارة الحديثة ، والسمو بها إلى المستوى المثالى : إنه العارف بالله الشيخ عبد الواحد يحيى .

وهو من الذين أخذوا العهد الشاذلى ، أخذه على يد العارف بالله المرحوم الشيخ سلامة الراضى . إن الـكبار فى السن من أتباع الشيخ سلامة الراضى عليه رضوان الله ، لايزالون يذكرون ذلك « الشيخ » الأوربى ، بجبته الخضراء ، وعمامته البيضاء ، وقامته الفارعة الأقرب إلى النحافة منها إلى السمنة ، ولا يزالون يذكرون وجهه المشرق بالنور ، وسمته الملائـكى ، ومشيته الوقورة ، وجلوسه بين يدى الشيخ متواضعا مهذبا محاولا أن يسكت كل

سائل فى تلطف ظاهر ، حتى يستمر الشيخ فى حديثه منطلقا مع المدد لا تحد حدود الأسئلة ولا ينزل به مستوى الأفهام البشرية ، إنه شاذلى من الغرب : عن هذا الشاذلى سنكتب الباب الثانى من هذا الكتاب إن شاء الله .

والثانى شاذلى من الشرق : وعنه سنكتب إن شاء الله ، الباب الثالث، إنه العارف بالله ، الشيخ عبد الفتاح القاضى ، وهو برهان واضح على قوله عليه الصلاة السلام : « الخير فى وفى أمتى إلى يوم القيامة » .

وعلى قوله صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه البخارى باسناده عن معاوية : لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله ما يضرهم من كذبهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك .

لقد استمسك الشيخ عبدالفتاح القاضى بالحق منذ سنة المبكره : استمسك به فى الصورة القرآنية التى أتقنها حفظا وعلما وعملا ، واستمسك به فى الصورة النبوية التى أحبها روحا وسلوكا ، وتأسى بها حسا ومعنى ، واستمسك به فى صور الصالحين وسلوكهم .

لقد جاهد ، واختلى ، وذكر ، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصام ، وصلى ، واستمر على ذلك مواصلا ليله بنهاره حتى استوت سفينته على الجودى ، فقال : الحمد لله رب العالمين ، ثم انبسط فى الخلق هادياً ومرشداً ، وفى المريدين مهذباً ومعلماً وقائداً إلى الله سبحانه .

لقد جاهد فى الحياة هادياً إلى الله فكان كوكباً تألق فى سماء الروح ، وانعكس ضوؤه على أتباعه ومريديه .

إنه باق بروحه فى هؤلاء الدعاة إلى الله الذين يجمعهم كل يوم مسجد القاضى بشبلنجة . هذا المسجد الرائع الذى وضع الشيخ رسمه فاشترى أرضه وتم المسجد

بعد وفاته وبقى أثراً من آثاره . ونرجوا من الله التوفيق فيما نكتبه عن إمامنا الشاذلى وعن تابعيه .

ولقد اقتصرنا فى أحزاب الشاذلى ـ معتمدين ـ على ما أورده ابن الصباغ فى درة الأسرار وما أورده ابن عطاء الله فى لطائف المنن . بيد أن بعض إخواننا طلب فى إلحاح أن نضع ضمن الأحزاب حزب اللطف على الأقل .

والواقع أن هذا الحزب الجليل يدل بأسلوبه وبروحه على أنه للإمام الجليل ومن أجل ذلك ، ودون أن نخل بما التزمناه عمداً ، فإننا نلبى فى سرور رغبات الأصدقاء .

وسيجد القراء حزب اللطف باعتباره من أوراد الشيخ القاضى .

ونعتذر إلى الأصدقاء إذ فعلنا ذلك : رعاية لما التزمناه .

وسيجد القراء مجموعة من نصائح الإمام الشاذلى : نوردها بعد أحزابه وهذه الوصايا ذكرها الكمال الدميرى عند الكلام على الإنسان ، وقد نقلناها عن الكتاب المبارك .

« المختصر فى معانى أسماء الله الحسنى » للأستاذ محمود سامى بك ، الذى قال عنها : إنها جمعت خير الدنيا والآخرة .

ونحن لا نعتقد أن هذه الوصايا قد ألفها الإمام الشاذلى مجموعة مرتبة على وضعها فى الكتاب ، بل قد جمعها ـ فيما نرى ـ أحد أتباع الإمام من درره المتناثرة هنا وهناك ، أو جمعها الكمال الدميرى نفسه ، وهى على كل حال من نفيس كلام أبى الحسن .

والله نسأل أن يهدينا جميعاً سواء السبيل وأن ينفع بهذا الكتاب كما نفع بأبى الحسن ، وأن يهدى له ويهدى به إنه قريب مجيب وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

البابُ الأوّل

أبو الحسن الشـاذلى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد . .

— ١ —

فيقول الشيخ أبو العباس ، رضى الله عنه ، كنت مع الشيخ أبى الحسن بالقيروان :

وكان شهر رمضان .

وكانت ليلة جمعة .

وكانت ليلة سبع وعشرين .

فذهب الشيخ إلى الجامع ، وذهبت معه .

فلما دخل الجامع ، وأحرم ، رأيت الأولياء يتساقطون عليه ، كما يتساقط الذباب على العسل ، فلما أصبحنا وخرجنا من الجامع قال الشيخ :

ما كانت البارحة إلا ليلة عظيمة ، وكانت ليلة القدر ورأيت الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول :

يا علىّ طهر ثيابك من الدنس ، تحظ بمدد الله فى كل نفس .

قلت يارسول الله :

وما ثيابى ؟

قال : أعلم أن الله قد خلع عليك خمس خلع : خلعة المحبة ، وخلعة المعرفة ، وخلعة التوحيد ، وخلعة الايمان ، وخلعة الإسلام .

فمن أحب الله هان عليه كل شيء .

ومن عرف الله، صغرلديه كل شيء .

ومن وحد الله لم يشرك به شيئاً .

ومن آمن بالله أمن من كل شيء .

ومن أسلم لله قل ما يعصيه ، وإن عصاه اعتذر إليه ، وإن اعتذر إليه قبل عذره .

ففهمت حينئذ معنى قوله عز وجل :

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ (١) .

ويقول ابن عطاء الله عن أبى الحسن الشاذلى :

« لم يختلف فى قطبانيته ذو قلب مستنير ، ولا عارف بصير » .

جاء فى هذا الطريق بالعجب العجاب ، وشرع فى علم الحقيقة الأطناب ، ووسع للسالكين الرحاب ، حتى لقد سمعت الشيخ الإمام مفتى الإسلام تقى الدين محمد بن على القشيرى رحمه الله ، يقول :

«ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، رضى لله عنه» اه .

وإذا كان هذا هو رأى مفتى الإسلام تقى الدين القشيرى ، فإن الشيخ مكين الدين الأسمر يقول :

مكثت أربعين سنة يشكل على الأمر فى طريق القوم فلا أجد من يتكلم عليه ،

---

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله ص ٤٨ الطبعة التونسية .

ويزيل عنى إشكاله حتى ورد الشيخ أبو الحسن فأزال كل شىء أشكل على(٢) .

ولما قدم بعض الدالين على الله إلى الإسكندرية ، والتقى به الشيخ مكين الدين الأسمر قال :

« هذا الرجل يدعو الناس إلى باب الله ، وكان الشيخ أبو الحسن يدخلهم على الله » .

على أن الشهادة التى يقدرها حق قدرها أهل الباطن، وأهل الظاهر، وأهل الحقيقة ، وأهل الشريعة ، إنما هى شهادة شيخ الإسلام العز بن عبد السلام : يقول ابن عطاء الله فى لطائف المنن :

« اخبرنى الشيخ العارف مكين الدين الأسمر رضى الله عنه قال :

حضرت بالمنصورة فى خيمة فيها الشيخ الإمام مفتى الأنام : عز الدين بن عبد السلام ، والشيخ مجد الدين بن تقى الدين على بن وهب القشيرى المدرس ، والشيخ محيى الدين بن سراقة ، والشيخ مجد الدين الاخميمى ، والشيخ أبو الحسن الشاذلى ، رضى الله عنهم ، ورسالة القشيرى تقرأ عليهم ، وهم يتكلمون، والسيخ أبو الحسن صامت إلى أن فرغ كلامهم ، فقالوا :

يا سيدى نريد أن نسمع منك ، فقال :

أنتم سادات الوقت وكبراؤه ، وقد تكلمتم ، فقالوا :

لا بد أن نسمع منك .

قال : فسكت الشيخ ساعة : ثم تكلم بالاسرار العجيبة ، والعلوم الجليلة ؛ فقام الشيخ عز الدين ، وخرج من صدر الخيمة ، وفارق موضعه ، وقال :

اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله » اهـ :

---

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله ص ٥٨ الطبعة التونسية .

إن كلام أبى الحسن قريب العهد من الله على حد تعبير العز بن عبد السلام ، أى أن كلامه الهام من الله ، إنه ليس علماً مكتسبا من الكتب ، إنه ليس تقليداً ولا توليداً ، إنه ليس نتيجة دراسة وبحث – وإن كان الشيخ قد أطال الدرس والبحث – وليس ثمرة كتب ومنطق – وإن كان الشيخ قد أطال النظر فى الكتب ، وأنعم الروية فيها – وإنما هو الهام وبصيرة ونور من نور الله سبحانه.

ومع بلوغه هذه المنزلة ، أو بسبب بلوغه هذه المنزلة كان يقول :

من لم يزدد بعلمه وعمله افتقارا إلى ربه ، وتواضعا لخلقه ، فهو هالك .

ويقول : لا تركن إلى علم ولا مدد وكن بالله ، واحذر أن تنشر علمك ليصدقك الناس ، وانشر علمك ليصدقك الله تعالى .

— ٢ —

ولعلنا بعد هذا نريد أن نعرف شيئاً عن هذا الذى يقول عنه العز بن عبد السلام : إن كلامه قريب العهد من الله .

إنه على بن عبد الله بن عبد الجبار . . وينتهى نسبه إلى سيدنا الحسن بن على بن أبى طالب .

ولد ببلاد المغرب سنه ٥٩٣ هـ : بقرية تسمى « غمارة » (١) .

وأخذ يدرس بها العلوم الدينية : وسائل وغايات ، وبرع فيها براعة كبيرة .

يقول ابن عطاء الله السكندرى عنه :

أنه لم يدخل طريق القوم حتى كان يعد للمناظرة فى العلوم الظاهرة .

بيد أن هذه العلوم الظاهرة مهما بلغت بها الدقة ، ومهما بلغ بها العمق ، لا تفضى بالنفوس الطموحة إلى الكف عن التطلع نحو عالم الغيب ، واستشراف آلائه وأنواره .

---

(١) بلدة مغربية : قريبة من مدينة سبته .

كيف يصل الإنسان إلى عالم الغيب ؟

كيف ينغمس الإنسان فى أضوائه ؟

كيف ينعم بجماله ، ويشعر بالروعة فى محيط جلاله ؟

إن النفوس الطموحة كلما ازدادت علماً ، ازدادت شعوراً بالنقص ، والكمال لله وحده ، ولقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يقول :

﴿ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

وشعر أبو الحسن بالرغبة الملحة فى القرب من الله ، وفى أن يستضىء قلبه بنور المعرفة ، وفى أن يكشف الله له الحجب .

كيف يروى هذه الرغبة ؟ كيف يسير فى الطريق ؟ من أين يبدأ ؟

من أين يبدأ ؟؟؟

لقد رسم الأول الطريق : إن البدء ، البدء الميسر السهل ، البدء الذى يأمن الإنسان عواقبه ، إنما يكون طريقه خبير سبر الطرق ، ومحص السبل ، وكشف عن المزالق والأخطار ، واستنار قلبه بالطريق القاصد إلى الله .

أين يجد هذا الشيخ ؟ ما السبيل إليه ؟

إن بغداد ، منذ عهد العباسيين ، كانت دائما محط أنظار طلاب الدنيا ، وطلاب الدين .

لقد كانت تضم كبار الفقهاء ، وأعلام المحدثين ، والقمم العوالى من الصوفية ، كما تضم كبار الساسة والقادة . كان ذلك فى عهدها الزاهر ، فهل ياترى هى كذلك فى القرن السابع الهجرى ؟

وإذا لم يكن لها كل البريق المادى الأول فهل بها على الأقل من الصوفية من يرسم الطريق عن خبرة ، ومن يسلك بالمريد السبل دون أخطاء ؟

وتحمل الرغبة الملحة أبا الحسن على السفر ، إنها هجرة إلى الله ، إنها هجرة النفس الطلعة الشفافة .

وهى هجرة يسير بها الأمل ، ويتخللها الاشفاق ، وتصاحبها فى كل الأوقات أسئلة لا جواب لها :

هل سيجد الشيخ ؟

وكيف يكون ؟

وهل سيتقبله الشيخ بقبول حسن ؟

وبم سينصحه ؟

وإذا لم يجده فى بغداد فأين يجده ؟

وانتهى به المطاف إلى بغداد ، والتقى بالأولياء ، وكان قمتهم فى نظره هوأبو الفتح الواسطى ، يقول أبو الحسن :

لما دخلت العراق اجتمعت بالشيخ الصالح أبى الفتح الواسطى ، فما رأيت بالعراق مثله .

ولكن همة أبى الحسن كانت تسمو إلى البحث عن القطب ذاته ، إنه كان يريد أن يكون قائده هو القطب نفسه ، أين يجد القطب ؟

ها هو ذا بالعراق ، وها همأولاءالصالحون ؛ وأولياء الله يترددعليهم كل يوم

وها هو ذا يرى النور على وجوههم ، والصلاح يرتسم على سيماهم،ولكنه لم يجد القطب وهو مطلوبه . وذات يوم . .

وذات يوم قال له أحد الأولياء :

أنك تبحث عن القطب بالعراق مع أن القطب ببلادك ، ارجع إلى بلادك تجده (١)

وعاد أبو الحسن من حيث أتى ، عاد يحدوه الأمل ، ويغمره الرجاء . لقد صدّق الولى الذى انبأه بأن القطب فى بلاده ، وبأنه سيجده عند عودته... ،

وعاد يسرع الخطا ويستحث الوصول .

ها هو ذا بغماره من جديد يسأل عن القطب المقبل والمدبر ، والراحل والمقيم :

أقول أكاد اليوم أن ابلغ المدى فيبعد عنى ما أقول أكاد

أسائلكم عنها فهل من مخبر فمالى بنعم مذ نأت دارها علم

فلو كنت أدرى أين خيم أهلها وأى بلاد الله - إذ ظعنوا - أموا

أذن لسلكنا مسلك الريح خلفها ولو أصبحت نعم ومن دونها النجم

وذات يوم . .

يقول أبو الحسن :

لما قدمت عليه وهو ساكن بمغارة فى رأس جبل ، اغتسلت فى عين بأسفل ذلك الجبل ، وخرجت عن علمى وعملى ، وطلعت إليه فقيرا ، وإذا به هابط إلى ، وعليه مرقعة ، وعلى رأسه قلنسوة من خوص ، فقال لى :

مرحبا بعلى بن عبد الله بن عبد الجبار ، وذكر نسبي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لى :

يا على طلعت إلينا فقيراً من علمك وعملك ، فأخذت منا غنى الدنيا والآخرة . فأخذنى منه الدهش ، فأقمت عنده أياما إلى أن فتح الله على بصيرتى .

---

(١) درة الاسرار ص ٢٣ .

من هو ذلك العارف بالله ؟

من هو هذا القطب؟لا بدمن قبسات خاطفة من أنواره ،وغمسة خفيفة فى لألائه:

إنه الولى الكبير سيدنا عبد السلام بن مشيش : يقول عنه صاحب الدرر البهية :

« هو القطب الأكبر ، والعلم الأشهر ، والطود الأظهر العالى السنام :

وهو البدر الطالع الواضح البرهان ، الغنى عن التعريف والبيان ، المشتهر فى الدنيا قدره ، والذى لا يختلف فى غوثيته اثنان .

وطريقه ترياق شاف لأدواء العباد ، وذكره رحمة نازلة فى كل ناد .

سرى سره فى الآفاق ، وسارت بمناقبة الركبان والرفاق .

قضى عمره فى العبادة ، وقصده للانتفاع به أهل السعادة .

وكان رضى الله عنه فى العلم فى الغاية ، وفى الزهد فى النهاية ، جمع الله له الشرفين :

الطينى والدينى ، وأحرز الفضل المحقق اليقينى » اهـ .

ولقد كان مقام ابن مشيش فى المغرب كمقام الشافعى بمصر ، على حد تعبير ابن عياد فى المفاخر العلية .

كان ابن مشيش متمسكا بالكتاب والسنة ، عاملا بهما ، ملتزماً لهما وهو القائل :

أفضل الأعمال : أربعة بعد أربعة ، المحبة لله ، والرضا بقضاء الله ، والزهد فى الدنيا ، والتوكل على الله ، هذه أربعة .

وأما الأربعة الأخرى : فالقيام بفرائض الله ، والاجتناب لمحارم الله ،

والصبر عما لا يعنى ، والورع من كل شيء يلهى (١).

وليتأمل القارىء فى مدى انغماس سيدنا ابن مشيش فى النور ، وما وصل إليه من الفضل الإلهى ، وذلك فيما يأتى من مرويات الإمام الشعرانى :

يقول أبو الحسن الشاذلى :

أو صانى أستاذى ، رحمه الله تعالى ، فقال :

« حدد بصر الإيمان تجد الله فى كل شيء ،

وعند كل شيء .

ومع كل شيء .

وفوق كل شيء .

وقريباً من كل شيء .

ومحيطاً بكل شيء .

بقرب هو وصفه .

وبإحاطة هى نعته .

وعدعن الظرفية والحدود .

وعن الأماكن والجهات .

وعن الصحبة والقرب بالمسافات :

وعن الدور بالمخلوقات .

وامحق الكل بوصفه : الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن . كان الله ولا شيء معه » اهـ .

(١) عن كتاب : أبو الحسن الشاذلى للاستاذ على سالم عمارة :

أما صاحب لطائف المنن ، فإنه يروى عنه حديثاً جميلا عن المحبة : حديثاً يشعرك بأن المتحدث قد جال فى ميدان المحبة جولة صادقة ، وسار فى طرقاتها سيراً موفقاً ، ورتع فى رياضها وشرب من حياضها فأطال الشرب ، يقول صاحب اللطائف .

وقال الشيخ القطب : عبد السلام بن مشيش شيخ : الشيخ أبى الحسن ، رضى الله عنهما :

« الزم الطهارة من الشرك : كلما أحدثت تطهرت من دنس حب الدنيا ، وكلما مات إلى الشهوة أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى أو كدت .

وعليك بمحبة الله على التوقير والنزاهة وأدمن الشرب بكأسها مع السكر والصحو ، كلما أفقت أو تيقظت شربت ، حتى يكون سكرك وصحوك به ، وحتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشراب والشرب والكأس ، بما يبدو لك من نور جماله وقدس كمال جلاله .

ولعلى أحدث من لا يعرف المحبة، ولا الشراب، ولا الشرب ،ولا الكأس ولا السكر ، ولا الصحو .

قال له القائل :

أجل ، وكم من غريق فى شىء لا يعرف بغرقه ، فعرفنى ونبهنى عما أجهل ، أو لما من به على وأنا عنه غافل :

. قلت لك : نعم ،

المحبة آخذة من الله تعالى ، قلب من أحب بما يكشف من نور جماله ، وقدس كمال جلاله .

وشراب المحبة : مزج الأوصاف بالأوصاف، والأخلاق بالأخلاق، والأنوار

بالأنوار والأسماء بالأسماء ، والنعوت بالنعوت ، والأفعال بالأفعال، ويتسع فيه النظر لمن شاء الله عز وجل .

والشرب سقى القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب ، حتى يسكر ويكون الشرب بالتدريب بعد التذويب والتهذيب ، فيسقى كل على قدره .

فمنهم : من يسقى بغير واسطة ، والله سبحانه ، يتولى ذلك منه له .

ومنهم من يسقى من جهة الوسائط كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين .

فمنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئا ، فما ظنك بعد بالذوق، وبعد بالشرب ، وبعد بالرى ، وبعد بالسكر بالمشروب ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى ، كما أن السكر أيضا كذلك .

والكأس مغرفة الحق : يغرف بها من ذلك الشراب الطهور المحض الصافى لمن شاء من عباده المخصوصين من خلقه .

فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة .

وتارة يشهدها معنوية .

وتارة يشهدها علمية .

فالصورة : حظ الأبدان والأنفس ،

والمعنوية : حظ القلوب والعقول ،

والعلمية : حظ الأرواح والأسرار،

فياله من شراب ما أعذبه ! فطوبى لمن شرب منه وداوم عليه ولم يقطع عنه.

نسأل الله من فضله .

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقد يجتمع جماعة من المحبين فيسقون من كأس واحدة .

وقد يسقون من كئوس كثيرة ،

وقد يسقى الواحد بكأس وكؤوس ،

وقد تختلف الأشربة بحسب عدد الكؤوس ،

وقد يختلف الشرب من كأس واحدة وإن شرب منه الجم الغفير من الأحبة[1] .

ويروى الشيخ أبو الحسن ما يلى :

دخل رجل على أستاذى فقال له :

وظف لى وظائف وأورادا ، فغضب الشيخ منه ، وقال له :

أرسول أنا ، أوجب الواجبات ؟

الفرائض معلومة ، والمعاصى مشهورة ، فكن للفرائض حافظا ، وللمعاصى رافضا ، واحفظ قلبك من ارادة الدنيا ، وحب النساء ، وحب الجاه ، وإيثار الشهوات ، واقنع من ذلك كله بما قسم الله لك ؛ إذا خرج لك مخرج الرضا فكن لله فيه شاكرا ، وإذا خرج لك مخرج السخط فكن عنه صابرا .

وحب الله قطب تدور عليه الخيرات ، وأصل جامع لأنوار الكرامات.

ومصدر ذلك كله أربعة :

صدق الورع ، وحسن النية ، وإخلاص العمل ، ومحبة العلم .

ولا تتم لك هذه الجملة إلا بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح » اهـ .

ولقد بهر ابن مشيش أبا الحسن الشاذلى ، بهره بعلمه المشيد على الكتاب والسنة، وبهره بولايته وكراماته ، يقول أبو الحسن ، كما يروى صاحب كتاب درة الأسرار .

---

(١) لطائف المنن ص ٣٤ ، ٣٥ .

« ورأيت له خرق عادات كثيرة ، فمنها أننى كنت يوما جالسا بين يديه ، وفى حجره ابن له صغير يلاعبه ، فخطر ببالى أن أسأله عن اسم الله الأعظم ، قال : فقام إلى الولد ، ورمى بيده فى طوقى ، وهزنى ، وقال .

يا أبا الحسن ، أنت أردت أن تسأل الشيخ عن اسم الله الأعظم ، ليس الشأن أن تسأل عن اسم الله الأعظم ، إنما الشأن أن تكون أنت هو اسم الله الأعظم ، يعنى أن سر الله مودع فى قلبك .

قال فتبسم الشيخ وقال لى :

« جاوبك فلان عنى » اھ .

ورسم ابن مشيش حياة أبى الحسن فيما يستقبله من أيام ، وذلك أنه حينما انتهت مدة إقامة أبى الحسن قال له :

يا على ، ارتحل إلى إفريقية ، واسكن بها بلدا تسمى بشاذلة : فان الله عز وجل يسميك ، الشاذلى .

وبعد ذلك تنتقل إلى مدينة تونس ، ويؤتى عليك بها من قبل السلطنة .

وبعد ذلك تنتقل إلى أرض المشرق ، وبها ترث القطابة .

إن هذا المنهج الذى رسمه ابن مشيش وهو ينظر إلى الغيب بنور الله قد تحقق حرفيا ، وسنسير معه الآن خطوة خطوة .

ولا ننسى ، قبل أن نصاحب أبا الحسن إلى شاذلة أن نذكر أنه لما حان موعد الفراق خاطب أبو الحسن شيخه قائلا .

ياسيدى : أوصنى .

فقال له :

« يا على ، الله الله ، والناس الناس ، نزه لسانك عن ذكرهم وقلبك عن التمايل من قبلهم .

وعليك بحفظ الجوارح وأداء الفرائض ، وقد تمت ولاية الله عندك .

ولا تذكرهم إلا بواجب حق الله عليك ، وقد تم ورعك .

وقل : اللهم أرحني من ذكرهم ، ومن العوارض من قبلهم ، ونجني من شرهم ، واغنني بخيرك عن خيرهم ، وتولني بالخصوصية من بينهم ، إنك على كل شيء قدير » .

وودع الشيخ شيخه ، وسار وقد وضح أمامه الطريق .

إن سيره الآن ليس كسيره إلى العراق : إنه الآن يسير على هدى من أمره وإذا كان شيخه قد أنذره بابتلاء الله له فى تونس فإنه بشره بالعاقبة الحميدة فى أرض المشرق .

أما الفترة التى يقضيها بشاذلة ، فإنها ، فيما يبدو ، فترة صقل لابد منه ، إنها فترة عبادة ونسك على الخصوص ، وذلك أساس ضرورى لكل من أراد البناء الخالد .

وما من شك فى أن أبا الحسن، وقد هيأ الله له سبل الهداية عابدا أو مهاجرا وسائحا فى سبيل الله ، كان منار هداية ومبعث نور أينما حل ، خصوصا بعد أن هداه الله إلى ابن مشيش . .

ولكنه لم يكن بعد قطبا .

فالقطابة سيرثها فى أرض المشرق.

ولقد كان الشيخ نفسه يشعر بحاجته إلى المجاهدة ، وذلك شيمة كل مخلص، إن المخلصين وإمامهم رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ، يشعرون ، مهما بلغوا ، أنهم فى حاجة إلى مزيد من فضل الله .

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

وطريق زيادة العلم بالنسبة لأولياء الله ، إنما هو الجهاد فى الله .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾

ولله مع ذلك منح ومواهب لا تتعلق بسبب ولا تترتب على علل .

ومن أجل ذلك فإنه بمجرد أن وصل شيخنا إلى شاذلة ، ورأى التفاف الناس به — ولقد كان بعضهم يترقب حضوره قبل مجيئه دون أن تكون هناك أخبار عن حضوره — وطن العزم على أن يكون فى محيط شاذلة لا فى المدينة نفسها .

فسافر إلى جبل زغوان وصحبه فى رحلته هذه ، أبو محمد عبدالله بن سلامة الحبيبى من أهل شاذلة ، وكان رجلا تقيا صالحا مكاشفا .

أما رحلة أبى الحسن إلى جبل زغوان فان لها فائدتين :

الأولى هى تفرغه هو للعبادة ، ولا بد من هذا التفرغ مادام الإنسان لم يأته الأذن بعد بالدعوة ، لابد من التفرغ لاستكمال نقص ، أو للبعد عن الفتنة ، أو للتغلب على آثار هوى .

ولابد من هذا التفرغ استجماما روحيا ، وعلاجاً نفسياً ، وبعثا لكوامن من الفضائل .

ولابد من هذا التفرغ : ليرقى فى مدارج السالكين ، وليحقق العروج فى معارج القدس ، وليسرع الخطى متدرجا فى منازل الأرواح .

ولابد من هذا التفرغ فرارا إلى الله :

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ ﴾

﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾

أما الفائدة الثانية من الذهاب إلى جبل زغوان فإنها منع اللاهين المتطفلين

من الجلوس على مائدة الشيخ الروحية : ذلك أنه سوف لا يذهب جبل زغوان لرؤية الشيخ الا محب للمعرفة جاد فى طلبها .

وما كان الشيخ على الجبل محجوبا عمن يريد لقاءه ، كلا ، ولكنه بذلك أتاح لنفسه الفرصة للتعبد وللمجاهدة .

وأخذ الشيخ يتعبد على هذا الجبل دهرا طويلا يصحبه طيلة هذه المدة « الشيخ الصالح أبو محمد الحبيبى ، الولى المكاشف »[1] وهو أول من صحب الشيخ بشاذلة وهو الذى روى من كرامات الشيخ فى هذه الفترة الشىء الكثير.

ويقول صاحب كتاب درة الأسرار :

فمما حكى عنه قال :

قرأ الشيخ يوما على جبل زغوان سورة الأنعام إلى أن بلغ إلى قوله تعالى:
﴿ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَ يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾

أصابه حال عظيم ، وجعل يكررها ويتحرك ، فكلما مال إلى جهة مال الجبل نحوها حتى سكن الجبل .

ولقد كان أبو محمد الحبيبى يتحدث عن كرامات الشيخ فى هذه الفترة ، فإذا ما سكت سأله الناس واستزادوه .

وما كانت حياتهما على الجبل إلا على نباتات الأرض وأعشابها حتى أنه لقد كانت أشداق أبى محمد الحبيبى تتقرح أحيانا فيشفق عليه أبو الحسن وينزل معه إلى شاذلة ليجد الغذاء الذى لا يضر به .

وإن حياة جهاد فى الله كهذه ، لابد لها من ثمارها من الكرامات ، ومن شفافية النفس ، ومن القرب من الله ، ومن رضوانه سبحانه .

---

(١) درة الأسرار .

وليس بغريب إذن أن نعرف أن الله سبحانه انبع لها عيناً تجرى بمـاء عذب .

وأن كانت الملائـكة ـ يراها الحبيبى — تحف بأبى الحسن بعضها يسأله فيجيبه ، وبعضها يسير معه .

وليس بغريب أن تأتى أرواح الأولياء زرافات ووحدانا ـ يراها الحبيبى أيضاً ـ تحف بأبى الحسن وتتبرك به .

وما كان الحبيبى واهما فى ذلك ، وما كان ما يراه سرابا لا حقيقة له ، ولا وهما تجسد ، أو خيالا تبلور ، كلا ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ
أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا
أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ .

إن الملائـكة تتنزل على كل إنسان فى هـذه الحياة الدنيا بشرطين :

١ — الإيمـان .

٢ — الاستقامة .

ويقول الإمام الغزالى عن خبرة وتجربة عما يشاهده المريد الصادق فى أول طريقه إلى الله :

« ومن أول الطريق تبتدىء المـكاشفات والمشاهدات ، حتى أنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائـكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد » .

---

(١) درة الاسرار ص٢٨.

ثم يترقى الحال إلى. . . .(١) .

وانتهت المدة التى قدر الله أن يقضيها الشيخ بشاذلة ، وما كانت هذه المدة إلا فترة استعداد وتدريب وصقل روحى ، فلما تم ذلك كان لا مناص من الانتقال من الاستعداد إلى العمل .

وأمر الشيخ بأن ينبسط فى الأفق بعد أن ارتفع إلى السماء .

وإن حياة الأولياء الكمل لتسير على هذا النسق : ارتفاع إلى الله أولا ، هجرة إلى الله .

« وقال إنى مهاجر إلى ربى » ، ذهاب إليه سبحانه :

﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى ﴾ .

فرار إليه تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ ﴾ .

إنها فرار إلى الله بالتعبد والنسك ، بالصلاة والصيام ، بالقراءة والتسبيح حتى يخلو القلب عما سوى الله ، ويمتلىء بالله .

إنها فترة الغار والتحنث .

حتى إذا امتلأ القلب بالله ، وتطهرت النفس من الرجس أجمع ، ورمت الشيطان بالجمرات ، فأصبحت خيراً بحتا ، ونوراً يستضاء به : كانت المرحلة الثانية : مرحلة الرجوع إلى عباد الله للهداية والإرشاد ، فيؤمر الولى أن يترك الخلوه والعزله ، وينزل إلى الميدان مؤيداً من الله ، يدعو إليه على بصيرة ، ويرشد مأذوناً مأموراً .

ويحكى أبو الحسن كيفية نزوله من جبل زغوان ومغادرة العزلة فيقول :

قيل لى :

« يا على : اهبط إلى الناس ينتفعوا بك .

---

(١) المنقذ من الضلال ص ١٢٩ الطبعة الخامسة : دار الكتب الحديثة .

فقلت :

يارب أقلنى من الناس فلا طاقة لى بمخالطتهم .

فقيل لى :

إنزل فقد أصحبناك السلامة ، ودفعنا عنك الملامة .

فقلت :

تكلنى إلى الناس آكل من دريهماتهم .

فقيل لى :

أنفق ياعلى ، وأنا الملى ، إن شئت من الجيب وإن شئت من الغيب .

ونزل الشاذلى رضى الله عنه من على الجبل ليغادر شاذلة ، ويستقبل مرحلة جديدة ، فقد انتهت المرحلة الأولى التى رسمها له شيخه .

وقبل أن نغادر معه شاذلة إلى رحلته الجديدة نذكر ما حكاه رضى الله عنه فيما يتعلق بنسبته إلى شاذلة ، قال :

قلت يارب لم سميتنى بالشاذلى ، ولست بشاذلى .

فقيل لى :

يا على ، ما سميتك بالشاذلى وإنما أنت الشاذلى . بتشديد الذال المعجمة ، يعنى : المفرد لخدمتى ومحبتى .

* * *

سافر الشيخ من شاذلة إلى تونس موطناً النفس على تحمل الابتلاء الذى سيصادفه فى تونس ، والذى أخبره به شيخه بقوله :

« ويؤلى عليك بها من قبل السلطنة » .

وما كان الشيخ يجهل مدينة تونس ، فقد ذهب إليها من قبل ، ومكث فيها ، وهاله ما كان بها من فقر ومسغبة ، وحاول ما استطاع أن يخفف من

لوعات الجوع لدى الجياع ، وتقول الروايات إنه قابل بها الخضر عليه السلام ، وأن الخضر أنقذه فيها من مأزق كان فيه بسبب أريحيته وكرمه .

لقد ذهب إلى تونس من قبل غير موجه ، ذهب كما يذهب الناس ، ولكنه الآن ذاهب بالأمر ، ثم هو ذاهب الآن للدعوة ، وقد أذن بها ، فقد سمع النداء :

« يا على اهبط إلى الناس ينتفعوا بك » .

ومن المعلوم — فى الأعراف الدينية — أن الدعاة على قسمين :

١ — دعاة إلى الله قد أذن الله لهم فى نطاق الأذن العام ، أو الواجب العام فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهؤلاء يتفاوت تأثيرهم بتفاوتهم فى صفاء النفس ، وفى طلاقة اللسان ، وفى العلم بالكتاب الكريم والسنة الشريفة ، وبعضهم لا تأثير له قط : لأنه لم تصف نفسه ، أو لأن به لكنة ، أو لجهله الكتاب والسنة ، أو لغير ذلك من الأسباب .

٢ — والقسم الثانى من الدعاة هم الذين يدعون على بصيرة ، وهم الذين قد أذنوا بإذن خاص ، وأمروا بأمر خاص : إنهم هؤلاء الذين سمعوا النداء ، وهم لم يسمعوا النداء مصادفة واتفاقاً ، كلا ، إنهم جاهدوا أنفسهم حتى أطاعت ، وغذوا قلوبهم بالطاعات حتى استنارت ، وأصبح سرهم مع الله فأضحوا من أوليائه .

وهم ينتظرون الإذن فى كل شىء من الأمور ، حتى المباح منها فضلا عن الإذن الخاص بالدعوة :

يقول أبو الحسن مفسراً معنى الإذن فى المباح ومعنى الإذن فى حق الولى : نور ينبسط على القلب يخلقه الله فيه وعليه فيمتد ذلك النور على الشىء الذى يريد فيدركه نور مع نور ، أو ظلمة تحت نور .

فذلك النور ينبئك أن تأخذ إن شئت ، أو تترك ، أو تقبل أو تدبر ، أو تعطى أو تمنع ، أو تقوم أو تجلس ، أو تسافر أو تقيم .

هذا باب المباح المأذون فيه بالتخيير .

فإذا قارنه القول تأكد الفعل المباح بمراد الله تعالى .

فإن قارنته نية صحيحة لفعل ، برز عن حكم المباح وعاد مندوباً .

وإن ظهرت الظلمة تحت النور الممتد من القلب ، فلا يخلو أن يلوح عليها لائح القبض بانقباض القلب : فأحذر ذلك وتجنبه ، فإنه المحذور أو يكاد :

ولا تقطع ذلك إلا ببينة من كتاب الله عز وجل أو سنة أو إجماع . .

فإن تلك الظلمة شبه غيم لا ينصدع معه القلب ،ولا يتفرغ به الذهن فتباعد عنه فإنه يكاد يكون مكروها .

ولا تحكم بعقلك ورأيك فقد ضل من هنا خلق كثير » اهـ .

وأصحاب هذا النور ، يدعون إلى الله بكيانهم كله .

إن صمتهم دعوة إلى الله ، وإن سيرهم دعوة إلى الله ، وإن جلوسهم دعوة إلى الله ، وإن عملهم دعوة إلى الله ، وإن حديثهم دعوة إلى الله :

ويستجيب لهم الناس سراعا بمقدار ما فى قلوبهم من خير ، وما فى أفئدتهم من إيمان ، وينأى عنهم من ليس له فى الخير نصيب ، ويحاربهم من حقت عليه كلمة العذاب .

لقد أمر أبو الحسن بالدعوة . وبمجرد أن دخل تونس التف حوله مباشرة جماعة من الفضلاء ، منهم الشيخ أبو الحسن على ابن مخلوف الصقلى،وأبوعبد الله الصابونى ، وأبو محمد عبد العزيز الزيتونى ، وأبو عبد الله البجائى الخياط ، وأبو عبد الله الجارحى .

كلهم أصحاب كرامات ، على حد تعبير صاحب درة الأسرار . وكان من بينهم الشيخ الصالح أبو العزائم ماضى تلميذ الشيخ وخادمه .

ثم كثر المريدون ، وأخذوا يزدادون يوماً عن يوم « إلى أن اجتمع عليه خلق كثير » ثم . .

ثم بدأت الغيرة تدب فى قلب ابن البراء ، قاضى القضاة ، وكلما ازداد إقبال الناس على أبى الحسن كلما اشتدت الغيرة فى قلب هذا الرجل إلى أن أصبحت تنهشه نهشاً ، فضعف أمامها ، وأعلن الحرب على أبى الحسن .

كان ابن البراء فقيها وكان إذ ذاك « قاضى الجماعة » كان يعد نفسه الزعيم غير منازع ، وكان منصبه الرسمى يعلن أنه الزعيم الدينى الأكبر ، وكان ينعم بهذه الزعامة التى أتته عن طريق الدين ، والتى كانت فى حقيقة الأمر زعامة أشبه بالدنيوية منها بالدينية . وكان ابن البراء يتخيل أو يتوهم أن له شعبية مع ماله من منصب رسمى ، فلما رأى التفاف الناس بأبى الحسن صور له خياله أن الشاذلى انتزع منه الزعامة الشعبية ، ولما كان الشاذلى من العلماء فى الفقه والتفسير والحديث ، ولما كان يفتى ويشرح ويفسر فقد خيل إلى ابن البراء أن ليس هناك ما يمنع من ناحية الشخصية أو من ناحية العلم من أن يتولى أبو الحسن منصب « قاضى الجماعة » . وما المانع ؟ وما الذى يحول دون ذلك ؟

وأخذ الوسواس مأخذه ، وسولت النفس الأمارة بالسوء ما سولت ، فأعلن ابن البراء الحرب على أبى الحسن .

ولم تتخذ الحرب سبيلا شريفاً فإن ابن البراء حينما رأى أنه لا يمكنه القضاء على أبى الحسن علميا أخذ يدس له عند السلطان ! لقد صور للسلطان أنه فى طريقه إلى أن يصبح زعيما شعبيا خطيراً ، والأمر ليس إلا أمر زمن فكلما مر الزمن ازداد تمكناً وشعبية !

« إنه يدعى الشرف ، وقد اجتمع عليه خلق كثير ، ويدعى أنه الفاطمى ، ويشوش عليك بلادك » .

ومعنى هذا أن الملك فى خطر .

وهذه الفكرة : « الملك فى خطر » تفعل فعل السحر فى نفوس الملوك ، إنها تقيمهم وتقعدهم وتجعلهم لا يتورعون عن أى عمل .

بيد أن أبا زكرياء ، وهو السلطان إذ ذاك ، لم يرد أن يتعجل ، وأراد أن يرى قبل أن يحكم وينفذ .

يقول صاحب درة الأسرار :

وكان إذ ذاك السلطان أبو زكرياء رحمه الله ،

فجمع ابن البراء جماعة من الفقهاء فى القصبة ، وجلس السلطان خلف حجاب ، وحضر الشيخ رضى الله عنه .

وسألوه عن نسبه مرارا ، والشيخ يجيبهم عليه ، والسلطان يسمع ، وتحدثوا معه فى كل العلوم ، فأفاض عليهم بعلوم أسكتهم بها ، وما استطاعوا أن يجاوبوه عليها من العلوم الموهوبة ، والشيخ يتكلم معهم فى العلوم المكتسبة ، ويشاركهم فيها .

لقد سمع السلطان الشيخ يتكلم ، لقد سمع هذا النوع من الحديث الذى يقول فيه ـ فيما بعد ـ إمام المسلمين فى مصر العز بن عبد السلام ناصحا المستمعين والمريدين :

« اسمعوا هذا الكلام الغريب ، القريب العهد من الله » .

لقد سمع السلطان هذا الكلام القريب العهد من الله : فأعجبه وراعه ، ورأى السلطان شيخاً مهيباً ، وإن كان مازال فى سن الفتوة ، ورأى السلطان

نضجا فى العلم ، ونضجا فى التفكير ، وروحانية فى الحديث ، وشفافية فى البصيرة . . فقال لابن البراء :

هذا الرجل من أكابر الأولياء ، ومالك به طاقة .

ولوح ابن البراء مرة أخرى بالملك ، وأنه فى خطر ، وأنه يعاديه لحبه للملك ولإخلاصه له ولحرصه على بقاء العرش ، وقال للسلطان :

والله لئن خرج الشيخ فى هذه الساعة ليدخلن عليك أهل تونس ، ويخرجونك من بين أظهرهم : فإنهم مجتمعون على بابك .

وأثر تلويح ابن البراء ، أوتصريحه ، تأثيره فى نفس السلطان ، فأذن للفقهاء بالخروج ، وأمر الشيخ بالجلوس والبقاء .

وجلس الشيخ هادئاً ، ساكن النفس ، مطمئن القلب ، وطلب ماء وسجادة فتوضأ وأخذ فى الصلاة . وهم أن يدعو على السلطان فنودى فى سره :

إن الله لا يرضى لك أن تدعو بالجزع من مخلوق .

وبدل الدعاء ألهمه الله أن يقول :

« يامن وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ، أسألك الايمان بحفظك إيماناً يسكن به قلبى من هم الرزق ، وخوف الخلق .

واقرب منى بقدرتك قرباً تمحق به عنى كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك فلم يحتج لجبريل رسولك ، ولا لسؤاله منك وحجبته بذلك من نار عدوك ، وكيف لا يحجب عن مضرة الأعداء من غيبته عن منفعة الأحباء ، كلا ، إنى أسألك أن تغيبنى بقربك منى حتى لا أرى ولا أحس بقرب شىء ولا ببعده عنى ، إنك على كل شىء قدير . . » اهـ .

هذه الكلمات الإلهامية دخلت ، فيما بعد ، فى بعض أحزابه .

ها هو ذا الشيخ يصلى ويدعو ، ويلجأ إلى مولاه طالباً الرضا والقرب وأن يغيبه بالقرب فى القرب . . وبينما هو مستغرق فى دعائه وتبتله إذا بالمقادير ترتب الأمر على وضع غير متوقع .

هل فى العالم مصادفات ؟

أيحدث فى الكون أمر من الأمور اتفاقاً واعتباطاً ؟ .

لقد كان عند السلطان فى ذاك الحين جارية عزيزة عليه ، أحبها فملكت عليه جميع أقطاره ، وفى لحظات مرت سراعاً أصابها وجع ، فتألمت ، واستغاثت ولم تمهلها الأقدار ، فماتت من حينها . وما من شك فى أن أجلها كان قد انتهى ، وأن هذه اللحظة كانت مقدرة فى علم الله من الأزل ؛ نعم لاريب فى ذلك ، ولكنه لا ريب أيضاً فى أن المقادير رتبت هذا ساعة أن منع الشيخ من الخروج ، فجاء موتها وكأنه عقاب للسلطان على منعه الشيخ من الخروج .

أهى كرامة ؟ وماذا تكون الكرامة غير ترتيب مقادير ، أو تصرف مقادير ، أو تدبير مقادير ؟

« إنا كل شىء خلقناه بقدر » . أترى للمصادفة دخل مع هذه الآية العامة .

لقد جاء أجل الجارية ، فماتت من حينها ، فأصيب من أجلها ، فغسلت فى بيت سكناه ، واشتغلوا بغسلها وتكفينها ، وأخرجوها للصلاة . .

وأغفلوا مجمراً فى البيت (١) .

لقد كان تدبيراً منذ الأزل أيضاً ، حدث فى اللحظة التى قدرتها العناية الإلهية ، وكانت هذه اللحظة هى التى يجلس فيها الشيخ مصلياً متبتلا وكأنه ــ بحسب الظاهر ــ فى سجن وإن كان فى قصر الملك .

---

(١) درة الأسرار ص ٣٠ .

يقول صاحب درة الأسرار :

« واغفلوا مجمراً فى البيت : فالتهبت النار ، فلم يشعروا حتى احترق كل ما فى البيت من الفرش والثياب وغير ذلك من الذخائر .

فعلم السلطان أنه أصيب من قبل هذا الولى » (١) اهـ .

وكان للسلطان أخ عاقل صالح متدين يحب أولياء الله ويسعى إليهم ، وكان يحب الشيخ ، ويتبرك به ، ويزوره مسترشداً ، ومستنصحا ، وكان فى هذا اليوم فى خارج المدينة : يتفقد بساتينه ، ويتنزه فيها ، فبلغه خبر ما جرى فى قصر السلطان من مناقشات ومن حوادث ، فحضر مسرعا والتقى بأخيه وقال له :

« ما هذا الأمر الذى أوقعك فيه ابن البراء ، أوقعك والله فى الهلاك أنت وكل من معك » .

ثم دخل على الشيخ وأخذ يعتذر إليه ويترضاه : فأعلن الشيخ موقفه من مثل هذه الأمور ، وبين لأخى السلطان أن الكون وما فيه ومن فيه فى قبضة الله الكبير المتعال وقال له :

« والله ما يملك أخوك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، فكيف يملكها للغير ؟ كان ذلك فى الكتاب مسطورا » .

وخرج الشيخ إلى داره فى اليوم نفسه ، واستمر كعادته فى الإرشاد والنصح والتدريس .

ولكن ابن البراء لم يكف عن الإيذاء فكان الشيخ يقابله دائما بما جبله الله عليه من التسامح ، وكان يلقى عليه السلام إذا صادفه فى مكان ما ، فلا يرد ابن البراء عليه السلام .

---

(١) درة الاسرار ص ٣٠ .

وعزم الشيخ على الحج فأمر أصحابه بالنقلة إلى المشرق قبل موعد الحج بزمن طويل وذلك ليمكث بمصر فترة من الزمن قبل الذهاب إلى الديار المقدسة .

وبدأ الركب يتحرك ، ونهضت تونس مودعة ، وكانت حركة ، وكان ضجيجا ، وعلمت تونس كلها أن أبا الحسن راحل ، وعلم السلطان فيمن علم ، وظن أن أبا الحسن يريد الخروج نهائيا من تونس فوقع الرعب فى قلبه وأسرع بتوجيه وفد يرجوه فى العودة ، فقال الشيخ :

« ماخرجت إلا بنية الحج إن شاء الله تعالى ، ولكن إذا قضى الله حاجتى أعود إن شاء الله » .

يقول صاحب درة الأسرار :

« فلما توجهنا إلى المشرق ، ودخلنا الإسكندرية ، عمل ابن البراء عقداً بالشهادة أن هذا الواصل إليكم شوش علينا بلادنا وكذلك يفعل فى بلادكم » .

فأمر السلطان أن يعتقل بالإسكندرية .

فأقمنا بها أياما .

وكان السلطان رمى رمية على أشياخ فى البلاد يقال لهم القبائل . فلما سمعوا بالشيخ أتوا إليه يطلبونه فى الدعاء فقال لهم :

غداً إن شاء الله نسافر إل القاهرة ونتحدث مع السلطان فيكم .

قال : فسافرنا ، وخرجنا من باب السدرة والجنادة فيه والوالى ، ولا يدخل أحد ولا يخرج حتى يفتش ، فما كلمنا أحد ولا علم بنا .

فلما وصلنا القاهرة أتينا القلعة فاستأذن على السلطان . قال كيف وقد أمرنا أن يعتقل بالإسكندرية .

فأدخل على السلطان والقضاة والأمراء ، فجلس معهم ونحن ننظر إليه قال له الملك :

ما تقول أيها الشيخ :

فقال له :

جئت أشفع إليك فى القبائل .

فقال له :

اشفع فى نفسك ، هذا عقد بالشهادة فيك ، وجهه ابن البراء من تونس بعلامته فيه ، ثم ناوله إياه .

فقال له الشيخ :

أنا وأنت والقبائل فى قبضة الله .

وقام الشيخ .

فلما مشى قدر العشرين خطوة حركوا السلطان فلم يتحرك ولم ينطق ، فبادروا إلى الشيخ وجعلوا يقبلون يديه ويرغبونه فى الرجوع إليه ، قال : فرجع إليه ، وحركه بيده . فتحرك ، ونزل عن سريره ، وجعل يستحله ويرغب منه فى الدعاء .

ثم كتب إلى الوالى بالإسكندرية أن يرفع الطاب عن القبائل ويرد جميع ما أخذه منهم . وأقمنا عنده فى القلعة أياما .

واهتزت بنا الديار المصرية ، إلى أن طلعنا إلى الحج .

ورجعنا إلى مدينة تونس » (١) .

رجع الشيخ إلى مدينة تونس واستمر بهـا هاديا ، مرشداً ، داعيا إلى الله

(١) درة الاسرار ص : ٣١ — ٣٢ .

ورسوله ، ولكن ثورة ابن البراء لم تهدأ ، بل على العكس ، زادت بنسبة زيادة أنوار الشيخ وزيادة أتباعه .

وفى هذه الأثناء قدم إلى تونس الشيخ الولى أبو العباس المرسى فلما اجتمع الشيخ به ورآه ، قال :

« ما ردنى لتونس إلا هذا الشاب » هذا الشاب الذى لازمه فلم يفارقه منذ لقائه به إلى أن انتهت بالشيخ الحياة فكان الخليفة بعده ، واستمر الشيخ بتونس لا يبالى بمكائد ابن البراء — وكان يعلم أن مقامه بتونس مؤقت بناء على ما ذكره له شيخه كما سبق .

ولكنه كان مقيما ينتظر الإذن بالسفر ، وما كان له ، وقد حضر إلى تونس من الحج ، واستقر به المقام بها ، أن يسافر إلا بإذن .

وأتى له الإذن : يقول رضى الله عنه :

رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى :

« يا على انتقل إلى الديار المصرية تربى فيها أربعين صديقا » .

ورغم أنه كان فى زمن الصيف وشدة الحر فإنه أمر أصحابه بالاستعداد للسفر ، فلما تم ذلك فى سرعة سريعة : سافر الشيخ إلى الديار المصرية .

* * *

وصل الشيخ إلى الإسكندرية ، يقول صاحب درة الأسرار :

« وكان مسكنه رضى الله عنه بالإسكندرية ببرج من أبراج السور ، حبسه السلطان عليه وعلى ذريته ، دخلته عام خمسة عشر وسبعمائة ، فى أسفله ماجل كبير ومرابط للبهائم . وفى الوسط منه مساكن للفقراء وجامع كبير وفى أعلاه أعلية لسكناه ولعياله . وتزوج هنالك وولد له أولاد .

منهم الشيخ شهاب الدين أحمد ، وأبو الحسن على ، وأبو عبد الله محمد شرف الدين أدركته بدمنهور قاطنا بها . ومن البنات زينب ولها أولاد رأيت بعضهم ، وعريفة الخير أدركتها بالاسكندرية وما عرفت غير هؤلاء » اه .

أما نوع معيشته فى الديار المصرية فإنه يصفها فى إحدى رسائله إلى بعض أصدقائه بتونس ، وهى رسالة طويلة يقول فيها رضوان الله عليه :

« الكتاب إليكم من الثغر(١) ، حرسه الله ، ونحن فى سوابغ نعم الله نتقلب ، وهو بفضله وبوده إلينا يتحبب ، قد ألقى علينا وعلى أحبابنا كنفه ، وجعلنا عنده :

فما ألطفه ، ندعوه فيلبينا ، وبالعطاء قبل السؤال يناديناً ، فلله الحمد كثيراً كما ينبغى لوجهه الكريم ، وجلاله العظيم .

وأما الأهل والأولاد والأصهار والأحباب ففى سوابغ نعم الله يتقلبون ، وبإحسانه ظاهراً وباطناً مغمورون . نسأل الله المزيد التام العام لكم ولهم أجمعين ، وأن ينوب عنا فى شكره ، إنه أكرم الأكرمين (٢) » اه .

ولقد كانت إقامته بمصر مصداقا لما نودى به حينما دخلها ، يقول رضى الله عنه :

« لما قدمت الديار المصرية قيل لى :

يا على ، ذهبت أيام المحن ، وأقبلت أيام المنن ، عشر بعشر ، اقتداء بجدك، صلى الله عليه وسلم » اه .

---

(١) يعنى : الاسكندرية .

(٢) درة الأسرار .

ولقد كانت مصر حينئذ تعتز بمجموعة من أكرم العلماء وأفضلهم علماً وخلقاً وصلاحاً ، مجموعة وهبت نفسها لله وأسلمت قيادها له ، فأحاطها الله بعنايته ، وتكفلها برعايته ، ووضع حبها فى قلوب الناس ، ووضع مهابتها فى أفئدتهم ، فكانت محبوبة مهيبة .

ولقد استقبلت هذه المجموعة أبا الحسن أجمل استقبال وأحسنه ، ورافقته متتلمذة ومتآخية : يقول صاحب المفاخر العلية نقلا عن ابن مغيزل :

« إن الشيخ رضى الله عنه ، لما قدم من المغرب الأقصى إلى مصر صار يدعو الخلق إلى الله تعالى ، فتصاغر وخضع لدعوته أهل المشرق والمغرب قاطبة وكان يحضر مجلسه أكابر العلماء من أهل عصره مثل سيدى الشيخ عز الدين ابن عبدالسلام ، والشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ، والشيخ عبدالعظيم المنذرى ، وابن الصلاح ، وابن الحاجب ، والشيخ جمال الدين عصفور ، والشيخ نبيه الدين ابن عوف ، وهؤلاء سلاطين علماء الدين شرقاً وغرباً فى عصرهم ، وأيضاً الشيخ محيى الدين بن سراقة ، والعلم ياسين تلميذ ابن العربى رضى الله عنهم ، فكانوا يحضرون ميعاده بالمدرسة الكاملية بالقاهرة لازمين الأدب مصيخين له متلمذين بين يديه ، وأن الشيخ الإمام قاضى القضاء بدر الدين بن جماعة الولى ابن الولى ابن الولى رحمهم الله كان يرى أنه فى بركة الشيخ أبى الحسن فى مصر وكان يفتخر بصحبته ، وبحضور جنازته والصلاة عليه بحميثرة [(١)] » .

ويأتى الشيخ من الحج فيقابله أمير العلماء العز بن عبد السلام فى موضع يقال له البركة يبعد عن القاهرة بستة أميال .

لقد كانت إقامته بمصر فترة استقرار مادى ومعنوى ، وكانت فترة خصبة من حيث الدعوة ، ومن حيث تربية الرجال .

* * *

(١) المفاخر العلية ص ١٥ .

استمر الشيخ يدعو إلى الله بمصر إلى أن كان شهر شوال سنة ٦٥٦ هـ .
وفى هذا الشهر أخذ الشيخ فى السفر إلى الأراضى المقدسة للحج فلما كان فى حميثرة بصحراء عيذاب ، وهى بين قنا والقصير : جمع الشيخ أصحابه فى إحدى الأمسيات ، وأوصاهم بأشياء ، وأوصاهم بحزب البحر ، وقال لهم :

« حفظوه لأولادكم فإن فيه اسم الله الأعظم » .

ثم خلا بأبى العباس المرسى ، رضى الله عنهما ، وحده ، وأوصاه بأشياء .

« واختصه بما خصه الله به من البركات » .

ثم وجه الحديث لأصحابه قائلا :

« إذا أنا مت فعليكم بأبى العباس المرسى : فإنه الخليفة من بعدى ، وسيكون له بينكم مقام عظيم ، وهو باب من أبواب الله سبحانه وتعالى » .

وبات تلك الليلة متوجهاً إلى الله تعالى ذاكراً يسمعه أصحابه وهو يقول :

« إلهى ، إلهى » .

فلما كان السحر سكن ، فظننا أنه نام ، فحركناه فوجدناه ميتاً[(١)] » .

وجاء الشيخ أبو العباس فغسله ، وصلى الجميع عليه ، ودفن حيث توفاه الله.

وقد كان للشيخ أولاد ذكور فلم يفكر فى أن يستخلف أحدهم وإنما استخلف من رآه أحق بالخلافة ، ونرجو أن يعتبر به رجال الطرق فى العصر الراهن فلا يجعلوا الطريقة مورد رزق تورث كما يورث العقار . ورحم الله أبا الحسن وطيب الله ثراه ونفعنا ببركاته إنه نعم المجيب .

---

(١) درة الأسرار .

الفصل الثاني

شخصية الشاذلى

هو أبو الحسن على الشاذلى الحسنى بن عبد الله ، بن عبد الجبار ، بن تميم ، ابن هرمز ، بن حاتم ، بن قصى ، بن يوسف ، بن يوشع ، بن ورد ، بن بطال على ، بن أحمد ، بن محمد ، بن عيسى بن محمد ابن سيد شباب أهل الجنة ، وسبط خير البرية أبى محمد الحسن ، ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه وابن فاطمة الزهراء ، بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم (١) .

يقول أبو العزايم ماضى يصف الشيخ ، رضى الله عنه :

« كانت صفته رضى الله عنه ، آدم اللون ، نحيف الجسم ، طويل القامة ، خفيف العارضين ، طويل أصابع اليدين كأنه حجازى .

وكان فصيح اللسان ، عذب الكلام » .

وكان رضى الله عنه ، يأخذ زينته عند كل مسجد . وإذا كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول :

« جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » .

أى أن الأرض — أينما كان الإنسان عليها — كلها مسجد ، فإن أبا الحسن كان يتحلى دائما بالثياب الحسنة !

دخل عليه مرة فقير وعليه لباس من شعر . فلما فرغ الشيخ من كلامه ، دنا من الشيخ ، وأمسك بملبسه وقال :

يا سيدى ، ما عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك .

فأمسك الشيخ ملبسه فوجد فيه خشونة فقال :

---

(١) عن لطائف المنن : لابن عطاء الله السكندرى .

ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك ، لباسى يقول : أنا غنى عنكم فلا تعطونى ، ولباسك يقول : أنا فقير إليكم فأعطونى (١) .

ويعقب ابن عطاء الله السكندرى على هذه القصة فيقول :

وهكذا طريق الشيخ أبى العباس ، وشيخه أبى الحسن ، رضى الله عنهما .

وطريقة أصحابهما : الإعراض عن لبس زى ينادى على سر اللابس بالإفشاء ويفصح عن طريقه بالإبداء ، ومن لبس الزى فقد ادعى .

ثم يبين ابن عطاء الله : أنه لاينتقد زى الفقراء ، وأنه لا حرج على اللابس هذا الزى ، ولا على غير اللابس ، ما داما من المحسنين :

« ما على المحسنين من سبيل » .

وفى يوم من الأيام دخل أبو العباس المرسى على الشيخ أبى الحسن ، وفى نفسه أن يأكل الخشن ، وأن يلبس الخشن ، فقال له الشيخ :

يا أبا العباس : اعرف الله وكن كيف شئت .

ومن عرف الله ، فلا عليه أيضا إن أكل هنيئا وشرب مريئا .

وما كان أبو الحسن يتعمد قط أن يأكل الغليظ من الطعام ، أو يقتصر على غير الزلال البارد من الشراب . إنه يقول :

« يا بنى برد الماء ، فإنك إذا شربت الماء السخن فقلت الحمد لله ، تقولها بكزازة : وإذا شربت الماء البارد ، فقلت الحمد لله استجاب كل عضو منك بالحمد لله » .

---

(١) لطائف المنن ص ١٢٩ .

والأصل فى هذا قول الله سبحانه حكاية عن موسى عليه السلام :

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِ ، فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٍ(١) ﴾ .

ألا ترى كيف تولى إلى الظل قصداً لشكر الله تعالى على مانا له من النعمة ؟

وعن ذلك ، وبياناً لنهج الطريقة الشاذلية ، الذى رسمه أبو الحسن ، يقول ابن عطاء الله .

« وأما لبس اللباس اللين ، وأكل الطعام الشهى ، وشرب الماء البارد : فليس القصد إليه بالذى يوجب العتب من الله ، إذا كان معه الشكر لله » اهـ .

وهذا كله طبعاً يتمشى مع قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

ويقول الأستاذ على سالم عمار :

« كان الشاذلى يلبس الفاخر من الثياب ، ويركب الفاره من الدواب ، ويتخذ الخيل الجياد » اهـ .

ومهما يكن من شىء ، فإن أبا الحسن كان ينصح دائماً بالاعتدال ، ويعلن للمريدين قائلا : « لا تسرف بترك الدنيا ، فتغشاك ظلمتها ، أو تنحل أعضاؤك لها ، فترجع لمعانقتها ، بعد الخروج منها ، بالهمة أو بالفكرة أو بالإرادة أو بالحركة » اهـ .

والقاعدة العامة على كل حال : « اعرف الله وكن كيف شئت » وذلك لأن من عرف الله تعلق قلبه به وامتلأ بحبه فلا يتأتى منه إلا الفضيلة .

---

(١) لطائف المنن .

أما فى أيام المواسم الروحية الكبرى ، وفى أيام الحفلات الدينية العظمى ، فقد كان يحاول ما أمكن أن يلفت أنظار الناس إليها حتى تستمر هذه المواسم حية فى نفوسهم يحيونها بالذكر والعبادة ، ويحتفلون بها متصدقين بجميع أنواع الصدقات :

فكان إذا ركب فى هذه المواسم تمشى أكابر الفقراء وأكابر الدنيا حوله ، وتنشر الأعلام على رأسه وتضرب الكاسات بين يديه (١) .

وما كان الشاذلى من الذين يسعون وراء الشهرة الزائفة أو غير الزائفة ولكن الناس لابد لهم دائماً من هزة قوية تلفت أنظارهم وأرواحهم إلى المواسم الدينية وتذكرهم بها .

من كل ذلك نرى أبا الحسن فى الجانب المادى البشرى غير متزمت وهو الذى يقول : « ليس هذا الطريق بالرهبانية ، ولا بأكل الشعير والنخالة ، ولا ببقيقة الصناعة وإنما هو بالصبر على الأوامر ، واليقين فى الهداية كما قال تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ .

لقد كان أبو الحسن الشاذلى جميل المظهر ، عذب الحديث ، فصيح اللسان ، غير متزمت فى المأكل والمشرب ، يحب الخيل ، ويقتنيها ، ويركبها فارساً ، ويركبها فى المواسم الدينية .

هذا هو أبو الحسن فى صورته البشرية الشكلية ، ولو كان أبو الحسن هو هذا فحسب لما ذكرته الدنيا ، ولما خلد على التاريخ .

ونتحدث الآن عن أبى الحسن العالم وعن أبى الحسن الصوفى .

يقول سيدى عبد الوهاب الشعرانى :

---

(١) الكواكب الدرية .

« بلغنا أن الشيخ الكامل أبا الحسن الشاذلى لما فنى اختياره مع الله مكث ستة أشهر لا يتحرى أن يسأل الله شيئاً فى حصول شىء .

ثم نودى فى سره : اسألنا عبودية لا ترجيح فيها للعطاء عن المنع .

قال : فسألت الله ورجوته امتثالا لا تحجيراً عليه ، فإنه يخلق ما يشاء ويختار ، وليس معه اختيار » اهـ .

لقد فنى اختيار أبى الحسن مع الله ، وهذه المرتبة لا يتأتى للإنسان أن ينالها فى ابتداء حياته السائرة إلى الله ، لا بد أن يسبقها جهاد شاق . كيف وصل أبو الحسن إلى أن يسترسل مع الله على ما يريد فتفنى إرادته فى إرادته واختياره ، وأن يكون بالله إيرادا وإصدارا ؟

لقد كان الجانب العلمى من العناصر الأولى التى حددت شخصية الشاذلى : لقد بدأ الدراسة والتحصيل صغيراً ، فتثقف كأحسن ما يكون المثقف ، لقد تثقف على الطريق العادى لحفظ القرآن ، ودرس السنة ، ودرس العلوم الدينية : وسائل وغايات « ولم يدخل فى علوم القوم حتى كان يعد للمناظرة فى العلوم الظاهرة » .

وكان « ذا علوم جمة » .

وهو صاحب « العلوم الغزيرة » (١)

ولقد تدرج فى هذه العلوم سلما فسلما ، ثم أخذ يختار الكتب التى يدرسها ويشرحها وينصح بقراءتها ، ويحبب فى أصحابها ؛ وكان منها :

١ — كتاب ختم الأولياء للحكيم الترمزى ، وهو كتاب أقام الجو الثقافى

---

(١) لطائف المنن ص ٤٤ .

وأقعده حين صدوره ، وكان سببا فى صعوبات كثيرة اعترضت المؤلف بسبب الآراء التى احتوى عليها .

وهو كتاب أثار اهتمام الامام الأكبر محيي الدين بن عربى إثارة كبرى ، فأفرد له كتابا خاصا ، ثم أفرد له صفحات وصفحات من كتاب الفتوحات ، وحاول أن يجيب على ما ورد فيه من أسئلة ، ووضع نفسه بهذا موضع الاختبار وهو من هو فلسفة وحكمة وعلما وتصوفا .

ووضع نفسه أيضا بهذا موضع التحدى وكأنه يقول : هأنذا أجيب على الأسئلة متحديا فى ما يتعلق بصحة الإجابة .

لقد كان الشاذلى يلقى دروسا فى شرح هذا الكتاب ، ولقد بلغ من روعة هذه الدروس أن كان أبو العباس المرسى يحرص كل الحرص على حضورها لما كان لها فى نظره من الأهمية ؛ وحينما يكون على سفر فى شأن من شئون الدعوة فإنه يلتمس كل وسيلة تمكنه من حضورها .

ولقد كان كتاب ختم الأوليـــاء مفقودا إلى عهد قريب ، ثم عثر الأستاذ عثمان يحيى عليه فطبعه فى بيروت طبعة محققة مع دراسة عن الترمذى .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه عن أبى العباس المرسى : « وكان هو والشيخ أبو الحسن كل منهما يعظم الامام الربانى محمد بن على الترمذى ، وكان لكلامه عندهما الحظوة التامة .

وكانا يقولان أنه أحد الأوتاد الأربعة » اهـ .

وقبل أن نتحدث عن كتاب آخر نذكر هنا ما رواه ابن عطاء الله السكندرى قال :

« أخبرنى بعض أصحابنا قال :

قال الشيخ ، قيل لى :

ما على وجه الأرض مجلس فى الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ولا على وجه الأرض مجلس فى علم الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكى الدين عبد العظيم ، ولا على وجه الأرض مجلس فى علم الحقائق أبهى من مجلسك ».

٢ — وكتاب «المواقف والمخاطبات» من تأليف الشيخ محمد بن عبد الجبار النفرى وهو كتاب ليس بالسهل ، لأنه يعبر عن حالات روحية عالية لا يتأتى لغير أصحاب الأذواق العالية فهم الكثير منها ، وهو كتاب للخاصة ، وأراد أبو الحسن أن ييسره لكل من عنده استعداد ، وأن يفتح مغاليقه لكل من يستشرف عالم الحكمة .

يقول ابن عطاء الله عن الشيخ أبى الحسن :

« كان يوما فى القاهرة فى دار الزكى السراج ، وكتاب المواقف للنفرى يقرأ عليه ، فقال .

« أين أبو العباس ؟ ».

فلما حضر ، قال الشيخ:

تكلم يا بنى ، تكلم بارك الله فيك ، تكلم ولن تسكت بعدها أبدا .

قال أبو العباس :

فأعطيت لسان الشيخ من ذلك الوقت » اه

ولقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة .

٣ — كتاب قوت القلوب لأبى طالب المكى .

٤ — كتاب الإحياء للامام الغزالى .

وهذان الكتابان من واد واحد ، ولقد تأثر الإمام الغزالى فى كتابه الإحياء بأبى طالب المكى ، وذكر أنه قرأ كتاب قوت القلوب كوسيلة من الوسائل التى تعرفه بالتصوف، وذلك قبل أن يأخذ فى الجانب العملى والرياضة الصوفية .

لقد نصح الإمام الشاذلى بقراءتهما : فقال عن قوت القلوب: عليكم بالقوت فإنه قوت .

وقال عن الكتابين:

كتاب الإحياء يورثك العلم ، وكتاب القوت يورثك النور .

ولقد كان الشيخ أبو الحسن يقول :

إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبى حامد .

٥ — ومن قبيل الكتابين السابقين كان الإمام الشاذلى يقرأ أيضا الرسالة القشيرية ويشرحها ، وقد سبق شيء من الحديث فى ذلك وسيأتى أيضا حديث عنه .

٦ — وكتاب الشفاء للقاضى عياض من الكتب المباركة التى نالت تقديرا كبيراً فى أوساط كثيرة ، وكان يقرؤه أبو الحسن وينصح بقراءته .

٧ — وكتاب أبى الحسن المفضل فى التفسير هو كتاب « المحرر الوجيز » لابن عطية وهو كتاب يشرحه عنوانه ، فهو محرر : كلماته منتقاه متخيرة ، محررة وعباراته دقيقة .

وهو وجيز وإن لم يكن فى إيجاز تفسير الجلالين أو البيضاوى ، وقد بدأ طبعه الآن فى المغرب ، فطبع منه الجزءان : الأول والثانى .

هذه هى الكتب التى ورد ذكرها فيما كتب عن أبى الحسن فى المصادر القديمة ، وهى كتب مختارة فى غاية النفاسة ، تدل على مشرب عال فى التفسير والسيرة النبوية والتصوف .

وليس بغريب بعد ذلك أن ينقل الإمام الشعراني رضي الله عنه في الطبقات عن شيخه علي الخواص أنه قال .

« كانت القاعدة عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، والشيخ أبي العباس ، تاج الدين بن عطاء الله ، والشيخ ياقوت العرش ، في قبول الطلاب : ألا يدخل أحد الطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة ، وآلاتها بحيث يقطع العلماء في مجالس المناظرة بالحجج الواضحة .

فإذا لم يتبحر كذلك لا يأخذون عليه العهد » اهـ .

إن العلم عنصر من عناصر شخصية الإمام الشاذلي وهو عنصر من عناصر طريقته أيضاً وصلى الله وسلم على من أمر أن يقول :

﴿ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾

وسبحان القائل :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾

وتقدس الذي يقول :

﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾

ويصل أبو الحسن إلى الذروة حينما يعتبر الجهل والرضا به من الكبائر بل حينما يعتبره من أكبر الكبائر ويقول :

« لا كبيرة عندنا أكبر من اثنين : حب الدنيا بالإيثار ، والمقام على الجهل بالرضا » .

لأن حب الدنيا أساس كل خطيئة .

والمقام على الجهل أصل كل معصية .

ولا يتأتى أن نجاوز الجانب العلمي دون أن نذكر مثالا نبين به مدى ما

وصل إليه أبو الحسن من عمق عميق ، ومن فهم دقيق فى المسائل العلمية .

ونحن كلما رأينا إشارات من علم أبى الحسن الذى ألبس فيه العلم الرسمى نسيم الأرواح وألبست فيه معارج الأرواح صورة العلم الرسمى . . أقول كلما رأينا ذلك أسفنا كل الأسف على ما حصل من إهمال فى تقييد دروس أبى الحسن ومع ذلك فإن أبا الحسن قد ربى رجالا بدلا أن يخرج كتبا ولقد سئل رضى الله عنـه :

لم لا تضع الكتب فى الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم ؟

فقال رضى الله عنه :

كتبى أصحابى (١) .

ومع إيماننا بأنه ربى رجالا نشروا علمه ، وأذاعوا طريقته ، فقد كنا نتمنى أن لو اهتم أحد مريديه بتقييد نفائسه ودرره .

والمثال الذى نذكره الآن مأخوذ من رسالة طويلة كتبها لأحد أصدقائه بتونس هو سيدى على بن مخلوف .

وهذا المثال عن الروح وقد ورد فى القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ
قُلِ : الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾

هذه الآية الكريمة كانت مثار خلاف شديد بين المفسرين من مختلف النزعات : وذلك أن كثيراً من المفسرين رأوا أن الآية إنما هى نهى عن البحث فى الروح ، بمعنى النفس الإنسانية ، لأنها من أمر الله ، فالله سبحانه ، وهى من أمره ، هو وحده العالم بها .

وعارض هؤلاء كثيرون يرون أن الروح فى الآية الكريمة ، إنما هو القرآن

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى .

الـكريم ، بدليل سياق الآيات السابقة ، واللاحقة ، فإنها كلهـــا فى القرآن الـكريم ، والقرآن يسمى روحاً كما أن جبريل عليه السلام يسمى روحاً .

هل الآية نهى عن البحث فى الروح ، أم أن الروح فى الآية شيء آخر غير النفس الإنسانية ؟

ولم يأخذ أبو الحسن بهذا الرأى أو بذاك ، وإنما أدلى برأى نشهد بأصالته وعمقه ودقته ، يقول رضى الله عنه :

« ومن ظن أن هذا العلم : أعنى علم الروح وغيره ، ممـا ذكر وما لم يذكر لم يحط به الخاصة العليا أهل البدء الأعلى فقد وقع فى عظيمين : جهل أولياء الله إذ وصفهم بالقصور عن ذلك ، وظن بربه أنه منعهم : وكيف يجوز أن يظن على مخصوص ؟

وسرى به التـكذيب إلى القدرة والشرع بقوله عن اليهود أو عن العرب كما تضمن الخلاف :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾

فما الدليل لك منهما على جهل الصديقين وأهل خاصة الله العليا .

والـكشف عن هذا أن السؤال يقع بأربعة أحرف : بهل، وكيف، ولم، ومن

فهل ، يقع بها السؤال عن الشيء أموجود هو أو معدوم .

وكيف ، يقع بها السؤال عن حال الشيء .

ولم ، يقع السؤال بها عن العلة .

وليس فى الآية شيء من هذا . فإنك إن قلت فيها معنى هل ومعنى هل يقتضى هل الروح موجود أو معدوم وقد عرفوا وجوده من قبل : ولولا ذلك

لما قال ويسألونك عن الروح . فثبت أنهم عرفوا وجوده فبطل هذا .

وليس فيها سؤال عن الحال كيف هو ، ولا سؤال عن العلة لم كذا وكذا ولو كان سؤالهم عن هذين لما قنعوا بقوله : « قل الروح من أمر ربى»،ولشغبوا وترددوا إذ ذاك شغلهم وعادتهم وإرادتهم . فثبت أن السؤال إنما كان عن الشيء من أين هو . بدليل الجواب والبيان الظاهر الشافى بقوله : (قل الروح من أمر ربى) إذ الرسول عالم بما سألوا عنه فأجاب عن الله بذلك . كما تقول آدم نسألك عنه . وفهم المسئول السؤال فقال : آدم من تراب ، فإذا رضى الجواب قنع وليس يرجع العدو إلا بفهم عظيم من الحق العظيم الذى لا مرد له. فكيف يزعم الزاعم أنه لا يعرف ولا يجوز أن يعرف .

فقد أوجب الله علينا معرفته ولا مثل له ، ولو ضيعناها لكنا كفارا أو عصاة ، فكيف بموجود مخلوق أمثاله كثيرة . هذا عين الجهل أن يقال لا يجوز أن يعرف من له المثل والنظير وهو الروح ، ويوجب معرفة من لا شبيه له ولا نظير . فنعوذ بالله من جهل الجاهلين وظلم الظالمين .

والذى أقول به إن لله أسراراً لا يسع فيها الرسم . ولا يليق بها الكتم . أن لا ترسم فى الدواوين لعمى البصائر وضعفاء النحائر . ولا يليق بها الكتم لوضوحها وشدة ظهورها . فلا تعبأن بهم مع كثرة حججهم وذل للحق ، واخضع له فيما هم فيه . وأعرض عنهم فيما لا علم لهم به . وقد أمر الله سبحانه نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بإبراهيم وسائر الأنبياء عليهم السلام ، وهو الفاضل الذى لا يصل إليه أحد .

ويقول قد شاركتهم فى النبوة والرسالة والهداية والأمور الطارئة على النفوس والأبدان والقلوب والأرواح ، واقتد بهم فيما فيه الشركة وما خصصنا به : ففينا وإلينا ، كذلك أيضاً من فهم هذا السر دان لله مع عامة المؤمنين

ومع أوساطهم ومع الأعلين وفارقهم فيما هو خاص للمخصوصين ،

فإن تكن منهم فازدد بعلمك وعملك فقرا إلى الله وتواضعا لعباده. واعطف بالرحمة على عامة المؤمنين وإن كانوا ظالمين إلا حيث أمرك الله بالغلظة عليهم مع الدعاء الصالح والدفع عنهم » ا ه .

وأظن أنه لا غرابة بعد هذا فى أن يروى ابن كثير — كما يذكر صاحب المفاخر — أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يحضر مجلس الأستاذ أبى الحسن، فيسمع تقريره للحقائق ، ويشاهد حسن إفصاحه عن العلم اللدنى ، فعند ذلك يحصل له وارد من جانب الحق ، ويركض على قدميه طربا مع المريدين ، ويقول : « تأملوا هذا التقرير فإنه قريب من ربه » ا ه .

ولقد لمس المؤرخون لأبى الحسن والشعراء المادحون له هذا الجانب العلمى عنده ، ورأوا ما فيه من أصالة وعمق ، فأشادوا به . ومن هؤلاء الإمام البوصيرى صاحب البردة الذى يصفه فى قصيدة يمدحه بها بأنه : « بحر العلم » .

أما ابن المبلق فيقول عن أبى الحسن :

لقد كان بحرا فى الشرائع راسخا
ولا سيما علم الفرائض والسنن

ومن منهل التوحيد عب وارتوى
فلله كم روى قلوبا بها محن

وحاز علوما ليس تحصى لكاتب
وهل تحصر الكتاب ما حاز من فنن

وقد سبق أن ذكرنا ما قاله ابن عطاء الله السكندرى فى وصف هذا الجانب العلمى .

وما من شك فى أن أبا الحسن :

« كان عالماً عارفاً بالعلوم الظاهرة ، جامعا لدقائق فنونها ، ومفتضا لأبكار المعانى وعيونها من : حديث ، وتفسير ، وفقه ، وأصول ، ونحوه ، وتصريف، ولغة ، ومعقول ، وحكمة ، وآداب .

وأما علـــوم المعارف الإلهية : فقطب رحاها ، وشمس ضحاها »(١) .

ونختم هذا الجانب العلمى عند أبى الحسن بقول صاحب المفاخر عنه :

« وهو صاحب الإشارات العلية والعبارات السنية ، جاء فى طريق القوم بالأسلوب العجيب ، والمنهج الغريب الذى جمع بين العلم والحال ، أو ، الهمة والمقال ، وتخرج بصحبته جماعة من الأكابر مثل أبى العباس المرسى ، وأبى العزائم ماضى ، وغيرهم ، وتلمذ له أعيان كثيرة من أعيان أهل الله تعالى » .

ويقول شارح القاموس المحيط ، السيد مرتضى الزبيدى صاحب تاج العروس :

« وممن كان يحضر مجلسه ، العز بن عبد السلام ، وابن دقيق العيد ، وناهيك بهما ، والحافظ المنذرى ، وابن الحاجب ، وابن الصلاح ، وابن عصفور ، وغيرهم بالكاملية من القاهرة » (٢) اهـ .

العنصر الثانى فى هذه الشخصية هو عنصر الكفاح ، ونبدأ مباشرة فى هذا المجال بما سبق أن كتبناه تحت عنوان :

« أبو الحسن الشاذلى فى معركة المنصورة » .

ونبدأ بهذا الموضوع حينما نتحدث عن كفاح أبى الحسن ، وذلك لما يظنه بعض الناس من أن الصوفية قوم كسالى ، وأن التصوف مظهر من مظاهر الضعف ، والواقع أن حياة أبى الحسن حين يرسمها الإنسان تظهر وكأنها معول

---

(١) المفاخر العلية لابن عياد .

(٢) شرح الزبيدى على حزب البر ص ٤ .

يهدم ما يبنيه أعداء التصوف من شبهات حوله ، ولنبدأ بالجهاد بعد أن صورنا الجانب العلمى ، وإذا كان التصوف لا يألف الجهل كما رأينا ، فإنه حليف للكفاح كما سنرى :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ .

إذا عدنا إلى أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، وذهبنا بخيالنا نرتاد أرجاء مدينة المنصورة ، رأينا ظاهرة لا عهد لمن مارسوا الحروب الحديثة برؤيتها إلا نادراً ! ! !

تلك هى ظاهرة الإيمان والثقة المطلقة بالله :

إنه من الطبيعى أن تكون مدينة المنصورة ، حينذاك ، فى حركة لا تهدأ :

إنها الحرب ، والمصريون يستعدون لملاقاة العدو المغير الذى احتل دمياط ، ويحاول التغلغل فى البلاد بالاستيلاء عليها .

الاستحكامات تقام ، والمؤن ترد ، والجيوش تتوالى وترتب ، والأوامر تصدر فى حزم وثبات .

والظاهر بيبرس لا يكاد يغمض له طرف ، ولا يذوق النوم إلا غرارا .

وفى جانب آخر لويس التاسع ، ملك فرنسا ، يقود الجيوش الجرارة من الصليبيين يريد أن ينازل الإسلام والعروبة فى معركة فاصلة حاسمة هى معركة المنصورة .

لقد وقف الغرب كله مستعدا للهجوم على مصر ، يريد أن يدمر الإسلام والعروبة بالقضاء على المصريين ، كما وقف الشرك كله من قبل فى غزوة الخندق ، يريد أن يدمر الإسلام بالقضاء على المدينة المنورة ومن فيها من رجال الإسلام الأول ، وعلى رأسهم رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ! ! !

وبين موقعة المنصورة وغزوة الخندق تشابه فى بعض النواحى :

ففى كل منهما أتى الشرك بكل ما يملك ، وبكل ما يستطيع من عتاد ومن عدد ليقضى على التوحيد فى عقر داره :

فقد اقتحم الشرك الأول حرم مدينة الرسول وحاصرها ، أما الشرك الثانى فقد اخترق الحدود وتغلغل فى البلاد ، واحتل بعضها ، حتى وصل إلى أطراف المنصورة ! !

وفى كل منهما كان المسلمون — رغم رؤيتهم للخطر المحدق بهم — ثابتى الجنان ، مؤمنين كل الإيمان بنصر الله ، مطمئنين إلى قضائه .

وإذا أردنا تعليل هذه الثقة فى الله عند المسلمين فى غزوة الخندق ، فتعليله سهل واضح :

لقد كان على رأسهم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وفيهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وكبار الصحابة ! ! رضوان الله عليهم أجمعين .

وهؤلاء — لثقتهم المطلقة فى الله — يبعثون — بطريق التأسى — الثقة فى نفوس الآخرين ؟ !

أما فى واقعة المنصورة ، فإن تعليل الثقة والإيمان والاطمئنان الذى كان يسود إذ ذاك ، ويسيطر على قلوب المجاهدين الأبطال ، ويبعث فيهم الجد والنشاط ، وتحمل التعب والسهر ليلا والعمل نهاراً . . أقول : إن تعليل ذلك ليس بالأمر الهين على من يقرأ التاريخ على أنه ساسة مدنيون ، وقواد حربيون ، وجنود تزيد أو تقل فى العدد .

إذا نظرنا إلى التاريخ بهذا المنظار ، فإن تعليل هـــذه الظاهرة فى موقعة المنصورة لا يتيسر ولا يستقيم .

وحقيقة الأمر أن مصر إذ ذاك كانت تضم بين أرجائها نخبة ممتازة من العلماء الدينيين الذين أخلصوا جهادهم لله وحده ، فلم تغرهم الدنيا بزخرفها وزينتهـــا .

كان فى مصر إذ ذاك : العز بن عبد السلام ، ومجد الدين القشيرى ، ومحيي الدين بن سراقة ، ومجد الدين الأخميمى ، وأبو الحسن الشاذلى ، وغيرهم من خيرة العلماء .

لم يستقر هؤلاء العلماء فى دورهم البعيدة عن الخطر ، وإنما هبوا جميعاً للجهاد فى سبيل الله ، لقد هاجروا إلى المنصورة ليكونوا بين المجاهدين ، ورغم أن العارف بالله أبا الحسن الشاذلى كان فى آخر حياته ، وكان قد كف بصره ، فإنه كان فى مقدمة الذاهبين إلى المنصورة !!! .

ها هم أولئك العلماء الصوفية ، أو الصوفية العلماء ، بسمتهم الملائكى ، وبإيمانهم الذى لا يتزعزع ، يسيرون وسط الجنـــد ، يحثون ويشجعون ، ويرشدون ويذكرون بالله ، ويبشرون ــ كما وعد الله ــ بإحدى الحسنيين : النصر أو الجنة .

وإذا لزم الأمر عملوا بأيديهم مع العاملين .

لقد كان مجرد سيرهم فى الحوارى والشوارع : تذكيراً بالنصر أو الجنة ، وكان حفزاً للهمم ، وتثبيتاً للإيمـان ، وتأكيداً لصورة الجهاد الإسلامية التى قادها فى عصور الإسلام الأولى رســـول الله صلوات الله عليه ، وخلفاؤه الراشدون ، رضوان الله عليهم .

حتى إذا اطمأنوا إلى الأسباب والوسائل : المادية الظاهرة ، والمعنوية الباطنة وحتى إذا ماجنهم الليل ، اجتمع هؤلاء الأعلام فى خيمة من خيام المعسكر ــ نعم فى خيمة من خيام المعسكر ــ يتجهون إلى الله بصلاتهم ودعائهم ،

يلتمسون منه النصر ، فإذا ما فرغوا من ذلك أخذوا يتدارسون كتاباً من الكتب !!! .

لقد كانوا يتدارسون ، فى إحدى الليالى ، الرسالة القشيرية : تقرأ عليهم وهم يسمعون ويشرحون ! ! .

ماذا كانوا يقرءون ، من أبواب الرسالة ؟

أ كانوا يقرءون باب الفتوة ؟

أم كانوا يقرءون باب الحرية ؟ .

أم كانوا يقرءونها فى تتابع مبتدئين من أولها ؟

كانت تقرأ عليهم ويشرحون ، وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلى صامتاً يستمع ، فلما فرغوا طلبوا إليه ــ وهو من أعلام هذا الميدان ــ أن يتحدث ، وألحوا فى الطلب ، فسكت الشيخ فترة ، ثم تكلم ، فى انطلاق وفى قوة ، وفى روحانية لا يمكن التعبير عن وصفها بأسمى من كلمة الشيخ عز الدين ابن عبد السلام الذى قال لأصدقائه وزملائه ، حينما سمع أبا الحسن يتحدث .

« اسمعوا هذا الكلام الغريب ، القريب العهد من الله » .

ولا يقدر هذه الكلمة حق قدرها إلا من يعرف من هو العز بن عبدالسلام ؟!

«الكلام الغريب» لأنه ليس مأخوذا من الكتب ، ولا محبرا فى الأسفار !!

«القريب العهد من الله » لأنه إلهام الساعة ، ووحى الزمن الراهن ! !

وشغل أبو الحسن بأمر المسلمين ، فكان ليله ونهاره مشغولا بالله فى أمرهم حتى إذا ما أخذته سنة من النوم فى ليلة من الليالى ، رأى فيما يراه النائم ، رؤا تتعلق بحالة المسلمين فى المنصورة ، ومن ذلك : الرؤيا التى حكاها صاحب كتاب « درة الأسرار » قال :

« قال الشيخ أبو الحسن : كنت بالمنصورة ، فلما كانت ليلة الثامن من ذى الحجة ، بت مشغولا بأمر المسلمين وبأمر الثغر ، وقد كنت أدعو الله وأضرع إليه فى أمر السلطان والمسلمين .

فلما كان آخر الليل ، رأيت فسطاطا واسع الأرجاء ، عاليا فى السماء ، يعلوه نور ويزدحم عليه خلق من أهل السماء ، وأهل الأرض عنه مشغولون ، فقلت :

لمن هذا الفسطاط ؟

فقالوا :

لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

فبادرت إليه بالفرح ، ولقيت على بابه عصابة من العلماء والصالحين نحوا من السبعين ، أعرف منهم الفقيه عز الدين بن عبد السلام ، والفقيه مجد الدين مدرس قوص ، والفقيه الكمال ابن القاضى صدر الدين ، والفقيه المحدث محيي الدين بن سراقة ، والفقيه عبد الحكيم بن أبى الحوافز ومعهم رجلان لم أعرف أجمل منهما ، غير أنى وقع لى ظن فى حالة الرؤيا : أنهما الفقيه زكى الدين عبد العظيم المنذرى المحدث ، والشيخ مجد الدين الأخميمى ! !

وأردت أن أتقدم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالزمت نفسى التواضع والأدب مع الفقيه ابن عبد السلام ، وقلت : لا يصلح لك التقدم قبل عالم الأمة فى هذا الزمان ، فلما تقدم وتقدم الجميع ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يشير إليهم يمينا وشمالا : أن اجلسوا وتقدمت ، وأنا أبكى بالهم وبالفرح . أما الفرح ، فمن أجل قربى لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم بالنسب ، وأما الهم فمن أجل المسلمين والثغر ، وهم ، طابى إليه صلى الله عليه وسلم ، فمد يده حتى قبض على يدى ، وقال :

لا تهتم كل هذا الهم من أجل الثغر ، وعليك بالنصيحة لرأس الأمر — يعنى السلطان — فإن ولى عليهم ظالم فما عسى ؟ وجمع أصابع يده الخمسة فى يده اليسرى كأنه يقالل المدة .

وإن ولى عليهم تقى فـ « الله ولى المتقين » وبسط يده اليمنى واليسرى .

وأما المسلمون فحسبك الله ورسوله وهؤلاء المؤمنون ـ أى العلماء والفقهاء والصالحون الذين بالمجلس ـ وقال :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ ﴾.

وأما السلطان فيد الله مبسوطة عليه برحمته ما والى أهل ولايته ونصح المؤمنين من عباده ، فانصحه واكتب له وقل فى الظالم عدو الله قولا بليغا :

﴿ وَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ﴾.

فقلت : نصرنا ورب الكعبة ، وانتبهت . ونصر الله المسلمين نصرا مؤزرا ، وأسر الملك لويس ، وأسر الكثيرون من قواده ، وأشاد الشعراء بهذا النصر » :

ومن قصيدة مشهورة لابن مطروح : نقتطف منها مايلى : قال يخاطب لويس :

وكل أصحابك أودعتهم   بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفا لا يرى منهمو   إلا قتيل أو أسير أو جريح
وقل لهم إن أزمعوا عودة   لأخذ ثأر أو ، لفعل قبيح :
دار ابن لقمان على حالها   والقيد باق والطواشى صبيح

ولسنا هنا بصدد تاريخ هذه الموقعة الحربية ، وما أردنا مما سبق ، إلا أن نلقى ضوءاً واضحا على اشتراك أبى الحسن الشاذلى فى الجهاد ، رغم أنه كان يعتذر له عن التخلف لكبر سنه ، ولأنه قد كف بصره .

ولكن أبا الحسن لا يتخلف عن فرض ، وما كان يتأتى له أن يتخلف عن مؤازرة المسلمين . هذه الصورة نضعها أمام أنظار علماء المسلمين فى العصر ،

الحاضر ، وأمام رجال التصوف الإسلامى ، لعل فيها لهؤلاء وأولئك ذكرى كريمة ومثلا يحتذى ! ! .

ولا يتأتى أن نختم الحديث عن مبدإ أبى الحسن فى الجهاد دون أن نذكر قوله : من ثبتت ولايته من الله لا يكره الموت ، ويعلم ذلك من قوله تعالى :

قُل يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوا الْمَوتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .

فإذن ، الولى على الحقيقة لا يكره الموت إن عرض عليه .

وصورة أخرى من الكفاح هى صورة : العمل .

يقول ابن عطاء الله :

« وكان الشيخ أبو الحسن يكره المريد المتعطل ،

ويكره أن يسأل تابعه الناس .

وقد كان جوادا بما يملك ، وكريما يكره البخل .

ويحث على طرق باب الأسباب والعمل » اهـ .

ويقول أبو الحسن :

لكل ولى حجاب (أى ستر يحجبه عن اعتقاد الناس فيه) وأنا حجابى الأسباب » اهـ .

ولقد كان أبو الحسن يعمل فى الزراعة على نطاق واسع .

فهو يتحدث فى خطاب له لأحد أصدقائه يحدثه فيه عن سبب تأخيره فى السفر فيقول : « وسبب الامساك (عن السفر فى العادة[1] زرع لنا يدرس قد حرث لنا فى ثلاثة مواضع » اهـ .

---

(١) أى فى الاسباب الظاهره إذ السبب الحقيقى إنما هو إرادة الله سبحانه وحدها : وهذه الكلمة تبين المدى البعيد فى تأدب أبى الحسن مع الله .

وإن الذى يؤخر أبا الحسن عن السفر ليس هو زرع فدان أو فدانين ، ولا حصد فدان أو فدانين : فالأرض قد حرثت فى « ثلاثة » مواضع .

وكان الشاذلى يتخذ للزراعة الوسائل التى تتيح نوعا من الاكتفاء الذاتى فيربى الثيران مثلا للحرث والدرس ، ويتحـــدث ، للعظة والاعتبار ، عن ثور من هذه الثيران وقع فى بئر . ولنذكر القصة كما رواها صاحب درة الأسرار :

يقول أبو الحسن :

« جعل لى فى ليلة دعاء فقلت :

« اللهم اجعل قضاءك ، ومحابك ، ولقاءك ، وذاتك ، وذات رسولك ، وسر ذات رسولك :

أحب إلى من نفسى ، وأهلى ، وولدى ، ومالى ، والناس أجمعين » .

فكنت أقولها بوجد ، فأجد لها حلاوة ، فكثر ذلك على فقلت :

« شىء ينزل ، وقضاء يحدث .

فبينما أنا قاعد قيل لى :

إن ثورا كان لك فوقع فى البئر .

فقلت :

إنا لله وإنا إليه راجعون .

فقيل لى :

لهذا كانت المقدمة » .

ولا تنتهى القصة عند هذا الحد ولـكن هذا هو ما أردناه منها .

على أن أبا الحسن لا يقتصر على الحث على العمل متخذا من نفسه قدوة ولا يقتصر على النفور من المريد المتعطل ، وإنما يذهب مع أتباعه إلى أبعد من هذا وله فى ذلك ــ مع أبى العباس ــ قصة طريفة .

يقول أبو العباس فيما رواه ابن عطاء الله :

« دخلت يوما على الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه ، فقال لى :

إن أردت أن تـكون من أصحابى ، فلا تسأل أحداً شيئاً ، وإن أتاك شىء من غير مسألة فلا تقبله .

فقلت فى نفسى :

كان النبى ، صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية وقال :

« ما أتاك من غير مسألة فخذه » .

فقال الشيخ :

كأنك تقول كان النبى ، صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية : وقال : ما أتاك من غير مسألة فخذه ؟

النبى صلى الله عليه وسلم ، قال الله فى حقه :

﴿ قُل إِنَّمَا أُنْذِرُكُم بِالْوَحْىِ ﴾

متى أوحى الله إليك ؟

إن كنت مقتديا به فى الأخذ ، فـكن مقتديا به كيف يأخذ . كان صلى الله عليه وسلم لا يأخذ شيئاً إلا ليثيب من يعطيه ويعوضه عليه .

« فإن تطهرت نفسك وتقدست هـكذا فاقبل وإلا فلا » .

وهذه القصة فى غاية العمق ونحن نقدمها على ما هى عليه إلى كل

موظف وكل صاحب جاه ، وكل هؤلاء الذين يقبلون الرشوة فى صورة هدية ، وكل من يلبس عليهم الشيطان فى أكل أموال الناس بالباطل .

والنظرية الشاذلية فى الغنى والفقر تفضل الغنى الشاكر على الفقير الصابر ، وتعلل ذلك بأن الصبر فضيلة فى الدنيا فقط أما الشكر فإنه فضيلة فى الدنيا والآخرة .

ونختم هذا الحديث عن العمل والكفاح والثراء بالقصة التالية :

قال أبو الحسن :

هممت مرة أن أختار القلة من الدنيا على الكثرة ، ثم أمسكت ، وخشيت سوء الأدب ، فلجأت إلى ربى ، ورأيت فى النوم : كأن سليمان عليه السلام جالس وحوله العسكر ورفع لى عن قدوره وجفانه فرأيت أمراً كما وصفه الله تعالى بقوله :

﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾

فنوديت :

لا تختر مع الله شيئاً ، وإن اخترت ، فاختر العبودية لله اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : عبداً رسولا ؛ وإن كان ولا بد فاختر أن لا تختار ، وفر من ذلك المختار إلى اختيار الله .

فانتبهت من نومى ، فرأيت بعدها قائلا يقول لى :

إن الله اختار لك أن تقول :

« اللهم وسع على رزقى من دنياى ، ولا تحجبنى بها عن أخراى ، واجعل مقامى عندك دائماً بين يدك ، وناظراً منك إليك ، وأرنى وجهك ، ووارنى عن الرؤية وعن كل شىء دونك ، وارفع البين فيما بينى وبينك ، يا من هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » .

ثم صورة ثالثة من صور الكفاح اشتهر بها أبو الحسن وعُرف بها بين الناس ، وهى صورة تميزه عن تلميذه أبى العباس : تلك هى صورة السعى فى مصالح الناس . ولقد رأينا أنه حينما نزل مصر فى مروره العابر إلى الحج ذهب إلى السلطان لرفع الرمية التى رمى بها واليه على الأعراب وتعرض بسبب ذلك إلى ما سبق أن ذكرناه فى الفصل الأول . ومما يروى ابن عطاء فى لطائف المنن قال :

استشفع طالب بالشيخ أبى الحسن إلى القاضى تاج الدين أن يزاد على مرتبه فذهب الشيخ إليه ، فأكبر القاضى تاج الدين مجيئه وقال له :

ياسيدى ، فيم جئت ؟

فقال : من أجل فلان الطالب تزيده فى مرتبه عشرة دراهم .

فقال القاضى : ياسيدى ، هذا له فى المكان الفلانى كذا ، وفى المكان الفلانى كذا ، وفى الموضع الفلانى كذا ، وكذا .

فقال له الشيخ : ياتاج الدين لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تزيده إياها فإن الله تعالى لم يقنع للمؤمن بالجنة جزاء حتى زاده النظر إلى وجهه الكريم .

وكثرت شفاعات أبى الحسن بكثرة المظلومين والمساكين والذين لا جاه لهم ، والضعفاء وذوى الحاجات على مختلف ألوانهم ، وأخذ يتردد على ولاة الأمور شافعاً ومدافعاً ومحامياً حتى لقد قال ابن دقيق العيد فى ذلك :

جهل ولاة الأمور بقدر الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه لكثرة تردده فى الشفاعات .

أما ابن عطاء الله فقد قال فى ذلك معلقا على كلمة ابن دقيق العيد :

إن هذا الأمر لا يقوي عليه إلا عبد متخلق بأخلاق الله ، بذل نفسه وأذلها

فى مرضاة الله ، وعلم وسيع رحمة الله ، فعامل عباد الله ممتثلا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« الراحمون يرحمهم الله ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

على أننا لا نترك هذا الموضوع دون أن نشير إلى أن أبا الحسن كان دائماً يدعو الله قبل أن يسير إلى وساطة فى الخير وأدعيته فى ذلك عليها طابع العبودية وفيها عبير الخشوع وذلك ليشعر هو ويشعر الناس أن الأمور كلها بيد الله وأنه ليس إلا منفذاً لمشيئة الله سبحانه وقد تفضل الله عليه فجعله سببا فى الصالحات .

ومن أمثلة ذلك : ما روى صاحب درة الأسرار قال :

وقال رضى الله عنه ، وقد أراد أن يمشى للبعض فى الدفع عن رجل من الصالحين :

« اللهم اجعل مشيي إليه تواضعاً لوجهك ، وابتغاء لفضلك ، ونصرة لك ولرسولك ، وزينى بزينة الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون .

وخصنى بالمحبة والإيثار ، ورفع الحجاب من الصدور فى الليل والنهار . وقنى شح نفسى واجعلنى من المفلحين :

واغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » .

ها نحن نرى أبا الحسن عالما مستنيراً كأحسن ما يكون العالم المستنير .

ومجاهداً صادقاً كأفضل ما يكون المجاهد الصادق .

وعاملا مكافحاً فى الحرث والغرس ، تتعدد مزارعه ، وتتعدد مواضع الحصاد لديه . ونراه رائحاً وغاديا مستشفعاً وقاضياً للناس حاجاتهم .

وإذا كان ذلك يمثل جوانب أصيلة فى شخصيته ، فإن الأصل فى شخصيته لم نتحدث عنه بعد :

يقول صاحب لطائف المنن عن أبى الحسن :

« له السياحات الكثيرة ، والمنازلات الجليلة » .

وهذه الكلمة الصادقة هى التى تصور لنا الجانب الآصل فى شخصية الشاذلى :

لقد كان أبو الحسن عابداً متبتلا ، ومن أجل عبادته ساح سياحات كثيرة :

لقد ساح ليخلو إلى الله ، وساح لتصفو نفسه ، وساح ليتمكن من التركيز والتجمع فيلقى بنفسه كاية وبكيانه كله ، فى الرحاب الإلهى مستسلماً ، مسلماً ، عبداً أسلم القيادات كلها : جسماً ونفساً ، وعقلا ، وروحاً ، وقلباً إلى من بيده الأمر ، أسلمها اختياراً رضياً ، أسلمها اسلام المحب المغتبط الذى يتفانى دائماً فى إسلام الكيان كله حتى لا يرى ولا يسمع ولا يحس ولا يشم أو يذوق إلا من أسلم إليه كيانه .

ولقد كان يسيح ليصل إلى ما يطلبه فى حزبه الكبير قائلا :

« إنى أسألك أن تغيبنى بقربك منى حتى لا أرى ولا أحس بقرب شىء ولا ببعده عنى إنك على كل شىء قدير » .

وإن أبا الحسن هو الذى يقول فى تأكيد يؤيده التاريخ كله :

« اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا ، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا ، فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلا تصحبه لطائف رحمتك ، وكل وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقدا تصحبه أنوار محبتك » .

لم تكن سياحات أبى الحسن تنعما بالجو ، ولا استمتاعا بالحدائق والمتنزهات ، ولا حباً فى استجلاء المجهول من عوالم المادة ، وإنما كانت بحثاً عن الحق .

فلما وجد الحق كانت سياحاته من أجل التمكن فى مجالات الحق .

فلما تمكن فى مجالات الحق استقر به المقام مبشراً وهادياً .

والشيخ يتحدث عن هذه السياحات ، ولابد من ذكر أمثلة منها :

يقول صاحب المفاخر العلية عن الشيخ :

انتقل إلى مدينة تونس وهو صبى صغير ، وتوجه إلى بلاد المشرق ، وحج حجات كثيرة ، ودخل العراق .

ومما رواه أبو الحسن ، وكان ذلك فى أوائل سلوكه :

« كنت أنا وصاحب لى قد آوينا إلى مغارة ، نطلب الوصول إلى الله ، فكنا نقول :

غداً يفتح لنا ، بعد غد يفتح لنا .

فدخل علينا رجل له هيبة ، فقلنا له :

من أنت ؟

فقال :

أنا عبد الملك .

فعلمنا أنه من أولياء الله ، فقلنا له :

كيف حالك ؟

فقال :

كيف حال من يقول : غداً يفتح لى ، بعد غد يفتح لى ، فلا ولاية ولا فلاح ؛ يا نفس لم لا تعبدين الله لله .

قال : فتفطنا من أين دخل علينا .

فتبنا إلى الله ، واستغفرنا : ففتح لنا »

ويقول أبو الحسن أيضاً عن سياحاته فى مبدأ أمره :

كنت فى سياحتى فى مبدأ أمرى، حصل لى تردد: هل ألزم البرارى والقفار، للتفرغ للطاعة والأذكار ؟ أم أرجع إلى المدائن والديار : لصحبة العلماء والأخيار؟

فوصف لى ولى هنالك ، وكان برأس جبل ، فصعدت إليه ، فما وصلت إليه إلا ليلا ، فقلت فى نفسى : لا أدخل عليه فى هذا الوقت ، فسمعته يقول ، من داخل المغارة :

« اللهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك ، فسخرت لهم خلقك ، فرضوا منك بذلك .

اللهم وإنى أسألك اعوجاج الخلق على ، حتى لا يكون ملجأى إلا إليك .

قال : فالتفت إلى نفسى وقلت : يا نفسى انظرى من أى بحر يغترف هذا الشيخ .

فلما أصبحت دخلت إليه فأرعبت من هيبته .

فقلت له :

ياسيدى كيف حالك ؟

فقال : أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار .

فقلت ياسيدى أما شكواى من حر التدبير والاختيار ، فقد ذقته وأنا الآن فيه ، وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فلماذا ؟

فقال : أخاف أن تشغلنى حلاوتهما عن الله .

قلت : ياسيدى سمعتك البارحة تقول : اللهم إن قوماً سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك فرضوا منك بذلك ، اللهم وإنى أسألك إعوجاج

الخلق على حتى لا يكون ملجأى إلا إليك ، فتبسم ثم قال :

يابنى عوض ما تقول سخر لى خلقك قل : يارب كن لى ، أترى إذا كان لك أيفوتك شىء ، فما هذه الجبانة » .

(وقال) رضى الله عنه : اجتمعت برجل فى سياحتى فقال :

ليس شىء فى الأقوال أعون على الأفعال من ـ لا حول ولا قوة إلا بالله والاعتصام بالله . ففروا إلى الله ، واعتصموا بالله . ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

(ثم قال) :

باسم الله ، فررت إلى الله ، واعتصمت بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، رب إنى أعوذ بك من عمل الشيطان ، إنه عدو مضل مبين ، باسم الله قول باللسان صدر عن القلب ، ففروا إلى الله وصف للملك والأمر ، ثم تقول للشيطان :

هذا علم الله فيك ، وبالله آمنت ، وعليه توكلت ، وأعوذ بالله منك ، ولولا ما أمرنى ما استعذت منك ، ومن أنت حتى أعتصم بالله منك .

وروى الشيخ أيضاً :

قلت يوماً وأنا فى مغارة فى سياحتى :

إلٰهى متى أكون لك عبداً شكوراً ، فإذا قائل يقول لى :

إذا لم تر منعماً عليه غيرك .

فقلت إلٰهى كيف لا أرى منعماً عليه غيرى وقد أنعمت على الأنبياء ، وقد أنعمت على العلماء ، وقد أنعمت على الملوك . فإذا قائل يقول لى :

لولا الأنبياء لما اهتديت .

ولولا العلماء لما اقتديت .

ولولا الملوك لما أمنت ، فالكل نعمة منى عليك .

* * *

هذه السياحات المتعددة المتكررة إنما كانت هجرة إلى الله ، وذهاباً إليه، وفراراً إنحوه ، وما كان لها من هدف إلا أن يخلو وربه ، وأن ينسى كل شيء ليملأ قلبه بالله ، لقد كانت سياحات للعبادة . وما كانت العبادة العادية هى التى يقصد أبو الحسن بهذه السياحات . إن الفروض ، وإن سننها الراتبة ، من السهل على أبى الحسن أن يؤديها فى الحضر ، كما يؤديها الآخرون ، وما كان فى حاجة إلى هجرة من أجلها . لقد كان قصد أبى الحسن أن يفرغ قلبه ليملأه بالله ، ولا بد لهذا من هجرة .

ومن الناس من يهاجر إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه . أما من كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله .

لقد كانت هجرة أبى الحسن تحنثاً ، وبحثاً عن الصفاء ، ومراناً على الاسترسال مع الله على ما يريد .

لقد كان يريد أن يرتبط بالحق فكان يروض نفسه على ذلك .

كان يروض نفسه على أن يسيطر على نفسه : على شهواته ، على إرادته ، على مشيئته إنه يقول :

لن يصل العبد إلى الله وبقى معه شهوة من شهواته ، ولا مشيئة من مشيئاته (١) وكان يقول :

---

(١) الطبقات الكبرى : للشعرانى .

إن أردت أن تكون مرتبطاً بالحق فتبرأ ممن نفسك واخرج من حولك وقوتك .

لقد كان يريد أن يشهد الله : أن يشهده متجلياً على أنحاء شتى ، والله سبحانه يتجلى للإنسان على قدر صفائه ، وأراد أبو الحسن أن يصل فى الصفاء إلى أقصى ما يصل إليه السالكون .

لقد اعتكف فى جبل زغوان ، وسافر من قبل ذلك بحثاً عن القطب ، وسهر الليالى قائماً متبتلا فى البوادى والوهاد والوديان .

وكم شهدته المغارات والكهوف قائماً فى جنح من الليل متضرعاً إلى الله داعياً مستغيثاً محاولا أن يفنى فى الله بحيث يصبح صورة تامة بقدر الإمكان مما يحب الله وبحيث يصبح ربانياً .

يقول أبو الحسن :

أبى المحققون أن يشهدوا غير الله تعالى ، لما حققهم به من شهود القيومية وإحاطة الديمومية .

هذه الكلمة الحق التى هى تفسير لما يقوله الصوفية فى وحدة الوجود كانت الهدف الذى أراد أن يصل إليه أبو الحسن ، أراد أن يصل إليه معرفة ، وأن يشعر به ذوقاً ، وأن يتحقق به حالا .

فلما تم له ذلك من سياحاته ، وخلواته ، وتحنثه عاد إلى الناس مستقراً هادياً مبشراً بالنور والرحمة والمعرفة .

ولا نريد أن نترك هذا المقام دون أن نضرب مثلا لأثر عبادة أبى الحسن عليه من إخبات ، وخشوع وتعظيم لله ولرسوله ، ومن نسبته كل نقص وتقصير لنفسه ومن وصوله إلى درجة سامية من إسلام الوجه لله .

يقول صاحب درة الأسرار عن أبى الحسن :

لما قدم المدينة زادها الله تشريفاً وتعظيماً ، وقف على باب الحرم من أول النهار إلى نصفه عريان الرأس حافى القدمين ، يستأذن على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليما .

فسئل عن ذلك فقال : حتى يؤذن لى ، فإن الله عز وجل يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِي إلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾

فسمع النداء من داخل الروضة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام .

يا على ، ادخل .

فوقف تجاه الروضة الشريفة فقال :

السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، صلى الله عليك يا رسول الله أفضل وأزكى وأسنى وأعلا صلاة صلاها على أحد من أنبيائه وأصفيائه ، أشهد يا رسول الله أنك بلغت ما أرسلت به ، ونصحت أمتك ، وعبدت ربك حتى أتاك اليقين ، كنت كما نعتك الله فى كتابه :

﴿ لَقَد جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

فصلوات الله وملائكته وأنبيائه ورسله وجميع خلقه من أهل سمواته وأرضه عليك يا رسول الله .

السلام عليكما يا صاحبى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يا أبا بكر ويا عمر ، ورحمة الله وبركاته ، فجزاكما الله عن الإسلام وأهله أفضل ما جازى به وزيرى نبى فى حياته ، وعلى حسن خلافته فى أمته بعد وفاته ، فقد كنتما لمحمد

صلى الله عليه وسلم ، وزيرى صدق ، وخلفتماه بالعدل والإحسان فى أمته بعد وفاته ، فجزاكما الله عن ذلك مرافقته فى الجنة ، وإيانا معكما برحمته إنه أرحم الراحمين .

اللهم إنى أشهدك وأشهد رسلك ، وأشهد أبا بكر وعمر ، وأشهد الملائكة النازلين بهذه الروضة الكريمة والعاكفين عليها ، أنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين ، وإمام المرسلين وأشهد أن كل ما جاء به من أمر ونهى وخبر عما كان أو ما هو كائن فهو صدق لا شك فيه ولا امتراء ، وأنى مقر لك بجنايتى ومعصيتى فى الخطرة والفكرة والإرادة والفعلة . وما استأثرت به علىّ إذا شئت أخذت وإذا شئت عفوت عنه ، مما هو متضمن للكفران والنفاق أو البدعة أو الضلالة أو المعصية أو سوء الأدب معك ومع رسولك وأنبيائك وأوليائك من الملائكة والإنس والجن ، وما خصصت به من شىء فى ملكك فقد ظلمت نفسى بجميع ذلك فامنن على بالذى مننت به على أوليائك ، فإنك أنت الله الملك المنان الكريم الغفور الرحيم .

* * *

لقد كان أبو الحسن جميل المظهر جسما وملبساً ، وكان فارساً يركب الخيل ويقتنيها ، وكان غير متحرج فيما يتعلق بالمأكل والمشرب من حيث النوع وإن كان يتحرج كل التحرج فيهما من حيث الحل والحرمة .

وكان عالماً أجمل ما يكون العلم وأعمقه .

وكان مجاهداً يقف مع الجيوش فى الميدان يعمل على إحراز النصر .

وكان مكافحاً يعمل فى الحرث والغرس والحصاد .

وكان عابداً أدت به عبادته إلى قرب ، قال هو عن حقيقته إنه : الغيبة بالقرب عن القرب لعظم القرب .

هذا هو أبو الحسن .

إنه يمثل شخصية المسلم التى أحب الله لكل فرد من خير أمة أخرجت للناس.

ومن أجل ذلك كتب عنه علية القوم مادحين معترفين بفضله : يقول صاحب المفاخر العلية :

وممن ذكره من الأولياء والعلماء فى زمنه ومن بعده :

« الشيخ صفى الدين بن أبى المنصور الشاذلى فى رسالته ، وأثنى عليه الثناء العظيم على حسب معرفته .

والشيخ عبد الله بن النعمان ، وشهد له بالقطبانية .

والشيخ قطب الدين القسطلانى فى جملة من لقيه من المشايخ .

والشيخ تاج الدين بن عطاء الله فى لطائف المنن .

والشيخ سراج الدين الملقن فى طبقات الأولياء .

والشيخ جلال الدين السيوطى فى حسن المحاضرة .

وسيدى عبد الوهاب الشعرانى فى طبقاته .

والمناوى فى الكواكب الدرية .

وذكره غير هؤلاء من المشايخ ، كل واحد منهم يثنى عليه ويصفه بما عرف من قدره» اهـ .

وللشعراء فيه الكثير من الشعر نكتفى من ذلك ببعض ما يقوله الإمام البوصيري صاحب البردة المباركة رضي الله عنه وأرضاه :

أما الإمام الشاذلى طريقه في الفضل واضحة لعين المهتدى
فانقل ولو قدما على آثاره فإذا فعلت فذاك أخذ باليد
قطب الزمان وغوثه وإمامه عين الوجود لسان سر الموجد
ساد الرجال فقصرت عن شأوه همم المآرب للعلا والسؤدد
أو ما مررت على مكان ضريحه وشممت ريح الند من ترب ندى
ووجدت تعظيما بقلبك لو سرى فى جلمد سجد الورى للجلمد
فقل السلام عليك يا بحر الندى الطامى وبحر العلم بل والمرشد

هذا ولعل خير ما نختم به حديثنا عن شخصية أبى الحسن هو ما كان لهذه الشخصية من أثر روحى على طائفة من أكابر القوم الذين التقوا به وسمعوا منه :

يقول ابن عطاء الله :

« ونشأ على يد الشيخ رضى الله عنه ، جماعة كثيرة ، منهم من أقام بالمغرب كأبى الحسن الصقلى ، وكان من أكابر الصديقين ، وعبد الله الحبيبى وكان من أكابر الأولياء .

ومنهم من تبعه وهاجر معه إلى مصر ، منهم شيخنا وقدوتنا إلى الله أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عمر الأنصارى المرسى ، رضى الله عنه ، ومنهم الحاج محمد القرطبى ، وأبو الحسن البجائى المدفون بظاهر أشمون الرمان وأبو عبد الله البجائى والوجهانى والجزار .

ومنهم من صحبه بديار مصر ، منهم الشيخ عبد الله بن منصور المعروف بمكين الدين الأسمر ، والشيخ عبد الحكيم ، والشرف البونى ، والشيخ عبدالله اللقانى ، والشيخ عثمان البوريجى ، والشيخ أمين الدين جبريل .

ولكل هؤلاء علوم وأسرار وأصحاب أخذوا عنهم اهـ .

الفصل الثالث

أبو الحسن الشاذلي
والعمل بالكتاب والسنة

جاء الدين الإسلامى بتكاليف عديدة لصلاح المجتمع ولصلاح الفرد ، وهذه التكاليف يتبين من اسمها : أن فيها شيئا من المشقة على هؤلاء الذين لم يتذوقوا الصلة بالله .

ولما فى التكاليف من مشقة حاول كثيرون التخلص منها بشتى الوسائل أو التأويلات المنحرفة .

ومن أضل هذه الوسائل ما يزعمه البعض من أنه وصل من الصلة بالله ، إلى رفع التكاليف عنه ، وتلك خدعة شيطانية ، وقد حاربها أئمة التصوف فى مختلف العصور حربا لاهوادة فيها :

ومن هؤلاء الذين حاربوها بشدة : أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه :

كان باستمرار يأمر ويحث على اتباع الكتاب والسنة ، ويبين : أن الانحراف عنهما اتباع للشيطان ، يقول رضى الله عنه :

ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السنة .

فمن أعطيهما وجعل يشتاق إلى غيرهما ، فهو عبد مفتر كذاب ، أو ذو خطأ فى العلم والعمل بالصواب . كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا .

ويقول :

إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس فى الجماعة ، فلا تعبأ به ، هذا فى شأن السالك .

أما من يتصدى للدعوة فإن :

« من دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،

فهو بدعى » على حد تعبير أبى الحسن .

ولكل وقت عمله المحدد ، ولكل عمل زمنه المعين ، والمتابعة الحقة تقتضى : ألا تؤخر الأعمال عن أزمانها : يقول أبو الحسن :

لا تؤخر طاعات وقت لوقت آخر : فتعاقب بفواتها ، أو فوات غيرها ، أو مثلها ، جزاء لما ضيع من ذلك الوقت . فإن لكل وقت سهما، لحق العبودية : يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية .

وأما تأخير عمر رضى الله عنه الوتر إلى آخر الليل فتلك : عادة جارية ، وسنة ثابتة ألزمه الله تعالى إياها مع المحافظة عليها . وأنى لك بها مع الميل إلى الراحات ، والركون إلى الشهوات ، والغفلة عن المشاهدات ! ؟

فهيهات هيهات !

وكثير من الناس يجد شهوة فاسدة فى أنماط من العلم منحرفة يعكف عليها فتصرفه بالكلية عن كتاب الله وسنة رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وتصبح حجابا بينه وبين الله ، وإلى هؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الدرجة ينصح الشاذلى:

« كل علم تسبق إليك فيه الخواطر ، وتميل إليه النفس ، وتلتذ به الطبيعة: فارم به وإن كان حقاً . وخذ بعلم الله الذى أنزله على رسوله ، واقتد به وبالخلفاء والصحابة والتابعين من بعده وبالأئمة الهداة المبرئين عن الهوى ومتابعته.

تسلم من الشكوك ، والظنون ، والأوهام ، والدعاوى الكاذبة المضلة عن الهدى وحقائقه » .

وفى الناس من يزعم : أنه وصل فى المحبة إلى درجة تغنيه عن اتباع التكاليف ، وإلى هؤلاء يقول :

سمعت هاتفا يقول : إن أردت كرامتى فعليك بطاعتى وبالإعراض عن معصيتى.

والطريقة المثلى هى أنه :

« إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك : إن الله تعالى قد ضمن العصمة فى الكتاب والسنة ، ولم يضمنها لى فى جانب الكشف ولا الإلهام ، ولا المشاهدة ، مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغى العمل بالكشف ، ولا الإلهام ، ولا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة » .

والنتيجة التى يريد أن يصل إليها تتمثل فيما يلى :

« ارجع عن منازعة ربك تكن موحدا ، واعمل بأركان الشرع تكن سنيا ، واجمع بينهما تكن محققاً » .

الفصل الرابع

أبو الحسن الشاذلي
والاستدلال على وجود الله

يقول ابن عطاء الله السكندرى معبراً عن رأى المدرسة الشاذلية :

« وإذا كان من الكائنات ماهو غنى بوضوحه عن إقامة دليل : فالمكون أولى بغناه عن الدليل منها »(١) اهـ .

وهذه الفكرة إنما هى عوة إلى الطريق الصواب فيما يتعلق بما سماه المتكلمون :

« إثبات وجود الله » .

وهى فكرة وجه إليها الشيخ أبو الحسن مريديه أكثر من مرة ، فهو يقول :

« كيف يعرف بالمعارف من به عرفتِ المعارف ، أم كيف يعرف بشىء من سبق وجوده وجود كل شىء »(٢) .

ويقول أيضا :

« إنا لننظر إلى الله ببصائر الإيمان فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان ، وإنا لا نرى أحدا من الخلق ، هل فى الوجود أحد سوى الملك الحق ؟

وإن كان ولابد فكالهباء فى الهواء ، إن فتشته لم تجده شيئا » اهـ .

ويتابع أبو الحسن الحديث فيقول :

ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه ، فليت شعرى هل لها وجود معه حتى توصل إليه ، أو هل لها من الوضوح ماليس له حتى تكون هى المظهرة له ؟

ويقول :

وكيف تكون الكائنات مظهرة له ، وهو الذى أظهرها ، أو معرفة له وهو الذى عرفها .

---

(١) لطائف المنن ص ٢٧ الطبعة الفرنسية .

(٢) لطائف المنن ص ٢٦ الطبعة الفرنسية .

هذا الاتجاه الذى علمه أبو الحسن لتلاميذه ونشره بينهم ، أخذ ابن عطاء الله السكندرى فى إذاعته وكتابته على أنحاء شتى ، فمن ذلك قوله :

وأرباب الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان :

لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحق فى ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل عليه .

وكيف يحتاج إلى الدليل من نصب الدليل ، وكيف يكون معروفا به وهو المعرف له » اه .

إن أبا الحسن عاد بأتباعه إلى النهج الإسلامى الصادق فيما يتعلق بوجود الله .

إن وجوده سبحانه أوضح وأظهر من أن يحتاج إلى دليل . وإن تقديس الله سبحانه ينأى بالمؤمن عن أن يتخيل – مجرد تخيل – أن الله يحتاج إلى إثبات وجوده .

وإن جلال الله — وهو جزء من عقيدة المؤمن — يسمو بالمؤمن عن أن ينزل إلى هذا المستوى من الانحراف .

والواقع أن كل محاولة لإثبات وجود الله إنما هى انحراف عن النهج الإسلامى السليم .

وإذا كان أبو الحسن قد وجه أتباعه إلى هذا النهج ، فإنما يتبع فى ذلك المنهج القرآنى :

وذلك أن القرآن الكريم ، وجميع الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم ، قد نزهوا الله عن أن يحاولوا الاستدلال على وجوده ، وقدسوه عن أن يكون وجوده فى حاجة إلى حجة وبرهان .

ولقد سار الإمام الشاذلى على هذا النسق متبعا ومقتديا .

بيد أن فكرته أصبحت الآن غامضة كل الغموض : ذلك أن بدعة إثبات وجود الله بدعة شائعة حتى فى الأوساط المستغرقة فى التدين : ومن أجل ذلك يتساءل الكثيرون :

أكان أبو الحسن محقا فى رأيه هذا ؟.

ومن أجل إيضاح فكرة أبى الحسن ، ولأن الموضوع فى نفسه جدير إلى حد بعيد بالاهتمام : فإننا نستفيض هنا فى شرح هذا الموضوع عسى أن يسود توجيه أبى الحسن فيرجع الناس عن البدعة إلى التوجيه السليم ، على أن من حق أبى الحسن علينا — ونحن نكتب عنه — أن نستفيض فى شرح فكرة من أفكاره ، كان للعادة والألف ، وكان للزمن والظروف دخل فى أن أصبحت غير مفهومة فهما واضحا ، أو غير مقدرة تقديرا صحيحا :

حين بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم ، الجهر بدعوته ، بعد نحو ثلاث سنوات من الإسرار بها : فإنه ، صلوات الله وسلامه عليه : لم يبدأ بإثبات وجود الله ، وإنما بدأ بالبرهنة على صدقه هو ، وتحدى العرب بصدقه . ومن قبل ذلك : حين فاجأه الملك فى الغار ونزل الوحى ، لم يبدأ الملك أو لم يبدأ الوحى : بإثبات وجود الله ، وإنما بدأ بالأمر بأن يقرأ الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، باسم ربه :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾

ومضى القرن الأول كله ولم يحاول إنسان قط : أن يتحدث حديثا عابرا أو مستفيضا عن إثبات وجود الله ، تعالى ، ومضى أكثر القرن الثانى والمسألة — فيما يتعلق بوجود الله — لا توضع موضع البحث :

ذلك أن وجود الله : إنما هو أمر بدهى لا ينبغى أن يتحدث فيه المؤمنون

نفيا أو إثباتا ، ولا سلبا أو إيجابا . إن وجود الله : من القضايا المسلمة التى لاتوضع ، فى الأوساط الدينية ، موضع البحث : لأنها فطرية :

وإن كل شخص يحاول وضعها موضع البحث إنما هو شخص فى إيمانه دخل ، وفى دينه انحراف : فما خفى الله قط حتى يحتاج إلى أن يثبته البشر ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ومن المعروف أن الدين الإسلامى لم يجىء لإثبات وجود الله ، وإنما جاء لتوحيد الله . وإذا تصفحت القرآن ، أو التوراة حتى على وضعها الحالى ، أو الإنجيل حتى فى وضعه الراهن : فإنك لا تجد أن مسألة وجود الله قد اتخذت فى سفر منها مكانة تجعلها هدفا من الأهداف الدينية، أو احتلت مكانا يشعر بأنها من مقاصد الرسالة السماوية .

والقرآن الكريم : يتحدث عن بداهة وجود الله حتى عند ذوى العقائد المنحرفة :

يقول سبحانه :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهم مَنْ خَلَقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرض ليَقُولُنّ : الله ﴾

إنهم يقولون : إن الخالق هو الله ، مع أنهم مشركون أو منحرفون بوجه من الوجوه ، فى إيمانهم بالله ، تعالى ؛ وما نزلت الأديان قط لإثبات وجود الله وإنما نزلت لتصحيح الاعتقاد فى الله أو لتصحيح طريق التوحيد .

أما الآيات الكثيرة التى يظن بعض الناس أنها نزلت لإثبات الوجود : فليست من ذلك فى قليل ولا فى كثير ، إنها تبين عظمة الله وجلاله وكبرياءه وهيمنته الكاملة على العالم ، ما عظم من أمره ومادق منه ، لا تفوت هيمنته صغيرة ولا كبيرة ولايخرج عن سلطانه مادق وماجل.

وقد أتت على هذا الوضع ، لتقود الإنسان إلى إسلام وجهه لله ، إسلاما

كاملا بحيث لا يصدر ، ولا يرد إلا باسمه سبحانه ، ولا يأتى ما يأتى أو يدع ما يدع إلا فى سبيله ، تعالى .

ومضى القرن الأول على ذلك ، ومضى القرن الثانى أو أكثره على الفطرة، ثم . . ثم كانت الفلسفة اليونانية .

والفلسفة اليونانية فلسفة وثنية : لأنها تصدر عن العقل لا عن الوحى ، وكل فكرة تصدر عن العقل لا عن الوحى فى عالم ما وراء الطبيعة ، أى فى عالم العقيدة : إنما هى فكرة وثنية ، أى أنها فكرة لا حق لها فى الوجود ، لأن عالم العقيدة إنما هو من اختصاص الله : بينه على لسان رسله . وكل تدخل من الإنسان فى هذا العالم : إنما هو تدخل فيما ليس للانسان التدخل فيه ، لأنه اقتحام لساحة محرمة مقدسة ، لا ينبغى أن يدخلها الإنسان إلا دخول الساجد الخاشع الخاضع المسلم لما جاء به الوحى الإلهى .

إن الفلسفة اليونانية فى عالم العقيدة : فلسفة وثنية ، إنها وثنية حتى حين تثبت وجود الله ، ولا يخرجها إثباتها وجود الله عن أن تكون وثنية ؛ إنها وثنية بالمبدأ الذى قامت عليه ، وهو مبدأ تأليه العقل البشرى ، ويستوى بعد ذلك أن تكون قد أثبتت وجود الله أو أنكرته .

وهى حينما تثبت وجود الله عقلياً ، ليس فى ذلك كبير فائدة ، ولا يبرر ذلك وجودها ، ولا قيمة لما تثبته ، وإثباتها والعدم سواء : ذلك أن العقل الذى أثبت : هو العقل الذى يمكنه أن ينكر ، وهو العقل الذى ينكر بالفعل .

ولا لزوم إذن للطنطنة والتصفيق الذى نحيي به كل عبقرية فكرية فى الشرق أو فى الغرب تحاول فكريا ، أن تثبت وجود الله .

إننا لا نقيم عقيدتنا على فكر بشرى مهما كان هذا الفكر عبقريا ، ويجب على المؤمن أن لا يقيم وزنا – أى وزن – لأى نتاج فكرى فى علم

ماوراء الطبيعة ، سواء أخالف معتقده أم وافقه ، إنه فى معتقده يدين لله وحده ، وكفى بالله مصدراً ، وكفى بالله هادياً ، وكفى بالله مرشدا ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ، ومن يعتصم بالله فهو حسبه .

إن كل ما عدا الهدى الإلهى فى عالم الدين ، إنما هو وثنية وضلال .

كانت الفلسفة اليونانية فلسفة وثنية بشرية ، وقد أرادت أن تجد لجاماً يعصمها من الخطأ فاخترعت فنا وثنيا آخر ، هو فن المنطق ، فما أجدى ولا أغنى ، ولا تقدم بالفكر الوثنى فى عالم الصواب شروى نقير .

وبقيت هذه الفلسفة ـ عبر القرون ـ على ماهى عليه ، فيها كل سمات الوثنية من ضلال وخرافات .

ولقد كانت الأمة اليونانية : معذورة بعض العذر ، فما كان فى ربوعها دين منزل من السماء تلجأ إليه مهتدية مسترشدة ، وما كان مثلها فى ذلك إلا كمثل العصر الجاهلى فى الجزيرة العربية : فلجأت إلى العقل وألهته ، وأخذت تثبت به وتنكر ، فضلت وأضلت .

وجاءت الديانة النصرانية مصححة للوضع ، فعزلت فكرة الألوهية عن عن تدنيس الوثنية ، وسمت بالله جل جلاله عن أن تضع وجوده موضع البحث ، ثم تسللت إليها ـ كميكروب خبيث ـ وثنية اليونان ، فجعلت من وجود الله ـ مجرد وجود الله ـ بابا ضخما من أبواب البحث ، أو من أبواب اللاهوت الكنسى ، ونزلت بذلك الفكرة الدينية المقدسة عن الله ، إلى مستوى الجو الوثنى البشرى ! ! !

وجاء الإسلام تطهيرا كاملا للعقيدة وتزكية تامة للايمان ، وأعلن بمجرد التسمية « الإسلام » الحرب على التدخل البشرى فى دين الله ورسالته .

فما « الإسلام » إلا الاستسلام المطلق لله سبحانه وتعالى : إنه الاسترسال

مع الله على ما يرضيه ، وهل للانسان غير هذا بالنسبة لله ، وهل للمؤمن أن يتصرف تصرفاً آخر ؟ وهل إذا تصرف تصرفاً آخر يسمى مؤمناً ؟

إن الاسترسال مع الله على ما يحب ، هو الإسلام ، وهو الدين ، لا دين غيره ، يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامَ ﴾

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾

وإن كل من لا يستسلم لله فى وحيه استسلاماً مطلقاً : فإنه يبتغى — فى قليل أو فى كثير حسب انحرافه — غير الإسلام ديناً .

ولقد كان الإسلام توجيهاً ، وكان مبادىء .

ومن توجيه الإسلام : أن وجود الله لاينبغى أن يوضع موضع البحث . وكل من وضعه موضع البحث : فإنه بذلك يعدل عن توجيه الله تعالى إلى توجيه بشرى ، إنه يبتغى غير الإسلام موجهاً ؟

وابتغى المسلمون الأول الإسلام توجيهاً ، كما ابتغوه مبادىء ، وسار الأمر على ذلك إلى أن تسللت الفلسفة اليونانية — كميكروب خبيث — إلى الجو الإسلامى . تسللت فى عهد المأمون ، وتولى كبر هذا التسلل المأمون ، وشجعه على ذلك معتزلة عصره ، وقابل المؤمنين ذلك بكثير من النفور ، وحق لهم ذلك ، فما كان منطق الدين ولا منطق الفطرة السليمة يقضى بأن تكون راية العصمة ، أى راية الدين الإلهى مرفوعة ترفرف على ربوع الأمة الإسلامية فى محيط العقيدة ، فنميل بهذه الراية ، قليلا أو كثيراً ، لنرفع بجوارها راية أرسطو ، أو راية أبيقور .

ورفع المأمون راية الانحراف والوثنية بجوار راية الهداية المعصومة .

وعارض المؤمنون واحتجوا وبينوا أن الوثنية ، ولو وافقت الدين ، فهى وثنية .

ولكن النهج الوثنى أخذ يقوى شيئاً فشيئاً ، ثم طاب التصريح بالإقامة واستوطن .

ومعاذ الله أن تكون عقائد الإسلام الكبرى ـ الإيمان بالله وبالرسالة وبالبعث ـ قد تلوثت بالوثنية ، كلا ، وإنما الذى تلوث بالوثنية ـ وإلى حد كبير ـ إنما هو النهج والنزعة والاتجاه فى البحث ومنهج البحث . وليس ذلك بالأمر الهين ، أو الذى لا يؤبه له كلا فذلك له خطورته فى جانب قوة الإيمان وضعفه .

وفرق بين أن تأخذ قضايا الوحى مأخذ المستسلم ، المسترسل معها على ماتريد ، وأن تأخذها محكماً فيها عقلك مؤولا لها أو عادلا بها إلى اتجاه خاص ، أو شارحاً لها على نزعة معينة .

وبتعبير آخر : فرق بين أن تصدر عن الوحى متفهما له بعقلك ، وبين أن تصدر عن عقلك ، متفهما للوحى ، ولعل بعض الناس لايرى فرقاً فى التعبيرين ، ولكن الفرق كبير ، إذا نظرنا إلى الوضع الإنسانى : فهو إما أن ينطلق عن الوحى قائداً العقل إلى الخضوع له ، وإما أن ينطلق عن العقل محاولا تأويل الوحى بما يوافق النتائج التى وصل إليها العقل .

والأول طريق المؤمنين المسلمين ، والثانى طريق الفلاسفة أو نهج الوثنيين .

والنهج الوثنى ـ نهج إثبات وجود الله ـ هو الذى أتاح الانحراف الكامل ، أى إنكار وجود الله ، فما دام النهج الوثنى قد أعطى حق الوجود: فإن الوثنية — كمنهج — تأتى بالوثنية كنتائج .

إن وضع مسألة وجود الله موضع البحث : هو الذى هيأ لذوى الفطر المنحرفة أن يلحدوا فى دين الله ، وأن يكفروا به سبحانه . وهذه نتيجة أولى .

أما النتيجة الثانية فإنها : ضعف الإيمان ، وإذا كنت تضع الوجود الإلهى — مجرد الوجود — موضع بحث : فمعنى ذلك أنك وضعته موضع شك وريبة ، ولو لم يكن كذلك لما وضع موضع البحث .

وإذا كان الوجود الإلهى — مجرد الوجود — موضع شك وريبة فماذا بقى من أمور الدين لا يوضع موضع شك وريبة ؟ إن الإيمان فى هذه الأوضاع الوثنية : لا يتأتى له إلا أن يخبو شيئاً فشيئاً حتى يصبح كلا إيمان .

وهذا هو ماحدث فى الأمة الإسلامية : لقد وصل إيمانها إلى درجة يكاد معها أن يكون معدوماً . وما ذلك إلا لتغلغل النهج الوثنى فى بحث قضايا الدين ومبادئه ، لقد أصبحت قضايا الدين ، كل قضاياه ، موضع بحث ، وهل يتأتى أن تبقى قضية من قضايا الدين فى مجال اليقين بعد أن وضع وجود الله مجرد وجوده سبحانه — موضع البحث ؟

نستغفرك اللهم ، ونتوب إليك .

ونعود فنقول : إن الدين فى نفسه محفوظ بحفظ الله لكتابه العزيز :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

ولكن الذى نشكو منه إنما هو النهج ، أو المنهج ، أو النزعة ، أو الاتجاه فى البحث ، إن الذى نشكو منه إنما هو :

منهج البحث الوثنى . وإذا شئت قلت : إنما هو منهج البحث اليونانى .

سئل أحد العارفين عن الدليل على الله .

فقال : الله .

فقيل له فما العقل ؟ فقال : العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله .

أما الإمام الكبير العارف بالله ابن عطاء الله السكندرى الذى جمع بين رئاسة الشريعة ، ورئاسة الحقيقة فإنه يقول :

« إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك . أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك . متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك ».

« كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو الذى أظهر كل شىء » .

« كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو الذى ظهر بكل شىء » .

« كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو الذى ظهر فى كل شىء » .

« كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو الظاهر قبل وجود كل شىء » .

« كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو أظهر من كل شىء » .

« كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو الواحد الذى ليس معه شىء » .

« كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو أقرب إليك من كل شىء » .

« كيف يتصور أن يحجبه شىء ، ولولاه ما كان وجود شىء » .

« شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه ، المستدل به عرف الحق لأهله ، فأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه ، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه ، ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه » .

رحم الله أبا الحسن وجزاه الله ومدرسته خير الجزاء على هذا التوجيه السليم .

الفصل الخامس

أجواء
في القرآن الكريم

يقول الله تعالى فى سورة لقمان :

﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ، وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

إن أسرار القرآن الكريم لايحصرها حاصر ، ولا يحيط بها محيط . وكل إنسان يفهم من أسرار القرآن على قدر استعداده .

وما من شك فى أن المعنى المطلوب وجوبا اتباعه ، أو المطلوب وجوبا تركه ، واضح كل الوضوح ، لا لبس فيه ولا تعقيد .

بيد أن الإشارات الروحية والتوجيهات الإلهية للقلوب والبصائر من خلال القرآن الكريم لا يحيط بها عد ولا يأتى عليها الزمن . ومن هنا كان صادقا مايقوله أحد المفكرين وقد سئل عن خير تفسير للقرآن فقال : الزمن .

هذه الإشارات للقلوب والبصائر تنبع وتفيض وتزداد بنسبة زيادة الإمعان فى تحقيق معنى العبودية لله سبحانه وتعالى :

وهى إشارات لاتحرم حلالا ولاتحل حراماً ، إنها ليست من نوع تأويلات الباطنية ، هذه التأويلات المنحرفة ، والتى يهدمها من أساسها فى سهولة ويسر عمل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقد طبق صلوات الله وسلامه عليه دين الله تطبيقا هو الأسوة التى تحتذى ، والتى إذا خرج الإنسان عن دائرتها ، فى الدين ، فإنه يكون خاطئا ضالا ، لقد أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته البررة الأصفياء الأوامر الإلهية ، والنواهى الإلهية عن دائرة النظريات إلى دائرة العمل ، وتحدد بذلك المعنى المقصود من الأوامر والنواهى تحديداً لا لبس فيه ، وكل تأويل إذن للأوامر والنواهى يخرجها عن أن تكون مطابقة لعمل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعمل الصحابة فإنما هو تأويل باطنى ضال .

أما الإشارات التى نثبتها هنا فإنها إشارات روحية ترشد إلى معارج للروح

تتسامى بازدياد الإنسان فى القرب من الله عن طريق الاستقامة .

ولقد سمينا هذه الإشارات «أجواء» فان لكل ولى جوه الذى لا يتعارض مع جو الأولياء الأخرين ، وإن كان عبيره الزكى قد يختلف عن العبير الزكى الذى يشع من زميله . وما من شك فى أن أريج الزهور المختلفة ، ذوات الروائح الجميلة ، محبب كله ، مرغوب فيه جميعه . ولكن الإنسان قد يميل بطبعه إلى نوع منها ، أكثر من ميله إلى نوع آخر .

ولم يفسر أبو الحسن القرآن تفسيرا كاملا ، ولم يشرح صحيح البخارى أو صحيح مسلم ، ولم يرو مؤرخوه فى تفسير القرآن وفى شرح الحديث أشياء كثيرة .

وقد حاولنا ، بقدر الاستطاعة ، أن نجمع من هنا وهنالك ما تناثر من الدرر التى تتعلق بالقرآن أو بالحديث .

ولم يتيسر لنا — لقلتها — أن ننسقها باقات ، أو أن « نمذهبها » مذاهب ، أو أن نقسمها فصولا ، أو أن نلتزم فيها التحديد الموضوعى المحدد ؛ وسنرسلها دون أن نلتزم فيها أى ترتيب . اللهم إلا ترتيب الذوق .

وهى على كل حال، بوضعها الذى هى عليه، تعطى فى وضوح صورة عن جو أبى الحسن الروحى ، وتبعث فى النفس أسفا شديداً على ما تطرق إلى مثيلاتها من إهمال أو نسيان .

— ١ —

سئل رضى الله عنه عن تفسير بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال : النقض لما انبرم .

— ٢ —

وقال :

إن أردت الصدق فى القول فأكثر من قراءة .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾

وإن أردت الإخلاص فى جميع أحوالك فأكثر من قراءة :

﴿ قُل هُو الله أَحَد ﴾

وإن أردت تيسير الرزق فأكثر من قراءة .

﴿ قُل أَعُوذُ بِرِبِّ الفَلَقِ ﴾

وإن أردت السلامة من الشر فأكثر من قراءة :

﴿ قُل أَعُوذُ بِرِبِّ النَّاسِ ﴾

— ٣ —

إذا كثرت عليك الخواطر والوسواس فقل سبحان الملك الخلاق :

﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبكُمْ وَيأْتِ بِخَلْقٍ جَديد ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعزِيز ﴾

— ٤ —

إذا ورد عليك مزيد من الدنيا أو الآخرة فقل : « حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون » .

— ٥ —

من أجل مواهب الله : الرضا بمواقع القضاء ، والصبر عند نزول البلاء ، والتوكل على الله عند الشدائد ، والرجوع إليه عند النوائب ، فمن خرجت له هذه الأربع من خزائن الأعمال على بساط المجاهدة ومتابعة السنة والاقتداء بالأئمة ، فقد صحت ولايته لله ولرسوله وللمؤمنين .

﴿ وَمَن يَتَوَل الله وَرَسُوله وَالَّذِين آمَنُوا فَإِن حِزب اللهُمُ الغَالِبُونَ ﴾

ومن خرجت له من خزائن المنن على بساط المحبة ، فقد تمت ولاية الله له بقوله :

﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾

ففرق بين الولايتين : فعبد يتولى الله ، وعبد يتولاه الله ، فهما ولايتان : صغرى وكبرى ، فولايتك الله خرجت من المجاهده ، وولايتك لرسوله خرجت من متابعتك لسنته ، وولايتك المؤمنين خرجت من الاقتداء بالأئمة ، فافهم ذلك من قوله :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ[١] ﴾ .

— ٦ —

خصلة واحدة تحبط الأعمال ، ولا يتنبه لها كثير من الناس ، وهى سخط العبد على قضاء الله تعالى . قال تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُم كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾

— ٧ —

إذا ثقل الذكر على لسانك ، وكثر اللغو من مقالك ، وانبسطت الجوارح فى شهواتك ، وانسد باب الفكرة فى مصالحك ، فاعلم أن ذلك من عظيم أوزارك ، أو لكمون إرادة النفاق فى قلبك .

وليس لك طريق إلا التوبة والإصلاح والاعتصام بالله ، والإخلاص فى دين الله تعالى ألم تسمع قوله تعالى :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا ، وَأَصْلَحُوا ، وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ ، وَأَخْلَصُوا دِينَهُم لِلهِ فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ولم يقل من المؤمنين . فتأمل هذا القول إن كنت فقيها والسلام[٢] :

(١) لطائف المنن ص ٣٢ .
(٢) درة الأسرار ص ٥٠ .

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾.

ذكر توبة من لا يذنب لئلا يستوحش من أذنب ، لأنه ذكر النبى صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار ولم يذنبوا ، ثم قال وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، فذكر من لم يذنب ليؤنس من قد أذنب ، فلو قال أولا لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا لتفطرت أكبادهم .

— ٨ —

وقال الشيخ أبو العباس ، رضى الله عنه ، كنت مع الشيخ فى سفر ونحن قاصدون إلى الإسكندرية حين مجيئنا من المغرب فأخذنى ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله ، فأتيت إلى الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه ، فلما أحس بى .

قال : أحمد .

قلت نعم ياسيدى .

قال : « آدم خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه الجنة نصف يوم ــ خمسمائة عام ــ ثم نزل به إلى الأرض ، والله ما نزل الله بآدم إلى الأرض لينقصه ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله . ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ .

وما قال فى الجنة ولا فى السماء ، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة ، فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف ، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف ، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة ، وأنت أيضا لك قسط من آدم ، كانت بدايتك فى سماء الروح فى جنة المعارف فأنزلت إلى

أرض النفس لتعبده بالتكليف ، فلما توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة »(١) .

— ٩ —

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبهم عَن المَضَاجِع ﴾

أتراهم: منع جنوبهم عن مضاجع النوم، وترك قلوبهم مضجعة وساكنة لغيره؟

بل رفع قلوبهم ، ولا يضاجعون بأسرارهم شيئا ! ! فأفهم هذا المعنى :

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبهم ﴾ عن مضاجعة الأغيار ومنازعة الأقدار .

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهم خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ : فالخوف منه قطعهم عن غيره ، وبالشوق إليه أطمعهم فيه .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنفِقُونَ ﴾ ولو وسعني بسط الكلام ههنا لكتبت لك سجلات .

لكن الحق قهر القلوب بقدرته ، وأنعشها بحكمته ، وأغناها بمناجاته عن مخاطبة خلقه ! ! !

من سوء الظن بالله أن يستنصر بغير الله من الخلق . قال تعالى :

﴿ من كَانَ يَظُن أَن لَن يَنْصُره الله فِي الدُّنيَا وَالآخِرَة ، فَلْيَمْدد بِسَبَب إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيقطَعْ فَلينظُر هَل يذهِبَن كَيْدهُ مَا يَغِيظ ﴾ .

— ١١ —

إذا عرض لك عارض يصدك عن الله فأثبت قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِذَا لَقِيتُم فِئَة فَاثبتُوا وَاذْكُرُوا الله كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ .

---

(١) لطائف المنن ص ٥٣ ، ٥٤ .

— ١٢ —

من النفاق : التظاهر بفعل السنة ، والله يعلم منه غير ذلك .

ومن الشرك بالله : اتخاذ الأولياء والشفعاء من دون الله .

قال الله تعالى :

﴿ مَا لَكُمْ مِن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُون ﴾

— ١٣ —

مراكز النفس أربعة : مركز للشهوة فى المخالفات ،

ومركز للشهوة فى الطاعات .

ومركز فى الميل إلى الراحات .

ومركز فى العجز عن أداء المفروضات .

﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُم ، وَخُذُوهُم وَاحْصُرُوهُم وَاقْعُدُوا لَهُم كُلَّ مَرْصَد ، فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُم ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيم ﴾ .

— ١٤ —

من الشهوة الخفية للولى : إرادته النصرة على من ظلمه ، وقال تعالى ، للمعصوم الأكبر :

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ .

أى فإن الله تعالى ، قد لا يشاء إهلاكهم .

— ١٥ —

من أحصن الحصون من وقوع البلاء على المعاصى : الاستغفار .

قال الله تعالى :

﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

— ١٦ —

لو علم نوح عليه السلام ، أن فى أصلاب قومه من يأتى يوحد الله ، عز وجل ، ما دعا عليهم . ولـكان قال : ﴿اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ كما قال رسول الله ، صلى الله عليـــــه وسلم ، فـكل منهما على علم وبينة من الله تعالى .

— ١٧ —

قرأت ليلة قوله تعالى :

﴿وَلاَ تَتَّبِـعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ، إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ .

فنمت ، فرأيت رسول الله ، صلى الله عايه وسلم ، وهو يقول :

﴿أنا مِمَّن يعلَم ، وَلاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ .

— ١٨ —

سمعت الحديث الوارد عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : ﴿إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ فأشكل على معناه ، فرأيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول لى : « يامبارك ذاك غين الأنوار لا غين الأغيار » .

— ١٩ —

سمعت الحديث المروى عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« من سكن خوف الفقر قلبه قل ما يرفع له عمل ، فمكثت سنة أظن أنه لا يرفع لى عمل ، أقول : ومن يسلم من هذا ، فرأيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى المنام وهو يقول لى : يامبارك أهلكت نفسك فرق بين خطر وسكن » .

— ٢٠ —

« اعلم » أيدك الله بنور البصيرة ، وصفاء السريرة ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قيل له : من أولياء الله يارسول الله ؟ قال الذين إذا رُؤُوا ذُكِر الله . فافهم معنى قوله إذا رؤوا . فاعدل عن رؤية الأجسام إلى رؤية المعانى والأفهام عدولا كاملا عن رؤية البصر العامية التى تقع الشركة فيها مع الأنعام التى لا بصيرة لها . واهتد بنور الله المستودع فى القلوب الذى به نظروا واعتبروا ووقفوا وتحققوا ولا تكن مثل أولئك الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ وَتَرَاهُم يَنْظُرُونَ إِلَيكَ وَهُم لاَ يُبْصِرون ﴾ .

هذا صريح فى أطيب الخلق وأبصرهم ، وبه وبنوره وبطيبه طاب كل شىء . وإنه لأمر عجيب فى إيثاره الطيب ، لاتفاق العلماء أن رائحته أطيب من كل طيب .

فافهم وادخل فى ميدان معرفته صلى الله عليه وسلم تسليما .

ومالك لا تقول كما قال :

« والله ما أكل إلا لنا ، ولا شرب إلا لنا ، ولا نكح إلا لنا ، كذلك لا يطيب إلا لنا . فهو إذن أصل كل طيب ، وبهاء كل معدن . وهو معدن المعادن . فاقتبس من نوره ، واغترف من بحره ، واشرب من معرفته ، وتزين بطاعته تكن الأشياء طوع يديك » .

— ٢١ —

العارف من عرف شدائد الزمان فى الألطاف الجارية من الله عليه ، وعرف إساءة نفسه فى إحسان الله إليه :

﴿ فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

— ٢٢ —

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .

فسر سهل ابن عبد الله هذه التقوى من الحول والقوة ، وعدل عما تزين به البطالون من إظاهر التقوى مع دنس باطنه وهذا صحيح فى عبد ظاهر المعاصى والشهوات ويحمل نفسه على أنواع الطاعات ، وقد سد الأفق بالدعاوى ، وأضاف الحول والقوة إلى نفسه : فهذا عبد قد جاوز الحدود ، وأعظم الفرية والعجب ، فلا يقوم خيره بشره ؛ والمحققون ينسبون له(١) الأشياء وينظرون إلى البواعث والثمار ، فإذا فقدت الثمار علموا أن علمه وعمله مدخولان . وإذا فقدت البواعث الصحيحة فى الأصول فلا يعتبرون بأعمالهم . قال الله عز وجل :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾

فيا مدعى التقوى أين المخرج ؟ . فاذا رأيت المخرج (ثمرة لتقواك وذلك) بوعد الله وضمانه (فأنت على الصواب والخير) وإذا لم تجد بتقواك إلا تحيراً فمن الصادق ومن الكاذب ؟ .

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً . وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾

ولا يصح التوكل إلا لمتق .

ولا تتم التقوى إلا لمتوكل .

---

(١) أى : لله سبحانه .

فدققوا النظر فى البواعث والأصول والثمار ، والله يحب الصابرين .

— ٢٣ —

جاء فى الحديث .

من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين .

فإذا كان الحق سبحانه قد رضى لهم أن يشغلهم ذكره عن مسألته فكيف لا يرضى لهم أن يشغلهم ذكره والثناء عليه عن الانتصار لنفوسهم .

ومن عرف الله سد عليه باب الانتصار لنفسه إذ العارف قد اقتضت له معرفته أن لا يشهد فعلا لغير معروفه فكيف ينتصر من الخلق من يرى الله فعالا فيهم ، وكيف يدع أولياءه من نصرته وهم قد ألقوا نفوسهم بين يديه مسلمين ومستسلمين لما يريد منهم حكماً ، فهم فى معاقل عزه تحت سرادقات مجده يصونهم من كل شىء إلا من ذكره ، ويقطعهم عن كل شىء إلا عن حبه ، ويختارهم من كل شىء إلا من وجود قربة ، ألسنتهم بذكره لهجة ، وقلوبهم بأنواره بهجة ، وطن لهم وطنا بين يديه ، فقلوبهم جاثمة فى حضرته ، وأسرارهم محققة بشهود أحديته .

— ٢٤ —

رأيت كأنى فى عليين مع الملائكة المقربين فى نعيم لا أبغى عنه بدلا .

فقالوا سر إلى الزيادة .

فسرت معهم ، فدخلت فى موطن كريم لا أقد على وصفه طامعاً فى الشهود فإذا أنا بشهود لا أقدر على وصفه .

فقيل : من كففت جوارحه عن معصيتى ، وزينته بحفظ أمانتى ، وفتحت قلبه لمشاهدتى ، وأطلقت لسان سره لمناجاتى ، ورفعت الحجاب بينه وبين

صفاتى ، وأشهدته معانى أرواح كلماتى ، فقد زحزحته عن النار وأدخلته جنتى ، وفاز بقربى وصحبته ملائكتى .

﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ .

فهذه جنة معجلة لأهل الإيمان البالغ يقيناً ، وسيدخلونها يوم الجزاء بأبدانهم ذوقا وحساً وعيانا . ثم أناديهم بالعبارة والإشارة واللطف والحقيقة :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾.

— ٢٥ —

الكاملون : حاملون لأوصاف الحق ، وحاملون لأوصاف الخلق . فإن رأيتهم من حيث الخلق رأيت أوصاف البشر .

وإن رأيتهم من حيث الحق رأيت الأوصاف التى زينهم بها .

فظاهرهم الفقر ، وباطنهم الغنى ، تخلقاً بأخلاق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى :

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ .

افتراه أغناه بالمال ؟

كلا ، وقد شد الحجر على بطنه من شدة الجوع ، وأطعم الجيش كله من صاع ، وخرج من مكة على قدميه ليس معه شيء يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه أبط بلال .

— ٢٦ —

من النفاق التظاهر بفعل السنة والله يعلم منه غير ذلك ، ومن الشرك بالله اتخاذ الأولياء والشفعاء دون الله ، قال الله تعالى :

﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ ، أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

— ٢٧ —

العلوم التى وقع الثناء على أهلها وإن جلت : فهى ظلمة فى علوم ذوى التحقيق وهم الذين غرقوا فى تيار بحر الذات ، وغموض الصفات ، فكانوا هناك بلا هم ، وهم الخاصة العليا الذين شاركوا الأنبياء والرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، فى أحوالهم ، فلهم فيها نصيب على قدر إرثهم من مورثهم ، قال النبى صلى الله عليه وسلم :

العلماء ورثة الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام .

أى يقومون مقامهم على سبيل العلم والحكمة لا على سبيل التحقيق بالمقام والحال ، فإن مقامات الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، قد جلت أن يلمح حقائقها غيرهم .

— ٢٨ —

كل وارث فى المنزلة الموروثة لا يكون إلا بقدر مورثه فقط ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ كما فضل بعضهم على بعض كذلك فضل ورثتهم على بعض ، إذ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : أعين للحق وكل عين يشهد منها على قدرها ، وكل ولى له مادة مخصوصة .

— ٢٩ —

لا تختر من الأمر شيئاً واختر أن لا تختار ، وفر من ذلك المختار فرارك من كل شىء إلى الله تعالى :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ ﴾ .

وكل مختارات الشرع وترتيباته فهى مختار الله ، وليس لك منه شىء ، ولا بد لك منه ، واسمع واطع ، وهذا موضع الفقه الربانى والعلم الإلهى ، وهى

أرض لعلم الحقيقة المأخوذة عن الله تعالى ، لمن استوى ، فأفهم !!!

— ٣٠ —

وقال رضى الله عنه :

هممت أن أدعو على ظالم فنوزعت فى ذلك .

فرأيت أستاذى رضى الله عنه يقول لى :

إن الله إن يشأ إهلاك ظالم فلا تستعجل له : فالاستعجال بالهلاك للأعداء وإرادة النصر للأولياء من الشهوة الخفية . ومن أظلم ممن ينازع إرادة مولاه ، وتبع شهوة نفسه وهواه ، وقد أمر المعصوم الأكبر ، ونهى بقوله :

﴿ فاصْبِر كَمَا صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُل وَلاَ تَسْتَعْجِل لَهُم ﴾ .

وبقوله : ﴿ فَاصْبِر إنَّ العَاقِبَة لِلْمُتَّقِين ﴾ .

فالإيمان محو الصفات بالصفات ، والأسماء بالأسماء ، وتفريق الذوات بالذوات : لتحقيق ما هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، فأى شىء كان معه آخراً حتى يكون معه أولا ، وأى شىء كان معه ظاهراً حتى يكون معه باطناً ، فما ثبت من المخلوق فبإثباته ، وما محى فبمشيئته وإرادته ، وخذ ذلك من قوله :

﴿ يَمْحُوا الله مَا يَشاءُ وَيُثبت وَعِنْده أُم الكِتَاب ﴾ .

وهو العلم الأول وعنه صدر كل علم وكتاب .

— ٣١ —

وقال رضى الله عنه :

إن أردت أن تنظر ببصر الإيمان والايقان دائماً فكن لنعم الله شاكراً وبقضائه راضياً .

« وَمَا بِكُم مِن نِعْمَة فَمِنَ الله ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّر فَإِلَيهِ تَجْأَرُون ﴾ .

— ٣٢ —

قرأت سورة الإخلاص والمعوذتين ذات ليلة ، فلما انتهيت إلى قوله :

﴿ مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ .

رأيت بعد ذلك يقال لى :

شر الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك ، وينسيك أفعالك الحسنة ؛ ويكثر عندك ذات الشمال ، ويذكرك أفعالك السيئة ؛ ويقلل عندك ذات اليمين : ليعدل بك عن حسن الظن بالله ورسوله إلى سوء الظن بالله ورسوله .

— ٣٣ —

ألق بنفسك على باب الرضا ، وانخلع عن عزائمك وإرادتك حتى عن توبتك بتوبته .

قال الله تعالى :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِم لِيَتُوبُوا ﴾ .

الفصل السادس

الطريق الصوفي

إن كلمة الإسلام التى وضعت اسما للدين عند الله ، الدين الذى لا يقيده زمن ، ولا يحده مكان : تتضمن فى مفهومها الكريم المعانى الأخلاقية السامية، فإنها تعنى إسلام الوجه لله ، وتتسع لأقصى ما يتطلبه الذاهب الجد فى السير إلى الله . لقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فى حديث صحيح من مرويات الإمام مسلم ـ عن الإسلام فقال صلوات الله وسلامه عليه : «أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك» .

وإسلام القلب لله إسلاماً كلياً على قدر الاستطاعة التى تتناسب مع كل فرد ، والتى تختلف فى الأفراد لاختلاف طبائعهم ، إنما هو هدف الصوفى .

ولقد كان إسلام القلب لله هدف أبى الحسن : هدفه لنفسه ، وهدفه للآخرين وهو حينما وصل فى مجاهداته إلى إسلام قلبه لمولاه حاول ما استطاع أن يصل بأتباعه إلى ذلك : فأخذ يبشر بكل ما يؤدى إل هذا المعنى .

والجو الذى يعيش فيه أبو الحسن إذن إنما هو جو : عبودية ، وهل العبودية إلا إسلام الوجه لله ؟ .

وتوكل : وهل التوكل إلا التعبير عن إسلام الوجه لله ؟

وإخلاص ، وماذا يكون إسلام الوجه لله إن لم يبن على الاخلاص ، وإن لم يثمر الاخلاص ؟ .

ومحبة ، وهل يتأتى إسلام الوجه لله إلا عن المحبة له تعالى ؟ ..

وإسلام الوجه لله يسبقه ويرافقه الذكر والعبادة .

وأخذ أبو الحسن يقود الناس إلى إسلام الوجه لله بالمثال والقدوة ، وبالحديث والشرح .

وبين لهم أنهم إذا أسلموا وجههم إليه كانوا فى كفالته ورعايته ، وكانوا بذلك فى أمن وسلام .

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ، لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

وأراد أبو الحسن أن يسير بكل بحسب استعداده للعروج ؛ وهو يصف القمة وهم أهل الله وخاصته بهذه الكلمات الجميلة .

« أما أهل الله وخاصته ، فهم قوم جذبهم عن الشر وأصوله ، واستعملهم فى الخير وفروعه وحبب إليهم الخلوات ، وفتح لهم سبيل المناجاة ، فتعرف إليهم فعرفوه ، وتحبب إليهم فأحبوه ، وهداهم السبيل إليه فسلكوه ، فهم به وله ، لا يدعهم لغيره ، ولا يحجبون عنه ، بل هم محجوبون به عن غيره ، لا يعرفون سواه ، ولا يحبون إلا إياه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب» اهـ .

وليس كل الناس يستطيع ذلك ، ولا يطمع أبو الحسن أن يصل بهم جميعاً إلى هذا ، ولكن إذا كانت طبيعة الأمور تأبى التسوية فى الطبائع فإنها لا تأبى إشاعة جو من النور والعبودية والإخلاص يقبس منه كل بحسب استعداده .

ويحسن بنا قبل رسم الطريق الصوفى أن نتحدث عن التصوف فى رأى أبى الحسن ، يقول رضى الله عنه :

التصوف تدريب النفس على العبودية ، وردها لأحكام الربوبية .

وهذا التعريف يشبه التعريف الذى ذكره الخلدى المتوفى سنة ٣٤٨ هـ للتصوف وهو :

طرح النفس فى العبودية والخروج من البشرية ، والنظر إلى الحق بالكلية .

ويشبه التعريف الجميـــــل للتصوف الذى ذكره رويم (المتوفى سنة ٣٠٣ هـ) وهو :

استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد .

وهذه التعريفات للتصوف إنما هى تعريفات بالوسيلة ، أى أنها على الخصوص تعريف للطريق الذى يؤدى إلى الغاية ، وليست تعريفاً للغاية .

ومن أجل أنها تعريف للطريق أتى تعريف « الصوفى » فى رأى أبى الحسن متساوقاً لتعريفه للتصوف فهو يقول عنه :

الصوفى فيه أربعة أوصاف :

(أ) التخلق بأخلاق الله عز وجل .

(ب) والمجاورة لأوامر الله .

(جـ) وترك الانتصار للنفس حياء من الله .

(د) وملازمة البساط بصدق البقاء مع الله .

وما من شك فى أن هذه الأحاديث عن التصوف ، وبعبارة أدق عن الطريق الصوفى تتساوق وتتكامل مع ما يتحدث به ابو الحسن عن الصديقين ، وعن قربهم من الحق سبحانه ومشاهداتهم فى الملأ الأعلى وبذلك تكمل الصورة عن التصوف وهى :

١ — تصفية للنفس كوسيلة .

٢ — وقرب ومشاهدة كغاية .

والتصوف يتضمن الوسيلة والغاية ، أو الطريقة والحقيقة .

لنأخذ الآن فى رسم الطريق ، ونحن فى رسمنا هذا إنما نرسم على الخصوص

« جوا » روحيا ، إننا نحاول نشر عبير ، ونحاول نفث أريج نأمل أن يهيىء الله لتنسمه الكثيرين من عباده وأن يهدى له ، ويهدى به .

وسنحاول ـ ما أمكن ـ رسمه بأسلوب أبى الحسن نفسه ونرجو من الله التوفيق .

١ — الإخلاص :

يقول الله تعالى : « ألا لله الدين الخالص » ، وهو سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ومن أجل ذلك لابد من الإخلاص ؛ وهو فى ذروته :

« نور من نور الله استودعه قلب عبده المؤمن فقطعه به عن غيره ، فذلك هو الإخلاص الذى لا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوى فيميله » .

وإلى ذلك الإشارة بقوله ، عز وجل ، فيما يحكى عنه جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى » .

والإخلاص على ضربين : —

(أ) إخلاص الصادقين .

(ب) إخلاص الصديقين .

فاخلاص الصادقين لطالب الأجر والثواب (١) .

وإخلاص الصديقين : وجود الحق مقصوداً به ، لا شىء غيره ، ولا شىء من غيره .

ويتحدث أبو الحسن عن صفات المخلصين فيقول :

---

(١) درة الأسرار ١١٢ : ١١٣ .

رجال جبلهم على حسن عبوديته وأخلصهم لإخلاص توحيد ربوبيته ، واتباع شريعته ، فيما منع أسرارهم بأنوار حضرته . وأمد أرواحهم بمعانى المعارف ، وخصائص عنايته . وأجال عقولهم فى عظمته.وزكى نفوسهم فأحرزها وأخرجها من ظلمة الجهل ، وهداهم بنجوم العلم وشمس معرفته . وأيد عقائدهم ببرهان كتابه وسنته . ومحا عزائمهم بتحقيق غلبة مشيئته . وطوى إرادتهم بتيقن وقفها على إرادته وزينهم بزينة الزهد ، وحلية التوكل ، وشرف الورع، ونور العلم ، وضياء المعرفة،وألهمهم لفضله وطوله . وتولاهم فأغناهم به عن غيره .

وجعل منهم مفاتيح لقلوب الورى ، وينابيع الحكمة الكبرى يتلقونها شرعا ويلقونها لأهلها سراً وجهراً . ومنهم من سترته الأقدار ، وحجبته عن الأغيار : لينفرد بالتمكن فى حقيقة الأسرار . تعرف كلا بسيماهم ، باطنهم مع الحق وظاهرهم مع الخلق . فهم هم ، ولا هم هم فى الوجود ، بوصف الغناء ظاهرين . صفوا وافترقوا فى سيرهم سننا ظاهرهم الفقر وباطنهم الغنى . يتخلقون بأخلاق نبيهم صلى الله عليه وسلم كما قال العلى الأعلى .

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ .

أفتراه أغناه بالمال ؟ كلا وقد شد الحجر على فؤاده . وأطعم الجيش من صاع ، وخرج من مكة على قدميه صلى الله عليه وسلم ، وركب فوق البراق وعرج به إلى السماء العلى إلى سدرة المنتهى ، ورأى ما رأى ما كذب الفؤاد ما رأى .

فانظر إلى حال الغنى فى الوصفين . واشهد شرف أوصافه فى الحالين . فإن قلت بشر ؟ قلت نعم لا كالبشر ، كما تقول فى الياقوت حجر لا كالحجر .

وفى العباد نبى ورسول يدعو بالحق إلى الحق . فأعطى الأولياء منه ميراثا

من النبيئين بين الخلق . إذ هم قوم أخذوا فى التأسى بجد وإتيان . واعتقدوا قول : كان الله ولا شىء معه ، وهو الآن على ما هو عليه كان، وأقاموا فى مقام التوحيد ، على قدم التجريد من حظوظ النفس وملاحظة الحظوظ ، واقتداء بالسلف رضى الله عنهم .

هذا قصد القوم ، وأصل فى الاخلاص والتخصيص فيما لو نظرت إلى حقيقة ذلهم وافتقارهم الذى هو عين العز والغنى بمولاهم ، اشتد تحقيق حالهم إلا على ولى فى نهايته ، أو صديق ولو فى بدايته : لأن غايات الأولياء بداية الصديقين .

نخذ السر جهراً إليك ، واحبس عليه بكلتا يديك . ولا تكترث بحسادك فقد قال لنبيه عليه السلام :

« قُل أعوذُ بربِّ الفلق » . حتى قال له : « ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسدَ » .

ولا تسألنى أن أقطعه عليك فكأنه عز وجل يقول له :سلنى أن أكفيك شر حسادك ولا تسألنى أن أقطعهم عنك : فان الحساد مع النعم . ولا بد من نعمة عليك فتأس يا مسكين إن أردت الشفاء . فلعله أن يقع بكشف خطاب ولا تطمع أن يقع مع الحجاب .

٢ — التوبة :

وأول ما يبدأ به المريد السالك إلى الله الذى يريد إسلام وجهه إليه إنما هو التوبة وتبدأ التوبة بالاستغفار وحقيقة الاستغفار أن لا يكون لك مع غير الله قرار ، وهو بهذا الوضع أمان للمستغفر من عذاب الله ، قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُم وهُم يَسْتَغفِرُونَ ﴾ .

٣ — النية :

ولابد فى كل عمل يأتيه الإنسان بل كل أمر يتركه من النية ، ومن

الإخلاص فى النية وذلك لكى يترتب الأجر والثواب من الله على العمل ويقول صلى الله عليه وسلم :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

والنية ، والقصد ، والعزم ، والإرادة ، والمشيئة ، كل ذلك بمعنى واحد ، أو يجب أن يكون بمعنى واحد .

وحقيقة النية عدم غير المنوى عند الدخول فيه ، وكمالها استصحاب ذلك على الكمال ، ووقت النية عند افتتاح العمل ، وكيفيتها ارتباط القلب مع الجوارح .

يقول صلى الله عليه وسلم :

« من صلحت نيته صلح عمله » .

فحسن النية فيما بينك وبين الله بتوجيه القلب بالتعظيم لله ، والتعظيم لأمر الله والتعظيم لما به أمر .

وفيما بينك وبين العباد توجيه النفوس بالنصيحة لهم ، والقيام بالحقوق ، وترك الحظوظ ونبذ العوارض مع الصبر لله والتوكل على الله(١) .

ومهما يكن من شىء فإنه بمقدار الإخلاص فى النية يكون الثواب ويكون الترقى .

٤ — الطريق القصد إلى الله تعالى :

والطريق القصد إلى الله تعالى أربعة أشياء ، من حازها فهو من الصديقين

---

(١) درة الأسرار ص ١٥٤ .

المحققين ، ومن حاز منها ثلاثا فهو من الأولياء المقربين ، ومن حاز منها اثنتين فهو من الشهداء الموقنين ، ومن حاز منها واحدة فهو من عباد الله الصالحين .

أولها : الذكر وبساطه العمل الصالح ، وثمرته النور .

وثانيها : التفكير ، وبساطه الصبر ، وثمرته العلم .

وثالثها : الفقر (١) ، وبساطه الشكر وثمرته المزيد منه .

ورابعها : الحب ، وبساطه بغض الدنيا وأهلها (٢) ، وثمرته الوصل بالمحبوب.

٥ — الخلوة :

وأخذا في هذا الطريق القصد إلى الله ، وتدعيما للتوبة ، وتثبيتا للإخلاص ، يحسن أن يخلو الإنسان وربه فترة من الزمن هي فترة العزلة ، أو فترة الخلوة ، أو فترة الكهف ، أو فترة الغار : يلازم فيها : «الذكر والمراقبة والتوبة والاستغفار» .

ومهما خالط سره شيء من ذنب أو عيب ، أو نظر إلى عمل صالح أو حال جميل : فيجب عليه المبادرة إلى التوبة والاستغفار من الجميع : أما من الذنب فواجب شرعا ، وأما من غيره فاعتبارا باستغفار النبي صلى الله عليه وسلم تسليما بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، هذا من معصوم لم يقترف ذنبا قط فما ظنك بمن لا يخلو من ذنب أو عيب في وقت من الأوقات .

أما ثمرة العزلة فهي الظفر بمواهب المنة وهي أربعة : كشف الغطاء ، وتنزل الرحمة وتحقق المحبة ، ولسان الصدق في الكلمة ؛ قال الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ ، وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ، وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾

---

(١) الفقر مما سوى الله إلى الله .

(٢) بغض الدنيا على أنها شهوات ، وبغض أهل الدنيا اللاهين العابثين .

٦ — الجهاد :

ولا بد للمريد من الجهاد:

لابد له من جهاد العدو ، ومن أراد أن لا يكون للشيطان عليه سبيل فليصحح الإيمان والتوكل ، والعبودية لله ، وليستعذ به سبحانه ، قال تعالى :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ .

وقال تعالى :

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

ولعلك تسأل عن كيفية تصحيح الإيمان فاعلم أنه :

بالشكر على النعماء ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء .

أما صحة التوكل فإنها :

بهجران النفس(١) ، ونسيان الخلق(٢) : والتعلق بالملك الحق ، وملازمة الذكر ، وإذا عارضك عارض يصدك عن الله فاثبت ، قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

أما تصحيح العبودية فإنه بوضوح الفكرة عن حقيقة الصفات الإنسانية ،

---

(١) أى النزغات السيئة .

(٢) ونسيان الخلق باعتبارهم مؤثرين فإن المؤثر الوحيد هو الله .

وحقيقتها أنها فقر بالنسبة إلى الله تعالى ، وعجز بالنسبة إلى قوته ، وذل فى مقابلة عزه سبحانه .

ومهما يكن من شىء فإن مخازى الشيطان أربعة :

١ ـ إما أن تجلس متفكراً فيما يقربك إلى الله فتأتيه .

٢ ـ أو مفكراً فيما يبعدك عنه فتجتنبه .

٣ ـ وإما أن تجلس متفكراً فيماسبق من حسن عملك فتشكر وتستغفر .

٤ ـ وإما أن تجلس متفكراً فيما سبق من ذنوبك فتستغفر وتشكر .

٧ ـ النفس :

والحديث عن الشيطان يستتبع الحديث عن «النفس» ومركز النفس أربعة :

١ ـ مركز للشهوة فى المخالفات .

٢ ـ ومركز للشهوة فى الطاعات .

٣ ـ ومركز فى الميل إلى الراحات .

٤ ـ ومركز فى العجز عن أداء المفروضات ؛ ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ .

وإذا أردت جهاد النفس فاحكم عليها بالعلم فى كل حركة[١] واضربها بالخوف عند كل خطرة واسجنها فى قبضة الله أينما كنت ، واشك عجزك إلى الله كلما غفلت : فهى التى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها . فإن سخرت لكم فى قضية فجدير أن تذكروا نعمة الله عليكم وتقولوا :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ .

ومهما يكن من شىء فإن موت النفس يكون بالعلم والمعرفة والاقتداء

(١) أى جعل حركاتها تابعة للعلم بما يجب عمله أو يجب تركه .

بالـكتاب والسنة ، وعلاج من انقطع عن المعاملات ولم يتحقق بحقائق المشاهدات أربعة :

طرح النفس على الله طرحا لا يصحبه الحول والقوة ، والتسليم لأمر الله تسليما لا يصحبه الاختيار مع الله .

هذان علاجان باطنان .

وذم الجوارح عن المخالفات ، والقيام بحقوق الواجبات .

وهذان علاجان ظاهران .

ثم يقعد على بساط الذكر بالانقطاع إلى الله عن كل شيء سواه لقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا ﴾ .

٨ ـ الدنيا :

وحينما يذكر الشيطان ، وتذكر النفس : فإنه تذكر الدنيا .

والدنيا التى لاحساب عليها فى الآجل ، ولا حجاب معها فى العاجل هى التى لا إرادة لصاحبها فيها قبل وجودها ، ولا معها لها مع وجودها . ولا أسف عليها عند فقدها .

والحر الكريم من يأخذها

لا أثر للأغيار على قلبه ، هذا مايقوله الشاذلى عن الدنيا ، وكل ماتريده الصوفية إنما هو الابتعاد عن أن يكون الإنسان عبداً للدنيا ، ولا مانع عندهم أن يكون الإنسان من أصحاب الملايين إذا لم يكن قلبه متعلقا بالدنيا فى إقبال أو إدبار ، وبجهتهم تحقق الآية القرآنية الكريمة :

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ .

ومع إننا تحدثنا عن « الدنيا » فى نظر الصوفية فإننا نريد أن نزيد الأمر وضوحا ، وذلك لأنه يلتبس دائما الأمر فى موضوعها عند الصوفية على كثيرين :

إن الدنيا الممقوتة عند الصوفية إنما هى الدنيا التى تشغل وتلهى وتستعبد ، إنها الشهوات والنزغات والأهواء ، إنها اللعب واللهو والغفلة عن الله.

أما امتلاك المال ، واقتناء العقار ، والثراء عريضا أو غير عريض ، فلامانع منه عند الصوفية إذا خلا من المضار : يقول أبو الحسن ضارعاً إلى الله داعياً :

اللهم وسع أرزاقنا ، وكثر أضيافنا ، واجعلنا من المتقين فى سبيل مرضاتك قصداً بلا إسراف ولا تقتير ، ووفقنا لذلك ، واهدنا بهدايتك ، وأخلصنا بإخلاصك عن إخلاصنا وقنا من الشح والبخل والمن ، ومن التهمة فى الرزق(١) .

وقال رضى الله عنه :

اعرف الله ثم استرزقه من حيث شئت غير مكب على حرام ، ولا راغب فى حلال .

ومن الدعاء الجميل لأبى الحسن ، الدعاء الذى يستنتج منه الإنسان الرأى الحقيقى للصوفية فيما يتعلق بالدنيا ، قوله :

يا الله ، يا ولى ، يا نصير ، يا غنى يا حميد ، أعوذ بك من دنيا لايكون فيها نصيب لوجهك ومن عمل آخرة يكون فيها حظ لغيرك .

وأعوذ بك من كل حركة تعرى من الاقتداء بسنة رسولك ، ومن كل ضرورة لا تؤدى إلى حقيقة معرفتك .

واعكف قلبى فى حضرتك ، واغننى عن رعايتى برعايتك ، إنك على كل شىء قدير(٢) .

---

(١) درة الأسرار ص ١٦٣ . (٢) درة الأسرار ص ١١١ .

٩ ـ العبودية :

وإذا أكرم الله عبداً فى حركاته وسكناته نصب له العبودية لله ، وستر عنه حظوظ نفسه ، وجعله يتقلب فى عبوديته ، والحظوظ عنه مستورة مع جريان ماقدر له منها ، ولا يلتفت إليها كأنه فى معزل مشغول عنها .

وإذا أهان الله عبداً فى حركاته وسكناته نصب له حظوظ نفسه ، وستر عنه عبوديته فهو يتقلب فى شهواته ، وعبوديته لله عنه بمعزل ، وإن كان يجرى منها شىء فى الظاهر .

والعبودية هى امتثال الأمر واجتناب النهى ، ورفض الشهوات والمشيئات : فمن وصل بتطهير قلبه عن الشيطان والنفس والدنيا وبكثرة الذكر إلى العبودية فقد ظفر بخير عميم .

١٠ ـ الطاعات :

والعبد الذى أكرمه الله بالعبودية يؤدى كل طاعة فى وقتها ذلك أن : لكل وقت سهم فى العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية ، فلاتؤخر طاعة وقت لوقت فتعاقب بفوتها أو بفوت غيرها .

وفائدة الطاعات والمحافظة عليها لا تنكر ولقد قيل لأبى الحسن مرة :

ما الذى استفدت من طاعتى ، وما الذى استفدت من معصيتى . فقال :

استفدت من الطاعة العلم الزائد والنور النافذ والمحبة .

واستفدت من المعصية : الغم والحزن والخوف والرجاء .

وعليك أيها الأخ بالمطهرات الخمس فى الأقوال ، والمطهرات الخمس فى الأفعال ، والتبرى من الحول والقوة فى جميع الأحوال ، وغص بعقلك إلى

المعانى القائمة بالقلب ، واخرج عنها وعنه إلى الرب ، واحفظ الله يحفظك ، واحفظ الله تجده أمامك ، واعبد الله بها وكن من الشاكرين .

والمطهرات الخمس فى الأقوال :

سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .

والمطهرات الخمس فى الأفعال هى الصلوات الخمس .

والتبرى من الحول والقوة هو قولك : لاحول ولاقوة إلا بالله، وإيمانك بها.

١١ — درجات ودرجات :

ومن علم اليقين بالله ، وبمالك عند الله أن تتعاطى بين الخلق ما لاتصغر به عند الحق وإن صغرت به فى أعين الخلق بلا اعتراض من الشرع ولا منازعة من الطبع ؛ بل من عين اليقين نسيان الخلق عند هجوم الشدايد وتتابع الفوايد بسواطع الشواهد .

بل من حق اليقين الغرق فى الشىء كأنك نفس الشىء كمن اضطر إلى رؤية البحر فركبه وانكسرت سفينته فتلاطمت عليه أمواجه فمنهم بعد من يفنى ، ويذهب مع الذاهبين وينقل إلى درجات عليين .

ومنهم من يحيا ويبقى مع الباقين ، لاحظ المقتدى فيه بل هو مستور عن الخلق أجمعين .

ومنهم من يحيا ويبقى مع الباقين ، لاحظ للمقتدى فيه بل هو فى الوصفين ، قدوة للثقلين .

ومنهم الإمام الأكبر الفرد القطب الغوث الجامع المختص بالأسماء والصفات والأنوار والأخلاق ، وما لايسع أن يسمعه سامع .

ومن دونهم ممن لادرجة له مع الأولياء والأتقياء والعباد والزهاد ومن أهل النظر بالدليل والبرهان ، ولم يطلع بعد على الكشف والعيان .

ومن دونهم أهل الوسائل بالأعمال والأحوال ، وأهل التخليط فى الأقوال والأفعال .

﴿ وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُكرِمٍ ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

١٢ — الذكر :

وعلى المريد السالك الأخذ فى الذكر :

«وعليك أيها الأخ بالذكر الموجب للأمن من عذاب الله فى الدنيا والآخرة وتمسك به وداوم عليه» . وينصح أبو الحسن بالإكثار من صيغة من الذكر وهى :

الحمد لله ، واستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ويقول رضى الله عنه : اجمع بين هذه الأذكار الثلاثة فى عموم الأوقات وداوم عليها تجد بركتها إن شاء الله .

فإذا ما فرغ الإنسان لسانه للذكر ، وقلبه للشكر ، وبدنه لمتابعة الأمر فهو من الصالحين .

ويرى الصوفية أنهم مهما أشادوا بالذكر ، وتحدثوا عن فوائده ومزاياه فإنهم لا يوفونه حقه إنهم يرون أنه ـ بعد التوبة والإخلاص ـ الباب إلى الترقى فى الدرجات وقطع المنازل وطى المسافات إلى المعارج والقربات وإلى الفتح والالهامات :

يقول الإمام القشيرى :

الذكر ركن قوى فى طريق الوصول إلى الحق سبحانه وتعالى .

بل هو العمدة فى طريق القوم .

ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر .

ومن أجل ذلك كان اهتمام أبى الحسن بالذكر كبيراً ، وكان ما روى عنه فى ذلك كثيراً .

ولقد حاولنا ـ فى الحدود المحدودة بالنسبة لحجم هذا الكتاب ـ أن نذكر ، فى الفصل الذى عقدناه عن الذكر ، إشراقات مختارة من ذلك لعل الله ينفع بها .

١٣ — الورع :

فإذا ما كان الذكر كانت الأحوال وكانت المقامات ؛ فمن ذلك الورع :

والورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه .

فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله ، والقول بالله ، والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة .

فهم فى عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ، ولا ينطقون ، ولا يبطشون ، ولا يمشون ولا يتحركون إلا بالله ولله من حيث يعلمون ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فهم مجموعون فى عين الجمع لا يتفرقون فيما هو أعلا ، ولا فيما هو أدنى ، وأما أدنى الأدنى فالله يورعهم عنه ثواباً لورعهم مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم ، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى ، وميراثه التعزز لخلقه والاستكبار على مثله ، والدلاله على الله بعلمه ، فهذا هو الخسران المبين والعياذ بالله العظيم من ذلك .

والأكياس يتورعون عن هذا الورع ويستعيذون بالله منه ، ومن لم يزدد بعلمه وعمله افتقارا لربه وتواضعا لخلقه فهو هالك ، فسبحان من قطع كثيراً من

الصالحين بصلاحهم عن مصلحتهم كما قطع كثيراً من المفسدين بفسادهم عن موجدهم ، فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم (١) .

١٤ — الزهد :

ومن ذلك الزهد :

وحيقية الزهد فراغ القلب مما سوى الرب تبارك وتعالى .

١٥ — التوكل :

ومن ذلك التوكل :

والتوكل : صرف القلب عن كل شيء سوى الله ؛ وحقيقته : نسيان كل شيء سواه ؛ وسره وجود الحق دون كل شيء تلقاه ؛ وسر سره : ملك وتمليك لما يحبه ويرضاه (٢).

ولا يصح التوكل إلا لمتق .

ولا تتم التقوى إلا لمتوكل (٣) .

١٦— الرضا :

ومن ذلك الرضا :

الرضا عن الله ، وعن قضاء الله ، لا عن النفس ، يقول أبو الحسن :

ألق بنفسك على باب الرضا ، وانخلع عن عزائمك وإرادتك .

---

(١) يعلق ابن عطاء الله على ذلك فيقول : فانظر فهمك الله سبيل أوليائه ، ومن عليك بمتابعة أحبائه ، هذا الورع الذى ذكر الشيخ رضى الله عنه ، هل كان فهمك يصل إلى مثل هذا النوع من الورع ألا ترى قوله ، فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة الواضحة ، والبصيرة الفائقة ، فهذا هو ورع الابدال والصديقين لا ورع المتنطعين الذى ينشأ عنه سوء الظن وغلبة الوهم .

(٢) درة الأسرار ص ٤٨ .

(٣) درة الأسرار ص ٥٨ .

١٧ — المحبة :

والذى نختم به الطريق إنما هو المحبة .

والمحبة والرضا والزهد والتوكل هى بساط الكرامة عند أبى الحسن ، يقول رضى الله عنه :

بساط الكرامة أربع :

١ ـ حب يشغلك عن حب غيره .

٢ ـ ورضا يتصل به حبك بحبه .

٣ ـ وزهد يحققك بزهد فى بريته .

٤ ـ وتوكل عليه يكشف لك عن حقيقة قدرته .

ولأبى الحسن كلام جميل عن المحبة ولا يتأتى أن يخلو كتاب عنه من ذكرها .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه :

من أحب الله ، وأحب لله فقد تمت ولايته بالحب .

والمحب على الحقيقة من لاسلطان على قلبه لغير محبوبه ، ولا مشيئة له غير مشيئته فإذن من ثبتت ولايته من الله لا يكره الموت ويعلم ذلك من قوله تعالى :

« قُل يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » .

فإذن الولى على الحقيقة لا يكره الموت إن عرض عليه .

وقد أحب الله من لا محبوب له سواه ، وأحب له من لا يحب شيئاً لهواه ، وأحب لقاءه من ذاق أنس مولاه .

ويتمحض لك الحب له فى عشرة فاعتبرها فيما وراءها : فى الرسول

صلى الله عليه وسلم ، والصديق ، والفاروق ، والصحابة ، والتابعين ، والأولياء ، والعلماء الهداة إلى الله تعالى ، والشهداء والصالحين ، والمؤمنين .

فإذن افترق الأمر بعد الإيمان إلى عشرة أشياء : إلى السنة ، والبدعة ، والهداية ، والضلالة ، والطاعة ، والمعصية ، والعدل والجور ، والحق والباطل ؛ فإذا ميزت وأحببت ، وأبغضت فأحب له ، وأبغض له ، ولست تبالى بأيهما كنت ، وقد يجتمع لك الوصفان فى شخص واحد ويجب عليك القيام بحقهما جميعا فإذن قد بان لك الحب فى العشرة الأول فأنظر هل ترى للهوى هناك أثراً فكذلك فاعتبر حب من حضر من إخوانك الصادقين،والمشايخ الصالحين ، والعلماء المهتدين وسائر من حضر ، ومن لم يحضر ممن غاب عنك أو مات فان وجدت قلبك لا متعلق له بمن حضر كالا متعلق له بمن غاب عنك أو مات فقد خلص الحب من الهوى وثبت الحب لله ، وإن وجدت شيئا يتعلق به فيمن تحب ، أو فيما تحب فارجع إلى العلم واتقن النظر فى الأقسام الخمسة من الواجب والمندوب إليه ، والمكروه ، والمحظور ، والمباح (١) .

---

(١) ويقول ابن عطاء الله معلقا على ذلك :

واعلم أن قول الشيخ من ثبتت ولايته لا يكره الموت ، هذا ميزان أعطاه للمريدين ليزنوا به على نفوسهم إذا ادعى فيهم أو ادعوا ولاية الله : فان من شأن النفوس وجود الدعوى والتوثب إلى المراتب العالية من غير أن يسلك السبيل الموصلة إليها ، ولهذا قال الله سبحانه : قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، وقال هنا : فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم ، لحارثة : لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ، لما قال لحارثة كيف أصبحت ، فقال أصبحت مؤمنا حقا ، ولا يحب الموت من فيه البقايا ، ولا من هو مصر على شيء من الخطايا ، وجعل الله تمنى الموت شاهدا للولى بولايته ، وعدم تمنيه شاهدا للغوى بغوايته ، وقال سبحانه : وأقيموا الوزن بالقسط ، والموت ميزان على الأفعال والأحوال كما هو ميزان فى دائرة الرتب ، أما الرتب فكما تقدم ، وأما الأفعال والأحوال فإذا التبس عليك أمر أنت فيه لا تدرى هل رضا الله فى تركه أو فعله ، أو حالة أنت بها لا تدرى هل قمت فيها بحق أو قمت فيها بهوى ، فأورد الموت على ما أنت فيه من أفعال وأحوال ، فكل حالة وعمل يثبت مع تقدير ورود الموت عليها ولم تنهزم فهى حق ، وكل حالة وعمل هزمها

وقال الشيخ رضى الله عنه :

المحبة آخذة من الله لقلب عبده عن كل شيء سواه ، فترى النفس مائلة لطاعته والعقل متحصنا بمعرفته ، والروح مأخوذة فى حضرته ، والسر مغموراً فى مشاهدته . والعبد يستزيد فيزاد ، ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته ، فيكسى حلل التقريب على بساط القربة ، ويمس أبكار الحقائق وثيبات العلوم ، فمن أجل ذلك قالوا :

أولياء الله عرائس ، ولا يرى العرائس المجرمون .

قال له القائل: قدعلمت الحب.

فما شراب الحب ؟

وما كأس الحب ؟

ومن الساقى ؟

وما الذوق ؟

وما الشراب ؟

وما الرى ؟

وما السكر ؟

وما الصحو ؟

قال : الشراب هو النور الساطع عن جمال المحبوب .

= الموت فهى باطل : إذ الموت حق ، والحق يهزم الباطل ويدمغه لقول الله عز وجل : بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب ، وقل جاءالحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، وما كنت فيه قائما بحق لم يهزمه الموت إذ هو حق والموت حق والحق لا يهزم الحق .

والكأس هو اللطف الموصل ذلك إلى أفواه القلوب .

والساقى هو المتولى الأكبر المخصوصين من أوليائه والصالحين من عباده، وهو الله العالم بالمقادير ومصالح أحبائه .

فمن كشف له عن ذلك الجمال وحظى منه بشىء نفسا أو نفسين ، ثم أرخى عليه الحجاب ، فهو الذائق المشتاق .

ومن دام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو الشارب حقا .

ومن توالى عليه الأمر ودام له الشرب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله المخزونة فذلك هو الرى .

وربما غاب عن المحسوس والمعقول فلا يدرى ما يقال ولا ما يقول فذلك هو السكر .

وقد تدور عليهم الكئوس وتختلف لديهم الحالات فيردون إلى الذكر والطاعات ولا يحجبون عن الصفات مع تزاحم المقدورات ، فذلك وقت صحوهم واتساع نظرهم ومزيد علمهم .

فهم بنجوم العلم وقمر التوحيد يهتدون فى ليلهم .

وبشموس المعارف يستضيئون فى نهارهم .

أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون .

هذه المقامات من : ورع ، وزهد ، وتوكل ، ورضا ، ومحبة ، وغيرها إنما هى ثمرة « الذكر » المؤسس على الإخلاص والتوبة والعبودية والاستقامة ؛ ولن يترقى المريد إلا بالركن الأساسى فى طريق القوم وهو الذكر .

الفصل السابع

معارج ومراقي

وينتج الذكر المعارج والمرائى ، وهى نتائج الطريق الصوفى والسلوك إلى الله ، من أمثلتها عند أبى الحسن :

— ١ —

رأيت كأننى مع النبيين والصديقين فأردت السكون معهم ثم قلت :

اللهم اسلك بى سبيلهم مع العافية مما ابتليتهم فإنهم أقوى ونحن أضعف منهم .

فقيل لى : وما قدرت من شىء فأيدنا كما أيدتهم .

— ٢ —

رأيت كأنى فى المحل الأعلى فقلت :

إلهى أى الأحوال أحب إليك ؟ وأى الأقوال أصدق لديك ؟ ، وأى الأعمال أدل على محبتك ؟ ، فوفقنى واهدنى .

فقيل لى :

أحب الأحوال إليه الرضا بالمشاهدة ، وأصدق الأقوال لديه قول : لا إله إلا الله على النظافة ، وأدل الأعمال على محبته بغض الدنيا واليأس من أهلها (١) مع الموافقة .

— ٣ —

رأيت كأنى واقف بين يدى ربى فقال :

لا تأمن مكرى فى شىء وإن أمنتك ، فإن علمى لا يحيط به محيط .

— ٤ —

رأيت كأنى أطوف بالكعبة طالبا من نفسى الإخلاص وأنا أفتش عليه فى سرى فإذا النداء على :

---

(١) بغض الشهوات والأهواء والنزغات فذلك هو الدنيا وبغض أهل الشهوات والأهواء والنزغات .

كم تدندن مع من يدندن وأنا السميع القريب العليم الخبير ، وتعريفى يغنيك عن علم الأولين والآخرين ، ما خلا علم الرسول وعلم النبيين .

— ٥ —

قلت على مصيبة نزلت:

(إنا لله وإنا إليه راجعون) .

اللهم أجرنى فى مصيبتى واعقبنى خيراً منها . فألقى فى سرى أن أقول :

فاغفر لى بسببها ، وما كان من توابعها ، وما اتصل بها ، وما هو محشو بها. وكل شيء كان قبلها ، وما يكون بعدها .

فقلتها ، فهانت على ، فلو أن الدنيا كلها كانت لى فى ذلك وأصبت فيها لهانت على ، ولكان ما وجدت من برد الرضا والتسليم أحب إلى من ذلك كله.

— ٦ —

وكتب رضى الله عنه إلى الشيخ أبى يحيي .

أما بعد فإنى منذ اثنتى عشرة سنة أغدو وأروح فيما هيأ لى من سفر الروح على عساكر أولياء الله فما مررت بك إلا وجدتك روحا طيبة تعقلها العقول وتألفها النفوس ويستريح بها السر ويذعن لها الأمر ويجتمع إليها كل مفترق . . .

— ٧ —

قرأت ليلة فى وردى قوله تعالى :

« كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذى الجلال والإكرام » .

فرأيت أبا بكر الصديق رضى الله عنه فى المنام ، فقال لى : صل من يبقى واهجر من يفني : تجل وتكرم ، تجل عن الفناء ، وتكرم بالبقاء .

— ٨ —

كان لي صاحب وكان كثيراً ما يأتيني بالتوحيد : فرأيت فى النوم كأنى أقول له :

يا عبد الله ، إن أردت التى لا لوم فيها : فليكن الفرق على لسانك موجوداً والجمع فى سرك مشهودا .

— ٩ —

رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لى :

قل لفلان بن فلان يقرأ هذه الكلمات، فمن قالهن تنصب عليه الرحمة كالمطر:

الحمد لله الذى بدىء منه الحمد وإليه يعود كل شيء كذلك ، لا إله إلا الله، اللهم اغفر لى شركى(١) وكفرى(٢) وتقصيرى ، واغفر للمؤمنين والمؤمنات .

— ١٠ —

استأذننى بعض الفقراء فى الحضور والسماع ، فهممت بذلك،فرأيت أستاذى رضى الله عنه ، وفى يده اليمنى كتاب فيه القرآن العظيم،وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى يده اليسرى أوراق فيها رجز وهو يقول لى كالمنتهر :

تعدلون عن العلوم الزكية إلى علوم ذوى الأهواء الردية ، فمن أكثر من هذا فهو عبد مرقوق هواه ، وأسير لشهواته ومناه . يستفزون بها قلوب ذوى الغفلة والنسيان ، وأهل الضلالة والعميان ، ولا إرادة لهم فى عمل الخير واكتساب الغفران ، يتمايلون عند سماعها تمايل الصبيان .

لئن لم ينته الظالم ليقلبن الله أرضه سماء وسماءه أرضا .

قال : فأخذنى منه حال بوجد وأنا أقول له :

---

(١) يطلق الشرك على الإشراك بالله الذى يخرج الشخص عن دائرة الإسلام ويطلق على الظلم بألوانه : الكبير منها والصغير .

(٢) يطلق الكفر على نكران الجميل وعلى ألوان من المعاصى لا تصل إلى درجة إخراج الإنسان عن الإسلام .

نعم يأستاذى ، إلا أن النفس أرضية والروح سماوية .

فقال لى :

نعم ياعلى ، إذا كانت الروح بأمطار العلوم دارة ، والنفس بالأعمال الصالحة ثابتة فقد حصل الخير كله . وإذا كانت النفس غالبة والروح مغلوبة ، فقد حصل القحط والجدب ، وانقلب الأمر وجاء الشر كله :

فعليك بكتاب الله الهادى ، وبكلام رسوله الشافى ، فلن تزال بخير ما آثرتهما ، وقد أصاب الشر من عدل عنهما . وأهل الحق إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وإذا سمعوا الحق أقبلوا عليه :

﴿ وَمَن يَقْتَرِف حَسَنَةً نَزِد لَهُ فِيهَا حسنا ﴾

— ١١ —

وقال رضى الله عنه :

خطر ببالى يوماً أنى لست بشىء ، ولا عندى من المقامات والأحوال شىء . فغمست فى بيت مسك ، فكنت فيه غريقاً ، فلدوام غرقتى فيه لم أجد له تلك الرائحة فقيل لى : علامة المزيد فقدان المزيد لعظيم المزيد .

— ١٢ —

وقال رضى الله عنه : قيل لى إن أردت رضائى فمن اسمى ومنى لا من اسمك ومنك .

قلت : وكيف ذلك ؟ .

قال : سبقت أسمائى عطائى ، وأسمائى من صفاتى ، وصفاتى قائمة بذاتى ، ولا تحق ذاتي .

وللعبد أسماء دنية ، وأسماء علية ، فأسماؤه العلية قد وصفه الله بها بقوله :
« التائبون العابدون الحامدون » (١) . إلى آخرها .
وبقوله : « إن المسلمين والمسلمات » إلى آخرها (٢) .

وأسماؤه الدنية معروفة كالعاصى والمذنب والفاسق والظالم وغير ذلك ، فكما تمحق أسماؤك الدنية بأسمائك العلية كذلك تمحق أسماؤك بأسمائه وصفاتك بصفاته ، لأن الحادث إذا اقترن بالقديم فلا بقاء له ، إذا ناديته باسمه كقولك ياغفور يا تواب يا قريب يا وهاب ، فاستدعيت بها العطاء لنفسك وقد تنزلت لنفسك من أسمائه وكذلك إذا لاحظت أسماءك الدنية من المعاصى والظلم والفسق فاشتغلت بسترها ومغفرتها فأنت باق مع نفسك .

وإذا ناديته باسمه العلى ولاحظت صفته العلية قائمة بذاته محقت أسماؤك كلها وانعدم وجودك فصرت محوا لا وجود لك البتة . فذلك محل الفناء والبقاء بعد الفناء .

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

— ١٣ —

وقال رضى الله عنه : كنت ذات ليلة متفكراً بالفكرة الغيبية . . . فأفادنى الله علماً جليلا ، وسعيت فى الغيوب سعياً جميلا ، فقلت فى نفسى :

أليس هذا خيراً من الدخول فى الحوائج للخلق مع الخالق ، والسكون مع الله أتم من السكون فى الحاجات للناس وإن كان مأذونا فيها شرعاً ؟ .

---

(١) التائبون ، العابدون، الحامدون ، السائحون، الراكعون ، الساجدون، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين .

(٢) إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما .

فبينما أنا كذلك إذ نمت ، فرأيت كأن السيل قد أحاط بى من كل جهة يحمل الغثاء عن يمينى وعن شمالى ، فجعلت أخوض لأخرج منه فلم أر براً أنفذ إليه من الجهات الأربع ، فاستسلمت نفسى ووقفت فى السيل كالسارية أو النخلة الثابتة ، فقلت فى نفسى :

هذا من فضل الله أن ثبت لهذا السبيل ولا يصيبنى شىء من الغثاء ، وإذا بشخص جميل الصورة يقول لى :

إن من أجل التصوف التعرض فى الحوائج للخالق واستقضاؤها من الملك الحق ، فماقضاه الله شكرت ، ومالم يقضه رضيت ، وليس قضاؤها الموجب للشكر بأتم من عدم قضائها الموجب للرضا .

وقد علمنى الله علماً قائماً بذات نفسى لا يفارقها ، بل هو لازم لها كالبياض فى الأبيض والسواد فى الأسود ، وهو : الله لا إله إلا هو الواحد القهار ، رب السموات والأرض ومابينهما العزيز الغفار ، فانظر الألوهية الفردانية والوحدانية والقاهرية والربوبية والعز والمغفرة ، وكيف لف هذا كله فى كلمة واحدة ، إن المغفرة لتنزل على العارف بالله كالسيل الحامل من الغثاء ، ويثبت الله فيها ويها من يشاء ولا يصيبه شىء من الغثاء .

فانتبهت من نومى وقد وعيت السر العظيم والحمد لله .

— ١٤ —

فتح الله بشىء من الدنيا ففرحت لأستعين أو أعين بها ، فجعلت أحمد الله وأشكره ؛ والشكر معرفة قائمة بالقلب ، وكلمة قائمة باللسان ، فكنت أجمع بينهما .

فواظبت على ذلك وقتاً من الليل ونمت ، فرأيت أستاذى رحمه الله تعالى يقول :

استعذ بالله من شر الدنيا إذا أقبلت ، ومن شرها إذا أدبرت ، ومن شرها إذا أنفقت ، ومن شرها إذا أمسكت .

فجعلت أقول كذلك ، فوصل الشيخ كلامى فقال :

ومن المصائب والرزايا والأمراض البدنية والقلبية والنفسية جملة وتفصيلا بالكلية وإن قدرت شيئاً فاكسنى جلال الرضا والمحبة والتسليم ، وثواب المغفرة والتوبة والإنابة المرضية .

— ١٥ —

رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له :

يا سيدى يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى رحمة للعالمين .

فقال لى :

أنا هو ذاك ياعلى ، والولى رحمة فى للعالمين .

— ١٦ —

رأيت كأن رجلا جاء إلى فقال لى :

إن السلطان يأتى إليك فقل :

اللهم ألق على من زينتك ومحبتك وكرامتك ومن نعوت ربوبيتك ما يبهر القلوب . وتذل له النفوس . وتخضع له الرقاب . وتبرق له الأبصار . وتتبدد له الأفكار . ويصغر له كل متكبر جبار . ويسجد له كل ظلوم كفار ، يا الله ، يامالك ، ياعزيز ، يا جبار ، يا الله ، يا أحد ، يا واحد ، يا قهار .

الفصل الثامن

الذكر والدعاء
أو الأحزاب والأوراد

يقول الله تعالى محببا فى الذكر وداعيا إليه بطريقة من أسمى الطرق وأجملها:
﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ .

ولقد دعا الله سبحانه إلى الذكر بشتى الطرق ، لقد دعا إليه بصيغة الأمر ، ودعا إليه طالبا الإكثار منه ، فقال سبحانه :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ .

ودعا إليه سبحانه فى جميع الحالات التى يكون الإنسان عليها من قيام ، أو جلوس ، أو على جنبه :
﴿ اذْكُرُوا اللهَ قِياماً وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ﴾ .

وجعل سبحانه الذكر إحدى الصفات التى يتحلى بها أولو الألباب :
﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالارْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الالْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ .

وأخبر الله سبحانه أن الذكر علاج للقلق والضيق والهم فقال سبحانه :
« الَّذِينَ ءَامَنُو وَتَطْمَئِنُ قُلُوبهم بِذِكْرِ اللهِ ، أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُ القُلُوب » .

على أن الرضى ، وهدوء النفس ، وطمأنينة القلب ، والسكينة . . . إن كل ذلك يكون نتيجة للذكر ، يقول تعالى :

« فَاصْبِر عَلَى مَا يَقُولُونَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبلَ غُرُوبِها ، وَمِن آنَاءِ اللَّيلِ فَسَبِّح وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى » .

أما فى الآخرة فانه سبحانه يقول :

« وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعدَّ اللهُ لَهُم مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » .

ولقد حبب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الذكر بمختلف الأساليب ،

وبشتى الأنحاء ، وكان هو نفسه قدوة فى ذلك ، تقول السيدة عائشة رضى الله عنها .

كان صلى الله عليه وسلم ، يذكر الله على كل أحيانه .

وكلمة على كل أحيانه كلمة شاملة : إنها تعنى الأوقات وتعنى ، بالتبع لذلك ، الأحوال فهو ، صلى الله عليه وسلم كان يذكر الله صباحا ومساء وكان يذكره فيما بين ذلك وكان يذكره قائماً وقاعداً وعلى جنبه .

ويقول صلى الله عليه وسلم ، عن الله فى حديث قدسى رواه الشيخان :

« أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن اقترب إلى ذراعا اقتربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة ».

ويرشد صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه الإمام أحمد ، إلى أنه :

« ما عمل آدمى عملا قط أنجى له من عذاب الله ، من ذكر الله » .

ويبين صلى الله عليه وسلم أن :

مثل الذى يذكر ربه ، والذى لا يذكره ، مثل الحى والميت .

وكما ينال الذاكر رضاء الله وثوابه ، وكما ينفع الذكر فى الدار الآخرة : فإنه ينفع فى هذه الحياة الدنيا يقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود النسائى والحاكم وصححه ، عن ابن عباس :

« من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

والدعاء :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ .

وقد أمر الله سبحانه الإنسان أن يدعوه ، وهدد الذين يستكبرون عن دعائه : وفي حديث رواه الإمام أحمد ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال :

« إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ :

﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم قال :

«الدعاء مخ العبادة » .

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » .

الدعاء يرد القضاء :

وروى ابن عمر عن رسول الله صلى الله ، عليه وسلم قال :

« من فتح له باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة ، وما سئل الله تعالى شيئا أحب إليه من أن يسأل العافية ، وإن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، ولا يرد القضاء إلا الدعاء ، فعليكم بالدعاء » .

وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها ـ فيما رواه البزار والحاكم وصححه :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا يغنى حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل ، فيتلقاه الدعاء ، فيعتلجان إلى يوم القيامة » .

وروى الترمذى عن سيدنا سلمان الفارسى : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال :

« لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر » .

ولقبول الدعاء شروط منها :

١ ــ التوبة الخالصة النصوح .

٢ ــ وتحرى الحلال . فعن ابن عباس ، فيما أخرجه الحافظ ابن مردويه . تليت هذه الآية عند النبى ، صلى الله عليه وسلم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأرْضِ حَلَالاً طَيِّباً ﴾ فقام سعد بن أبى وقاص فقال :

يارسول الله ، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال :

« ياسعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به » .

أوقات الدعاء :

والدعاء يصح فى كل وقت ، بيد أن هناك أوقاتا وأماكن أرجى فى الدعاء من غيرها ، وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أوقاتا للدعاء منها ثلث الليل الأخير يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول :

من يدعونى فاستجيب له ؟

من يسألنى فأعطيه ؟ .

من يستغفرنى فأغفر له ؟ » .

ولقد سئل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن : أى الدعاء اسمع؟فقال: « جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبة » .

وروى مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء » .

أما الأماكن الأرجى فى استجابة الدعاء ، فإنها الأماكن الطاهرة المباركة، وأشرفها الحرم المكى والحرم المدنى .

ومن أجل هذه الأهمية الكبرى للذكر وللدعاء فى الإسلام استفاض أبو الحسن فى الذكر وفى الدعاء .

وكانت طريقته فى أكثر الأحيان أن يمزج الذكر بالدعاء ، وما روى عنه فى هذا الباب كثير مستفيض ، سواء منها ما يتعلق بالأحزاب أو بغيرها من أبواب الذكر والدعاء .

ولا يتسع المجال لذكرها كلها هنا وسنكتفى ببعض ما ذكره ابن عطاءالله السكندرى فى لطائف المنن ، وابن الصباغ فى درة الأسرار ، وابن عياد فى المفاخر العلية .

وعن أحزاب أبى الحسن يقول ابن عياد :

وأحزاب أهل الكمال ممزوجة بأحوالهم ، مؤيدة بعلومهم ، مسددة بإلهامهم ، مصحوبة بكراماتهم ، حتى قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه فى شأن حزبه الكبير .

« من قرأه كان له مالنا وعليه ما علينا » وقد تقدم بيان ذلك واعلم أن أحزاب الشيخ رضى الله عنه جامعة بين إفادة العلم ، وآداب التوحيد ، وتعريف الطريقة ، وتلويح الحقيقة ، وذكر جلال الله تعالى وعظمته وكبريائه ، وذكر حقارة النفس وخستها ، والتنبيه على خدعها وغوايتها ؛ والإشارة لوصف الدنيا

والخلق وطريق الفرار من ذلك ، ووجه حصوله ، والتذكير بالذنوب والعيوب والتنصل منها ، مع الدلالة على خصائص التوحيد ، وخالصه ، واتباع الشرع ومطالبه ، فهى تعليم فى قالب التوجه وتوجه فى قالب التعليم ، من نظرها من حيث العلم وجده كامنا فيها ، ومن نظرها من حيث العمل فهى عينه ، ومن نظرها من حيث الحال وجده كامنا فيها ، وقد شهد شاهدها بذلك عند الخاص والعام ، فلا يسمع أحد من كلامها شيئاً إلا ؟جد له أثراً فى نفسه ، ولا يقرؤها إلا كان مثل ذلك مالم يكن مشغولا ببلوى ، أو مشغوفا بدنيا ، أو مصروفا بدعوى ، أعاذنا الله تعالى من البلاء .

ويقول أبو الحسن ناصحا الذاكرين والداعين الذين يرجون قبول الله لدعائهم :

إذا أردت أن يستجاب لك أسرع من لمح البصر فعليك بخمسة أشياء :

١ ـ الامتثال للأمر .

٢ ـ والاجتناب للنهى .

٣ ـ وتطهير السر .

٤ ـ وجمع الهمة .

٥ ـ والاضطرار .

وخذ ذلك من قوله :

﴿ أَمنْ يُجِيبُ الْمُضْطَر إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْض ، ءَإِله مَعَ اللهُ ، قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُون ﴾ .

فالمحروم من يدعوه وقلبه مشغول بغيره .

فاحذر هذا الباب جداً ، فإن لم تستطع أن تتصف بالخمسة أشياء ، فعليك

بالخلوة عن الناس ، واذكر ما شاء الله من قبائحك وأفعالك ، واحتقر جميع أعمالك ، وقدم إليه ماعلمته من جميل ستره عليه وقل :

« يا الله يامنان يا كريم ياذا الفضل ، من لهذا العبد العاصى غيرك وقد عجز عن النهوض إلى مرضاتك ، وقطعته الشهوة عن الدخول فى طاعتك ، لم يبق له حبل يتمسك به سوى توحيدك ، وكيف يجترىء على السؤال من هو معرض عنك ، أم كيف لا يسأل من هو محتاج إليك ، وقد مننت على الآن بالسؤال منك ، وجعلت حسبي الرجاء فيك ، فلا تردنى خائبا من رحمتك يا كريم ، وقد جعلت لأسمائك حرمة فمن دعاك بها لا يشرك بك شيئاً أجبته ، فبحرمة أسمائك يا الله يامالك ياقدوس ياسلام يامؤمن يا مهيمن يا عزيز يا جبار يامتكبر يا خالق يا بارىء يامصور قنى من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل والشك وسوء الظن وضلع الدين ، وغلبته وقهر الرجال ، فإن لك الأسماء الحسنى ، وقد سبح لك ما فى السموات والأرض وأنت العزيز الحكيم .

اللهم إنى أسألك خيرات الدنيا وخيرات الدين ، خيرات الدنيا بالأمن والرفق والصحة والعافية ، وخيرات الدين بالطاعة لك ، والتوكل عليك ، والرضا بقضائك ، والشكر على آلائك ونعمك لأنك على كل شىء قدير » اهـ .

ونبدأ الآن بذكر بعض أذكار أبى الحسن وبعض أحزابه ، ونبدأ بالأذكار التى رويت متناثرة هنا وهناك والتى لم تأخذ وضع الأحزاب فى الأناقة اللفظية وفى الإبداع الفنى وإن كانت فيما يتعلق باللفظ والمعنى على مقدار عظيم من السمو :

ولقد كان لأبى الحسن عادات فى أذكار معينة يتحدث عنها فيقول : كنت كثيراً ما أداوم على قراءة آية الكرسى ، وخواتيم سورة البقرة من قوله تعالى :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيكَ الْمَصِيرُ . لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

(ثم) : ﴿ الٓمٓ : اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ . مِن قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ . إِنَّ اللهَ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ . هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، مع الآيتين ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ من تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ . وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ . وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

اللهم إني أسألك صحبة الخوف ، وغلبة الشوق وثبات العلم ، ودوام التفكير ، ونسألك سر الأسرار المانع من الإصرار ، حتى لا يكون لنا مع

الذنب أو العيب قرار ، واجتبنا واهدنا إلى العمل بهذه الكلمات التى بسطتها لنا على لسان رسولك ، وابتليت بها إبراهيم خليلك فأتمهن ؛ قال إنى جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذريتى ؛ قال لا ينال عهدى الظالمين ؛ فاجعلنا من المحسنين من ذريته ومن ذرية آدم ونوح ، واسلك بنا سبيل أئمة المتقين والله بصير بالعباد . رب إنى ظلمت نفسى ظلما كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت : فاغفر لى وارحمنى وتب على لا اله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . (وهذا الإستغفار له شأن عظيم وضياء كريم فتناوله ترعجبا) ثم أقول : يا الله يا على يا عظيم ، يا حليم يا عليم ، يا سميع يا بصير ، يا مريد ياقدير ، يا حى يا قيوم ، يا رحمن يا رحيم ، يا من هو هو ياه يا أول يا آخريا ظاهر يا باطن ، تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام . اللهم صلنى باسمك العظيم الذى لا يضر معه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهب لى منه سراً لا تضر معه الذنوب شيئاً ، واجعل لى منه وجها تقضى به الحوائج من القلب والعقل والروح والسر والنفس والبدن ، ووجها تدفع به الحوائج من القلب والعقل والنفس والبدن ، وادرج أسمائى تحت أسمائك ، وصفاتى تحت صفاتك ، وأفعالى تحت أفعالك : درج السلامة وإسقاط الملامة ، وتنزل الكرامة ، وظهور الأمانة ، وكن لى فيما ابتليت به أئمة الهدى من كلماتك ، واغننى حتى تغنى بى ، وأحينى حتى تحيي بى ما شئت ومن شئت من عبادك ، واجعلنى خزانة الأربعين ، ومن خالصة المتقين واغفر لى فانه لا ينال عهدك الظالمون ، طس ، حم ، عسق ، مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان . والحمد الله رب العالمين .

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ، ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ اهـ .

ومن دعائه :

اللهم إنى أسألك بجاه محمد المصطفى ، وإبراهيم الذى وفى ، وبحرمة كل رسول ونبى ، وصديق وولى وشهيد وصالح وتقى ، وبحرمة عظيم الأسماء ، وبالأسماء كلها أسألك اللهم أن تمحق هذا الخلق من قلوبنا ، وأن تجعلهم فى أسرارنا كالهباء فى الهواء ، واسلك بنا سبيل أنبيائك وأصفيائك ، وأتقيائك فى السر والعلانية ، إنك على كل شىء قدير .

ومن ذكره ودعائه :

يا الله ، يا نور ، يا حق ، يا مبين ، افتح قلبى بنورك ، وعلمنى من علمك ، واحفظنى بحفظك ، وأسمعنى منك ، وفهمنى عنك ، وبصرنى بك ، وسبب لى سبباً من فضلك : تغننى به من الفقر ، وتعزنى به من الذل ، وتصلح لى به الدنيا والآخرة ، وتوصلنى به إلى النظر إلى وجهك فى جنة الفردوس : إنك على كل شىء قدير ، يا نعم المولى ويا نعم النصير .

ومن دعواته :

وفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه ، وخار لنا وإياكم فيما قدره وقضاه ، وجعلنا وإياكم من الفائزين يوم لقاه . اللهم توفنا مسلمين ، وألحقنا بمحمد وحزبه على الرضا منك ومنهم مع السلامة من الحياء والخجل والذل بما سلف منا من أعمال المخلطين . اللهم اعذرنا فى جهلنا ، ولا تؤاخذنا بغفلتنا عنك ، ولا بسوء أدبنا معك ومع الملائكة الكرام الكاتبين . اللهم اغفر لنا ذنوبنا وغفلتنا وجهلنا بنعمك ، واغفر لنا قلة حيائنا منك واقبل علينا بوجهك ، ولا تفتنا بشىء من خلقك : إنك على كل شىء قدير اللهم اغفر لنا ما علمه البشر من

خلقك ، واغفر لنـا ما علمته وكتبته ملائـكتك ، واغفر لنـا ما علمناه من أنفسنا ولم يعلمه أحد من خلقك ، واغفر لنـا ما اسـتأثرت به عنا فى جميع أحكامك وتفضل علينا بالغنى عن جميع خلقك ، وبرفع الحجاب فيما بيننا وبينك إنك على كل شىء قدير . اللهم اغفر لنـا مغفرة الأحباب ، التى لا تدع شيئاً من الارتياب ، ولا يبقى معها شىء من اللوم والعتاب ، واجعل ماعلمته فينا ومنا خير معلوم بعد المحو والتثبيت : فإنك عندك أم الـكتاب . اللهم اغفرلنا ذنوبنا كلها : دقيقها وجليلها ، سرها وعلانيتها ، أولها وآخرها ، واغفر لمن سافر عنا من أحبابنا ، سفر الدنيا أو سفر الآخرة ، واجعل تقلبهم تقلب المتقين ، وإيابهم إياب الفائزين ، واجعلنا برحمتك جميعاً من المقبولين . وإن كنا زائفين فإن النقاد يسمحون وإن كانوا عارفين ، فأنت أولى بذلك فإنك أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين ، والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . اللهم لا تخيبنا ونحن نرجوك ، ولا تحرمنا ونحن ندعوك ، وقد دعوناك كما أمرتنا ، فاستجب لنـا كما وعدتنـا ، ولا تجعل تضرعنا هيناً عليك وغير مقبول . وكما يسرت لنا الدعاء فيسر لنـا الإجابة : إنك على كل شىء قدير .

ومن ذكره ودعائه :

يا حى يا قيوم . لا إله إلا أنت كن لى بحياتك كما كنت لأحبابك . وأمتنى عنى بصفاتك كما فعلت بأصفيائك واجعلنى قيوماً بذلك بالعصمة من غيرك كما فعلت بمحمد رسولك إنك على كل شىء قدير .

(إلهى) إذا طلبت منك القوت فقد طلبت غيرك . وإن سألتك ما ضمنت لى فقد اتهمتك . وإن سكن قلبى إلى غيرك فقد أشركت بك . جلت أوصافك عن الحدوث ، فـكيف أكون معك . وتنزهت عن العلل فـكيف أكون

قريباً منك ، وتعاليت عن الأغيار فكيف يكون قوامى بغيرك (اللهم) إنى أسألك توحيداً لا ننفى به ضداً ، ويقينا لا ندفع به شكاً .

ومن دعائه لضيق الحال :

وكان يعلم أصحابه لضيق الحال فيجدون الفرج والسعة : يا واسع يا عليم يا ذا الفضل العظيم : أنت ربى وعلمك حسبى ، إن تمسسن بضر فلا كاشف له إلا أنت ، وإن تردن بخير فلا راد لفضلك : تصيب به من تشاء من عبادك وأنت الغفور الرحيم .

ومن دعائه :

« اللهم هب لى من النور الذى رأى به رسولك ، صلى الله عليه وسلم ، ما كان ويكون : ليكون العبد بوصف سيده لا بوصف نفسه ، غنياً بك عن تجديدات النظر لشىء من المعلومات ، ولا يلحقه عجز عما أراد من المقدورات ، ومحيطاً بذات السر بجميع أنواع الذوات ، ومرتباً للبدن مع النفس وللقلب مع العقل ، وللروح مع السر وللأمر مع البصيرة والعقل الأول الممد من الروح الأكبر المنفصل عن السر الأعلى » .

ومنه :

اللهم إنا نتوسل بك إليك ، اللهم إنى أقسم بك عليك ، اللهم كما كنت دليلى عليك فكن شفيعى إليك ، اللهم إن حسناتى من عطائك ، و سيئاتى من قضائك فجد اللهم بما أعطيت على ما به قضيت حتى تمحو ذلك بذلك ، لا لمن أطاعك فيما أطاعك فيه له الشكر ، ولا لمن عصاك فيما عصاك فيه له العذر ، لأنك قلت وقولك الحق ...

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ .

اللهم لولا عطاؤك لكنت من الهالكين، ولولا قضاؤك لكنت من الفائزين، وأنت أجل وأعظم، وأعز وأكرم من أن تطاع إلا بإذنك ورضاك، أو تعصى إلا بحكمك وقضائك، إلهى ما أطعتك حتى رضيت، ولا عصيتك حتى قضيت، أطعتك بإرادتك والمنة لك عليّ، وعصيتك بتقديرك والحجة لك على، فبوجوب حجتك وانقطاع حجتى إلا ما رحمتنى، وبفقرى إليك وغناك عنى إلا ما كفيتنى، يا أرحم الراحمين .

اللهم إنى لم آت الذنوب جرأة منى عليك ولا استخفافاً بحقك، ولكن جرى بذلك قلمك، ونفذ به حكمك، وأحاط به علمك، ولا حول ولا قوة إلا بك، والعذر إليك، وأنت أرحم الراحمين .

اللهم، ان سمعى وبصرى ولسانى وقلبى وعقلى : بيدك، لم تملكنى من ذلك شيئاً، فإذا قضيت بشىء فكن أنت ولى، واهدنى إلى أقوم السبل يا خير من سئل، ويا أكرم من أعطى، يا رحمن الدنيا والآخرة، ارحم عبداً لا يملك الدنيا ولا الآخرة إنك على كل شىء قدير .

وقال رضى الله عنه :

بت ذات ليلة فى غم عظيم فألهمت أن أقول: إلهى منت عليّ بالإيمان والمحبة والطاعة والتوحيد، فأحاطت بى الغفلة والشهوة والمعصية، وطرحتنى النفس فى بحر الظلم، فهى مظلمة، وعبدك محزون مهموم مغموم، وقد التقمه نون الهوى، وهو يناديك نداء المحبوب المعصوم نبيك وعبدك : يونس بن متى، ويقول :

لا إله إلا أنت، سبحانك، إنى كنت من الظالمين .

فاستجب لى كما استجبت له ، وانبذنى بعراء المحبة فى محل التفريد والوحدة، وأنبت على أشجار اللطف والحنان ، إنك أنت الله الملك المنان، وليس لى إلا أنت وحدك لا شريك لك ، ولست بمخلف وعدك لمن آمن بك ، إذ قلت وقولك الحق : فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين .

يا الله ، يا جميل ، يا جليل اللطف ، الطف بى فى لطفك الذى لطفت به لأوليائك ، وانصرنى بالرعب الشديد على أعدائك ، إنك على كل شىء قدير .

ومن دعائه رضى الله عنه :

يا الله يا فتاح يا عليم ، يا غنى يا كريم ، افتح قلبى بنورك ، وارحمنى بطاعتك ، واحجبنى عن معصيتك ، وامنن على بمعرفتك ، واغننى بقدرتك عن قدرتى ، وبعلمك عن علمى ، وبإرادتك عن إرادتى ، وبحياتك عن حياتى ، وبصفاتك عن صفاتى ، وبوجودك عن وجودى ، وبدنوك عن دنوى ، وبقربك عن قربى ، وبحبك عن حبى ، وبصدقك عن صدقى ، وبحفظك عن حفظى ، وبنظرك عن نظرى ، وبتدبيرك عن تدبيرى ، وباختيارك عن اختيارى ، وبحولك وقوتك عن حولى وقوتى ، وبجودك وكرمك وفضلك ورحمتك عن علمى وعملى ، إنك على كل شىء قدير .

وقال :

« اللهم إن الدنيا حقيرة حقير ما فيها وإن الآخرة كريمة ، كريم ما فيها .

وأنت الذى حقرت الحقير وكرمت الكريم ، فأنى يكون كريما من طلب غيرك أم كيف يكون زاهداً من اختار لدنياه غيرك .

فحققنى بحقائق الزهد حتى استغنى بك عن طلب غيرك ، وبمعرفتك حتى لا أحتاج إلى طالبك . إلهى كيف يصل إليك من طالبك أم كيف يفوتك من هرب

منك . فاطلبنى برحمتك ، ولا تطلبنى بنقمتك ، يا عزيز يا منتقم ، إنك على كل شىء قدير » .

وقال :

« اللهم اسلبنى عقلا يحجبنى عنك وعن فهم آياتك وعن فهم كلام رسولك ، وهب لى من العقل الذى خصصت به أنبياءك ورسلك والصديقين من عبادك ، واهدنى بنورك هداية المخصصين بمشيئتك ، ووسع لى فى النور توسعة كاملة تخصنى بها برحمتك ، فان الهدى هداك وإن الفضل بيدك تؤتيه من تشاء وأنت ذو الفضل العظيم » .

وقال :

« يا عزيز يارحيم يا حكيم يا غنى يا كريم يا واسع يا عليم ياذا الفضل العظيم ، اجعلنى عندك دائماً ، وبك قائماً ، ومن غيرك سالما ، وفى حبك هائما ، وبعظمتك عالما ، واسقط البين بينى وبينك حتى لا يكون شىء أقرب إلى منك ، ولا تحجبنى بك عنك إنك على كل شىء قدير » .

وقال :

يا الله يا حميد يا مجيد ، يا الله يا كريم يابر يارحيم ، يا الله يا قوى يامتين : هب لى من رحمتك ما أحمدك به ، فأكون من المؤمنين ، وارزقنى من لطائف العز ما أكون به قويا متيناً حاملا محمولا فى العالمين ، وهب لى من كرمك ما أكون به براً تقياً من الصالحين ، يارحيم يالطيف ، الطف بى لطفا لا يدركه وهم الواهمين .

إلهى وجدتك رحيما حيث لا أرجوك ، فكيف لا أجدك ناصراً وأنا أرجوك من لى إذا قطعتنى ؟ ومن لى إذا لم ترحمنى ؟ فصلنى من حيث تعلم ولا أعلم إنك على كل شىء قدير . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

حزب الفتح

وهو الحزب الذى فتح الله به على أبى الحسن ، ويسمى أيضا حزب « الأنوار » ، نبدأ به الأحزاب للتيمن والبركة .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلىَّ اللهُ عَلَى سيدنا محمدٍ وَعَلَى آلهِ وصحبه وسلم (اللهم) إنانسألُك إيماناً لا ضدَّ لَهُ ، ونسألُك توحيداً لا يقابلُه شِرْك ، وطاعةً لا تقَابِلهامعصية ، ونسألُك محبَّةً لا لشىء ولا على شىء ، وخوفاً لا من شىء ولا عَلَى شىء .

ونسألُك تنزيهاً لامن نقصٍ ولامن دنسٍ بعدالتَّنزيهِ من النقائصِ والأَدْناس ، ونسألُك يقيناً لا يُقابله شكٌّ ، ونسألك تقْديسا ليس وراءهُ تقديس ، وكمالا ليس وراءهُ كمالٌ ، وعلماً ليس فوقهُ علم ونسألك الإحاطةُ بالأسرارِ وكتمانها عن الأغيارِ .

ربِّ إنِّى ظلمت نفسى : فاغفرْ لى ذنبى وهبْ لى تقوَاكَ ، واجعلنى ممَّن يحبُّك ويخشَاكَ ، واجعل لى من كل ذنب وهمٍّ وغمٍّ وضيق وسَهْو وشهوةٍ ورغبةٍ ورهبةٍ وخطرةٍ وفكرةٍ وإرادةٍ وفعلةٍ وغفلةٍ ومن كلِ قضاءٍ وأمرٍ مَخرجاً . أحاط علمكَ بجميع المعلُوماتِ ، وعَلَتْ قدرتُك على جميع المقدُورات ، وجلَّت إرادَتكَ أن يوافقها أو يخالفها شىء من الكائنات . حسبى الله . حسبى الله . حسبى الله . وأنا برىء مما سوى الله .

اللهُ لاَ إِلَهَ إِلَّاهُوَ عليه تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعِظِيم .

لاَ إِلَهَ إلاَّ الله نُورُ عرشِ الله

لا إله إلا الله نُورُ لوحِ الله

لا إله لا الله نورُ قلمِ الله

لاَ إله إلا الله نُورُ رسولِ الله

لا إله إلا الله نورُ سِرِّ رسولِ الله

لا إله إلا الله نورُ سِرِّ ذَاتِ رسول الله

لا إله إلا الله آدمُ خليفةُ الله

لا إله إلا الله نوح نَجِيُّ الله

لا إله إلا الله إبراهيمُ خليل الله

لا إله إلا الله موسى كليمُ الله

لا إله إلا الله عيسى روحُ الله

لا إله إلا الله محمدٌ حبيبُ الله

لا إله إلا الله الأنبياء خاصةُ الله

لا إله الله الأولياء أنصارُ الله

لا إله إلا الله الربُّ الإله المْلكُ النُّورُ الحقُّ المُبين . لا إله إلا الله المَلِكُ اللطيفُ الرَّزاقُ القويُّ العزيزُ ذو القُوة المتين . لا إله إلا الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ، رب السَّمٰواتِ والأرْضِ ومَا بَيْنَهُما العزيزُ الغفار . لا إله إلا الله العليُّ العظيمُ . لا إله إلا الله الحَكِيمُ الكريمُ . لا إله إلا الله الرَّبُّ العَظِيمُ . سبحان الله رب السموات السَّبع ورب العرشِ العَظِيمِ .

الحمدُ لله رب العالمين .

بِسْمِ الله ، وبالله ، ومِنَ اللهِ ، وإلَى اللهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّل المؤمنونَ .

حسبِيَ الله . آمَنْتُ بالله . رَضِيتُ باللهِ . تَوَكَّلْتُ عَلَى الله لا قوة إلا بالله .

أَتُوبُ إليكَ بكَ مِنْكَ إليك : وَلَوْلاَ أَنْتَ لَمَا تُبْتُ إليك . فامْحُ من قلبي محبَّة غيركَ ، وَاحْفظ جوارحي عن مخالفةِ أَمْرِكَ ، والله لَئِنْ لَمْ تَرْعنى بعينكَ ، وتحفظنى بِقُدْرَتِكَ ، لَأُهْلِكن نفسى ، ولأهلكن أمة من خلقك ، ثم لا يعودُ ضَرَرُ ذلك إلا على عبدِك ، أَعُوذُ برضَاكَ من سَخَطِكَ ، وأَعُوذُ بمُعَافاتِكَ ، من عقوبتك وأَعُوذُ بك منك ، لا أحصى ثَناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، بل أنت أجل من أن أثنى عليك وإنما هى أعراضٌ تَدُلُّ عَلَى كَرَمِكَ ، قد مَنَحْتَهَا لنا على لسان رسولكَ لِنَعْبُدَكَ بها على أَقْدَارِنَا لا على قَدْرِكَ ، فهل جزاء الإحْسان الأول الكامل إلا الإحْسان منك .

يامَنْ بِهِ ومنه وإليه يَعُودُ كل شيء . أسألُكَ بحرمة الأُسْتَاذ بل بحرمتى النبي الهَادِى ، صلى الله عليه وسلم ، وبِحُرْمَةِ الاثنين والأَرْبَعَةِ ، وبِحُرْمَةِ السبعين والثمانية وبِحُرْمَة أسرارها منك إلى محمد رسولك صلى الله عليه وسلم ، وبحرْمَةِ سيدة آى القرآن من كلامكَ ، وبحرمة السَّبْعِ المثانى والقرآن العظيم بَيْنَ كُتُبِكَ ، وبحرمة الاسْمِ الأَعْظَم الذى لا يَضُرُّ مَعَهُ شَيْءٌ فى الأرض ولا فى السَّماء وَهُوَ السميعُ العليمُ ، وبحرمةِ قُلْ هُوَ اللهُ أَحدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ،

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحدٌ :

اكْفِنِى كل غَفْلَةٍ وَشَهوَة وَمَعْصِيَةٍ مِمَّا تقَدَّمَ أَو تَأَخَّر ، واكفنى كل طَالِب يطلُبُنِى مِن خَلقِكَ بالحق وَبغَيْرِ الحقِّ فى الدُّنيَا وَالآخِرَةِ ، فإنه لَكَ الحجةُ البَالِغة وأنت على كل شىء قدير ، وَاكْفِنِى هَمَّ الرِّزْقِ وَخَوْفَ الخلْقِ ، وَاسلُكْ بِى سبيل الصِّدْقِ ، وانصُرْنى بالحق ، وَاكْفِنَا كل عَذَابٍ من فَوْقِنَا أو مِنْ تحتِ أَرْجُلِنَا أو يَلْبِسَنَا شِيَعًا أَو يُذِيقَ بَعْضنا بَأْسَ بعْضٍ ، وَاكفنا كل هَمٍّ وَغمٍّ وَكُل هَوْلٍ دُونَ الجَنَّةِ ، واكفنا شَرَّ ما تعلَّق بِهِ عِلْمُكَ مما كان ويكون ، إِنَّكَ عَلَى كل شىء قدير .

سُبحَانَ المَلِك الخلاَّقِ ، سُبْحانَ الخلاَّقِ الرزَّاق ،سبحان الله عَمَّا يَصِفُونَ ، عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَهادةِ فتعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ، سُبْحَانَ ذِى العزَّةِ وَالجبَرُوتِ ، سُبْحَانَ ذِى المُلْكِ وَالمَلَكُوتِ ، سبحان من يحى ويميت ، سُبْحَانَ الحىّ الَّذِى لاَ يَموتُ سبحان الملك القادِرِ ، سبحان العظيم القاهِرِ ، وهو القاهر فوْقَ عِبادِهِ ، وَهُوَ الحكِيمُ الخبِيرُ .

قُل حَسْبِىَ اللهُ الَّذى لاَ إِلَهَ إلا هُوَ عَلَيْهِ توَكَّلتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ .

أَعوذُ بالله من جَهْد البَلاَءِ ، وَمِنْ سُوءِ القَضَاءِ ، وَمِنْ دَرَكِ الشَّقَاءِ ، وَمِن شَمَاتَةِ الأعداء ، وأعوذ بالله رَبِّى وربكم وَرَبِّ كل شىء مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ .

يا مَنْ بيَدِهِ مَلَكُوتُ كُل شَيْءٍ وَهُوَ يجير وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ : انصُرنِي بِالخَوْفِ مِنْكَ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ ، حَتَّى لاَ أَخَافُ غَيْرك ، ولا أعبدُ شَيْئًا سِوَاك .

يا خَالِق السَّبْعِ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ، يَتَنَزَّلُ الأمْرُ بَينَهُنَّ ، أشهد أنك على كل شيء قدير ، وأنك قد أحطت بكل شيء علما ، أسألك بهذا الأمر الذى هو أَصْل المَوجُودَاتِ ، وَإليْهِ المبدأ وَالمُنْتَهى ، وَإِلَيْه غَايَة الغَايَاتِ ، أَنْ تسَخِّرْ لنا هذا البَحْرُ ، بحر الدُّنْيَا وَمَا فِيهِ وَمَنْ فِيه ، كما سَخَّرتَ البَحْرَ لمُوسىَ ، وسخرت النار لإبراهيمَ ، وسَخَّرْتَ الجِبَالَ والحَدِيدَ لدَاودَ ، وسَخرْتَ الرِّيَاحَ وَالشَّيَاطِينَ وَالجنَّ لِسُليْمَانَ ، وَسَخِّرْ لِي كُلَّ بحر هُولَكَ ، وسخر لى كل جَبلٍ ، وَسَخِّرْ لِي كل حديدٍ ، وَسَخِّرْ لِي كُلَّ رِيحٍ ، وسخر لى كل شَيْطَانٍ من الجنِّ وَالإِنْس ، وسخر لى نفسى ، وسخر لى كل شيء ، يا مَنْ بِيَدِهِ ملَكوت كل شيء ، وَاحْمِلْ أمرى باليقين ، وَأَيِّدْنِي بالنَّصر المبين ، إنك على كل شيء قدير .

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

حزب البحر (١)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

يا عليُّ يا عظيمُ يا حليمُ يا عليم أنت ربى وعلمك حسبى فنعْمَ الربُّ ربىِّ ونعم الحسْب حسبى تنصرُ من تشاء وأنت العزيزُ الحكيمُ .

نسألُكَ العصْمة فى الحركاتِ والسكناتِ والكلماتِ والإراداتِ والخطراتِ من الظنونِ والشكُوكِ والأوْهام الساترةِ للقلوب عن مطالعة الغيُوُب ، فقد ابْتُلِيَ المؤمنون وزلزلُوا زلزالاً شديداً ، وَإِذْ يقُولُ المنافقُونَ والذين فى قُلُوبِهِم مَرَضٌ مَا وَعدَنا اللهُ ورسُولُهُ إلاَّ غُرُوراً .

فَثبِّتنا وانصرنا،وسخّر لنا هذا البحر كما سخَّرت البحر لمُوسىَ ، وسخرت النار لإبراهيمَ ، وسخَّرت الجبالَ والحديدَ لداودَ ، وسخرت الرِّيح والشياطِينَ والجنَّ لسليمانَ ، وسخر لنا كلَّ بحْر هو لَكَ فى الأرض والسماء والمُلك والملكُوتِ ، وبحر الدنيا وبحر الآخرةِ وسخّر لنا كل شيء يا منْ بيده ملكُوتُ كلِّ شيءٍ .

كهيعص ، كهيعص، كهيعص ، انْصُرْنا فإنَّك خيرُ الناصِرينَ ، وافْتَحْ لَنا فإنكَ خَيْرُ الفَاتحين ، واغفر لَنا فإنك خَيْرُ الغَافِرِينَ ، وارْحمنا فإنك خَيْرُ الرَّاحمينَ ، وارْزُقنا فإنَّك خير الرازقين ، واهدنا ونَجِّنا من القوم الظالمين ،

---

(١) يقول ابن عطاء الله السكندرى عن حزب البحر والحزب الكبير الذى يسميه حزب « وإذا جاءك » — إنهما سارا مسير الشمس والقمر ، وأشيد ذكرهما فى البدو والحضر . وحزب البحر يقرأ بعد العصر فى التقاليد الشاذلية .

وَهب لنا ريحاً طيبة كما هى فى علمك ، وانشرْهَا علينا من خزائن رحمتك ، واحملنا بها حمل الكرامةِ مَعَ السَّلاَمَةِ والعافية فى الدينِ والدنْيا والآخرة إنك على شيء قدير .

اللهم يَسِّرْ لنا أُمورَنا مع الرَّاحَةِ لقلُوبِنَا وأبدَاننَا ، والسلاَمَةِ والعافية فى دُنْيَانَا وديننا ، وَكُن لَنَا صاحِبا فى سفَرِنَا وخَليفَةً فى أهْلنَا ، واطْمس على وجُوهِ أعدَائِنا وامْسخْهُم على مكاَنتِهِمْ فلا يستطيعون الْمضِيَّ ولا المجَيء إلْينا .

وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاط فَأَنَّى يبْصِرُونَ ، وَلَو نَشاء لَمَسخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلاَ يرْجِعُونَ ﴾ .

يس ، وَالْقُرآنِ الحَكيم ، إنَّكَ لَمِنَ المرسلين على صرَاطٍ مُسْتقيم ، تَنْزِيلَ العزيزِ الرَّحيم ، لتنذِرَ قوْما ما أُنْذرَ آباؤهُم فهم غَافِلونُ ، لقد حَقَّ القولُ عَلَى أَكْثرهم فهم لاَ يُؤمنُونَ ، إنا جعَلْنا فى أَعْنَاقِهم أغلالا فَهى إلىَ الأَذْقَان فهم مُقْمَحوُنَ ، وجعلنا من بين أيديهم سَدا ومن خَلفهم سَدًّا فأَغشَيْنَاهُمْ فهم لا يبصرون .

شَاهَتِ الوُجُوهُ ، شَاهَت الوُجُوهُ ، شاَهتِ الوُجُوهُ .

وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّوم وقد خاب من حمل ظُلْماً .

طس .

حم ، عسق .

مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ بَيْنَهُماَ بَرْزَخٌ لاَ يَبغيانِ .

حم ، حم ، حم ، حم ، حم ، حم ، حم .

حمَّ الأمرُ وجاءَ النصرُ فَعلينا لا يُنْصرونَ .

﴿ حم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ منَ اللهِ العزيزِ العليم ، غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ، ذِى الطَّوْلِ لاَ إِله إلاَّ هُوَ إِلَيْه المصِيرُ ﴾ .

بسم الله بَابُنا

تبَارك حِيطانُنا .

يس سَقْفُنا .

كهيعص كِفَايَتُنا.

﴿ حم ، عسق حِمَايَتُنا ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وهو السَّمِيعُ العَلِيمُ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السمِيعُ العَلِيم ، فَسَيَكفِيكَهُمُ الله وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيم ﴾ .

سِتْرُ العَرْشِ مَسْبُولٌ عَلَيْنا ، وَعَينُ اللهِ ناظِرَةٌ إِلَيْنَا بِحَوْلِ اللهِ لاَ يقْدرُ عَلينا .

واللهُ مِن وَرائِهِمْ مُحِيطٌ ، بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مجيدٌ ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ .

﴿ فاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فاللهُ خيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الراحِمِينَ ﴾ .

﴿ إِنَّ وَلِيِي اللهُ الَّذِى نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتولَّى الصَّالِحِينَ ، إِنَّ وَلِيِي اللهُ الَّذِى نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ، إن وَلِيِي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ .

﴿ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِله إِلَّا هُوَ عَليهِ توكَّلتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، ﴿ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِله إلا هُوَ عَلَيْه توكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ،

﴿ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَه إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرشِ الْعَظِيمِ ،

بِسْمِ اللهِ الَّذِي لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّماءِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ، بِسْمِ اللهِ الَّذِي لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّماءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، بِسمِ اللهِ الَّذِي لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّماءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

وَلاَ حَولَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ العَلِيِّ الْعَظِيمِ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قوَّةَ إِلا بِاللهِ العلى الْعَظِيم .

حزب الآيات(١)

أَعُوذ بالله مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيم . بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ . وصلى الله عَلى سَيدنَا محمدٍ .

إنَّ الله اشْتَرَى مِنَ المؤْمنِينَ أَنفُسَهُم وأَمْوالَهُمْ بأَنَّ لَهُمُ الجنةَ . يُقَاتلوُن في سَبيلِ اللهِ فَيَقتلُونَ وَيُقْتلونَ وَعداً عليه حَقا في التَّوْرَاةِ والانْجِيل والقرآنِ ، ومَن أَوفَى بعَهْدِهِ من اللهِ فاسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُمُ الذى بايعتم به وذلكَ هو الفوزُ العظِيمُ .

التَّائبُونَ العابِدُونَ الحامدُونَ السَّائحونَ الرَّاكعونَ السَّاجدونَ الآمرُون بالمعروفِ والنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ والحافِظونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبشِّرِ المؤْمنِينَ .

قَدْ أفلَحَ المؤمِنونَ الَّذين هُمْ في صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ . والَّذِين هُم عَنِ اللَّغوِ مُعْرِضُونَ . والذين هم للزَّكاةِ فَاعِلُونَ ، والذين هُم لِفُروجِهم حافظون إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فإنهم غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمنِ ابْتَغى وَرَاءَ ذلِكَ فَأُولئك هُمُ العادون . والذين هُمْ لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هُمْ عَلَى صَلواتِهِمْ يُحافِظونَ . أولئك هُمُ الوَارِثونَ الذين يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فيهاَ خالدون .

---

(١) هذا الحزب ذكره ابن الصباغ كقسم من الحزب الكبير وكمقدمة له : بيد أن الحزب الكبير يبدؤه الناس عادة بالآية الكريمة « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم . . . » ولذلك سماه ابن عطاء الله حزب « وإذا جاءك » وتوفيقا للاراء في ذلك رأى بعض المؤرخين مستندين إلى نصوص أن أبا الحسن كان يقرأ هذا الحزب مقدمة للحزب الكبير إذا اتسع له الوقت وإلا قرأ « وإذا جاءك » .

إنَّ المُسْلِمِينَ وَالمسلِمَاتِ ، وَالمؤمنينَ والمؤمنَاتِ ، والقانتينَ والقانتَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، والصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ ، وَالمتصَدِّقِينَ وَالمُتَصَدِّقَاتِ والصَّائِمِينَ والصَّائِمَاتِ ، والحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ والحَافِظَاتِ ، والذَّاكِرِينَ اللهَ كثيراً والذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لهمْ مغْفِرَةً وأَجراً عظيماً .

إِنَّ الإِنْسَانَ خلِقَ هَلُوعا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً . وإِذَا مَسَّهُ الخَيْر مَنُوعا . إلا المُصلِّينَ . الذين هُم على صلاتهم دائمونَ . والذين في أَمْوَالهِمْ حَقٌّ مَعْلُوم للسائِلِ والمَحْرُومِ . والذين يُصَدِّقُونَ بيوم الدِّينِ . والذين هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهم مشْفِقُونَ . إن عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُون . والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِم حافِظونَ . إلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ ، أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم فإنهم غير مَلُومِينَ . فَمَن ابْتَغَى وراء ذلك فأولئك هُمُ العَادُونَ ، والذين هُمْ لأماناتهم وَعَهْدِهِم رَاعُونَ ، والذين هم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ، والذين هُمْ عَلَى صَلاَتِهِم يُحَافِظُونَ . أولئك في جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ .

اللهم إِنَّا نَسْأَلكَ صُحْبَةَ الخَوْفِ ، وَغَلَبَةَ الشَّوقِ ، وثَبَاتَ العِلْمِ ، ودَوَامَ الفِكْرِ . ونسألك سِرَّ الأَسْرَارِ المَانِع من الاصْرَارِ حتى لا يكون لَنَا مَعَ الذنْبِ وَالعَيْبِ قرارٌ . واجْتَبِنَا وَاهْدِنا إلى العَمَلِ بهذه الكَلِمَاتِ التي بَسَطْتَهَا لنا على لِسَانِ رَسُولِكَ ، وابْتَلَيْتَ بِهن إبراهيمَ خَلِيلكَ فأَتَمَّهُنَّ قال إِنِّي جَاعِلُكَ للنَّاسِ إمَامًا قال وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قال لا يَنالُ عَهْدِي الظالمينَ ، فاجْعَلْنا من

المحْسِنِينَ مِنْ ذُرِّيتهِ ، ومن ذُرِّيةِ آدمَ ونوح . واسْلكْ بِنَا سبيل أئمةِ المهتــــدينَ .

وَاللهُ بَصِيرٌ بالْعِبَادِ ، الَّذِينَ يَقولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وقِنَا عَذَابَ النارِ ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بالْأَسْحَارِ .

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ رَبَّنا مَا خَلَقْتَ هذا باطلا سبحانكَ فَقِنَا عذابَ النَّارِ .

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَه وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِى للإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرِبكُمْ فَآمَنَّا . رَبَّنَا فاغْفِر لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ . وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ المِيعَادَ .

رَبَّنَا آتِنَا فى الدُّنْيَا حَسَنَةً وفى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا اغْفِر لَنَا ذُنوبَنَا واسْرَافَنَا فى أَمْرِنَا ، وثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ، وَانْصُرْنا عَلَى القومِ الـكافِرِينَ .

رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ على الذينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَالاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا واغفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فانْصُرْنا على القوم الـكافرينَ .

رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ .

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ ليوْمٍ لا رَيْبَ فيه إن اللهَ لا يُخْلِفُ المِيعَادَ . رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فاكْتُبنا مَعَ الشَاهِدِينَ .

وَمَا لنَا لاَ نُؤْمِنُ باللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ . فأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قالوا جنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خَالِدِينَ فيها وذَلِكَ جزاءُ المُحْسِنِينَ .

وقَالَ مُوسَى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ باللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ . فقالُوا على اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجعَلْنَا فِتْنَةً لِلقَوْمِ الظَّالِمِينَ . ونَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الكافِرِينَ .

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وهيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً .

رَبَّنَا آمَنَّا فاغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا وأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ .

رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كانَ غَرَامًا ، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمقامًا .

رَبَّنَا هبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا . رَبَّنَا وَسِعْتَ كلَّ شيءٍ رحْمَةً وعِلْمًا فاغْفِرْ للَّذِينَ تَابُوا واتَّبعوا سبيلك وقِهِمْ عَذَابَ الجحيم . رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جنات عَدْنٍ التِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِن آبائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العزيزُ الحكيمُ . وَقِهِمُ

السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ ، فَقَدْ رَحِمْتَهُ وذلِكَ هُوَ الفوْزُ العَظِيمُ .

رَبَّنَا اكْشِفْ عَنا العَذَابَ إنَّا مؤمِنُونَ .

رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بالإِيمَانِ ، ولا تَجْعَلْ في قلوبِنا غِلا لِلذِينَ آمنوا رَبَّنَا إنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ .

رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ . رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلذينَ كَفَرُوا واغفِرْ لَنَا رَبَّنَا إنكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ .

رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا واغفِرْ لَنَا إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قديرٌ .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . قُلْ هُوَ اللهُ أَحدٌ . اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لهُ كُفُواً أَحدٌ .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ . وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ إِلٰهِ الناسِ . مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ . الذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الناسِ . مِنَ الجِنَّةِ و النَّاسِ .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المغضوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ .

الحَمْدُ لِلهِ الذى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ و النُّورَ، ثُم الذينَ كفَروا بِرِبِّهِمْ يَعْدلون . هو الذى خَلقَكُمْ من طِينٍ ثمَّ قضى أَجَلا وأَجلٌ مُسمى عندَهُ ثم أَنْتُم تمْتَرُونَ . وهو اللهُ فى السمٰوات وفى الأرضِ يعْلمُ سركُمْ وَجَهْرَكُمْ ويعلَمُ ما تكسبونَ .

الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذا وَمَا كُنَّا لِنَهتدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ . لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بالْحَقِّ .

إِنَّ الَّذينَ آمنوا وعمِلوُا الصَّالحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بإِيمانِهِمْ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الأنهارُ فى جَنَّاتِ النَّعِيمِ . دَعْواهُمْ فِيها سُبحَانكَ اللهُم وتحيتُهُم فِيهَا سَلاَمٌ وآخِر دَعْوَاهُمْ أَن الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالمِينَ .

وقُلِ الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي لمْ يتَّخِذْ وَلداً . وَلَمْ يكُنْ لَهُ شريكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذلِّ وَكَبِّرْهُ تكبيراً .

الحَمْدُ لِلهِ الَّذى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَاب وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قِيماً لِيُنْذِرَ بأْساً شديداً منْ لدُنْهُ وَيُبَشِّر المؤمِنينَ الذينَ يَعْمَلونَ الصَّالحاتِ أَن لَهم أَجراً حَسَناً ما كِثِينَ فِيهِ أَبداً .

قُل الحمدُ لِلهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذينَ اصْطَفَى اللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ.

الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي لَهُ مَافِى السَّموَاتِ وَمَافِى الأَرْضِ وَلَه الحَمْدُ فى الآخِرةِ وَهُوَ الحكِيمُ الخبِيرُ يَعْلَمُ ما يَلجُ فى الأَرضِ وَما يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الغَفُورُ .

الحَمْدُ لِلهِ فَاطِرِ السَّمٰواتِ والأَرْضِ جَاعِلِ الملائِكةِ رُسُلاً أُولِى أَجْنِحةٍ مَثْنَى وَثلاثَ وَرُبَاعَ يزيدُ فى الخلقِ مَا يَشَاءُ إن اللهَ عَلَى كل شىءٍ قديرٌ .

مَا يَفْتَحِ اللهُ للنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ .

ضَرَبَ اللهُ مَثَلا عَبْداً مَمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شىءٍ وَمَنْ رزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ منه سِرًّا وَجَهْراً هلْ يَسْتَوُونَ الحَمْدُ للهِ بَل أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ .

ضَرَبَ اللهُ مَثَلا رَجُلا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرجلا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ .

وَقَالُوا الحَمْدُ لِلهِ الَّذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ من الجَنةِ حَيْثُ نَشَاءُ فنِعْمَ أجر العَامِلِينَ . وَتَرى الملائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وَقِيلَ الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

فَللهِ الحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوَاتِ ورب الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ .

فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الحَمْدُ فى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ . يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيتِ وَيُخْرِجُ الْمَيتَ مِنَ الْحَىّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ .

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

حزب البر

المعروف بالحزب الكبير(١)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِذَا جاءكَ الذين يؤمنون بآياتنا فَقُل سلامٌ عليكم كتبَ ربكم عَلَى نفسِه الرحمةَ أنه مَنْ عمل منكم سوءاً بجهالةٍ ثم تاب من بعدِهِ وأصلحَ فأنَّه غفورٌ رحيمٌ .

بديعُ السموات والأرض أنّى يكونُ له ولدٌ ولَمْ تكن لَهُ صاحبةٌ وخلق كلَّ شيْءٍ وهو بكل شيءٍ عليمٌ .

ذلكم الله ربكم لا إِلَهَ إلا هو خالقُ كل شيءٍ فاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيءٍ وَكيلٌ . لا تُدْرِكُهُ الأبصارُ وهو يُدرِكُ الأبصارَ وهو اللطيف الخبيرُ .

آلم .

كهيعص .

حم . عسق .

ربِّ أحكم بالحقِّ وربُّنا الرحمنُ المستعانُ عَلَى ماتصفُونَ .

طه . ما أنزلنا عليكَ القرآنَ لِتَشْقى . إلا تذكرة لِمَنْ يَخشَى ،

---

(١) الوقت المختار لهذا الحزب – في العرف الشاذلي – بعد صلاة الصبح . ولا يتكلم حال تلاوته ، وقد روى عن أبي الحسن أنه قال عنه : من قرأ حزبنا فله ما لنا وعليه ما علينا .

تَنْزِيلا مِمَّنْ خلقَ الأرضَ والسموات العُلى ، الرحمن على العَرْشِ استوى . له ما فى السموات وَمَا فى الأرْضِ وما بَيْنَهُما وما تحْتَ الثَّرَى ، وإنْ تَجْهَرْ بالقَوْلِ فإنَّه يعلم السر وأخفى ، الله لا إلهَ إلا هو له الأسماء الحُسْنَى .

اللهم انك تعلم أنِّى بالجهَالَةِ مَعْروفٌ وأنت بالعِلْمِ مَوْصُوفٌ وقد وَسِعْتَ كلَّ شىء من جَهَالَتِى بعِلْمِكَ فَسَعْ ذلك برحْمَتِكَ كما وَسِعْتَهُ بعِلْمِكَ وَاغفِرْ لِى إنك على كل شىء قدير .

يا اللهُ يا مَالِكُ يا وَهَّابُ هَبْ لنا مِن نُعْمَاكَ مَا عَلِمْتَ لنا فيه رِضَاكَ وَاكْسُنَا كِسْوَةً تَقِينَا بها مِنَ الفِتَنِ فى جميع عَطَاياكَ وَقَدِّسْنا عن كل وصفٍ يُوجِبُ نقْصا مِمَّا اسْتَأْثَرْتَ به فى عِلْمِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ .

يا أللهُ يا عظيمُ يا عليُّ يا كبيرُ . نسألُكَ الفَقْرَ مِمَّا سِوَاكَ . والغِنَى بِكَ حتَّى لا نَشْهد إلاَّ إيَّاكَ . والْطُف بنا فيهِمَا لُطْفا علمْتَه يَصْلُحُ لمن وَالاكَ . واكْسُنَا جلاَبِيبَ العِصْمَةِ فى الأنفَاسِ واللَّحظاتِ ، واجعلْنا عبيداً لك فى جميع الحالاتِ . وَعَلِّمْنا من لَدُنْكَ علما نَصِيرُ به كامِلِينَ فى المَحْيَا والمَمَاتِ .

اللهم أنت الحميدُ الربُّ المجيدُ الفَعَّالُ لما تُرِيدُ ، تعلمُ فَرَحَنا بمَاذا ولمَاذا وعلى مَاذا وَتعْلَمُ حُزْنَنَا كذلك ، وقد أوجَبْتَ كَوْنَ ما أَرَدْتَه فِينا ومِنَّا ، ولا نسألُك دفْعَ ما تُرِيدُ ولكن نسألُكَ التَّأْييدُ برُوحٍ من عندك فيما تريد كما أيَّدْتَ أنبياءَكَ وَرُسلكَ وَخاصَّةَ الصدِّيقِينَ من خلقِكَ إنك على كل شىء قديرٌ .

اللَّهُمَّ فاطر السموات والأرضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهادةِ أَنتَ تحكمُ بيْنَ عِبادِكَ : فهنيئاً لمن عرفكَ فرَضِيَ بقضائِك ، وَالوَيْلُ لِمَنْ لَمْ يعرِفْكَ ، بل الوَيْلُ ثم الويل لمن أقر بوَحْدَانيتِك وَلم يَرْضَ بأحكَامِكَ .

اللهم إنَّ القوْمَ قد حَكَمْتَ عليْهِمْ بالذُّلِّ حتى عَزُّوا ، وحكَمْتَ عليهم بالفَقْدِ حتى وَجَدُوا ، فكل عز يمْنَع دونك ، فنسألُك بدَله ذُلا تصْحبُهُ لطائِفُ رحمتِك ، وكل وَجْدٍ يحْجُب عنك ، فنسألُك عِوضَهُ فَقْدا تصحَبُه أنوار محَبَّتِكَ ، فإنه قد ظَهَرَتِ السَّعَادةُ على من احْبَبْتَه ، وَظَهَرَتِ الشقاوَةُ على مَنْ غَيْرُك ملَكَهُ ، فَهَبْ لنا مِنْ مَوَاهِبِ السُّعداءِ ، واعْصِمْنا من مَوارِدِ الأشْقِياء .

اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضُّرِّ عن أنفُسِنَا من حَيْثُ نعلمُ بما نعلَمُ ، فكيف لا نعجزُ عن ذلك من حيث لا نَعْلَمُ بما لا نعلَمُ ، وقد أَمَرْتنَا ونهيْتنَا ، وَالمدْحَ والذم الزمْتنَا ، فأخو الصَّلاَحِ مَن أَصْلَحْتَه ، وأخو الفسَاد من أَضْلَلْتَه ، وَالسعيدُ حقا من أَغْنَيْتَهُ عن السؤالِ منك ، والشقيُّ حقا من حرَمْتَهمع كَثرَةِ السؤالِ لك ، فاغْنِنا بفضلِكَ عن سُؤالِنَا منك ، ولا تحْرِمْنا من رحمتك ، مع كثْرةِ سؤالِنَا لكَ ، إنكَ على كلِّ شيء قديرٌ .

يا شديدَ البطشِ ، يا جبَّارُ يا قهَّارُ يا حكيمُ ، نعوذُ بكَ من شرِّ ما خلَقْتَ ، ونعوذ بك من ظُلْمَة ما أَبدَعْتَ ونعوذ بك من كَيْدِ النُّفُوسِ فيما قدرْتَ وأردْتَ ، ونعوذ بك من شر الحُسَّادِ على ما أَنعَمْتَ ، ونسألُك عِز الدنيا والآخرة ، كما سألَكه نبيُّك سيدُنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، عِز الدنيا بالإيمَانِ وَالمعرفَةِ ، وعِزَّ الآخرةِ باللقاء والمشاهدةِ إنك سميعٌ قريبٌ مجيبٌ .

اللهم انى أقدِّمُ إليك بينَ يدىْ كل نَفَسٍ وَلَمْحَةٍ وَطرْفَةٍ يطرِفُ بها أهلُ السموات وأهلُ الأرضِ وكلِّ شىء هو فى عِلمِك كائنٌ أو قد كانَ ، أقدِّمُ اليك بين يدىْ ذلك كله ﴿ اللهُ لاَ إِلٰهَ إلا هو الحىُّ القيُّومُ لا تأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ له ما فى السموات وما فى الأرْضِ مَنْ ذَا الذى يَشْفَعُ عندَهُ إلا بإذْنِه يعْلَمُ ما بين أَيْدِيهِم وما خَلْفَهُمْ ولا يُحيطُونَ بشىء من علْمِه إلا بما شاء وَسِعَ كُرْسيُّهُ السموات والأرض ولا يؤُودُه حفْظُهُمَا وهو العلىُّ العظيمُ ﴾ .

أقْسَمْتُ عليْك بِبَسْط يدَيْك وكرَمِ وجْهِك ، وَنُورِ عَيْنَيْك ، وكمَالِ أعيُنِك أن تعطِيَنَا خير ما نفِذَتْ به مَشيئَتُك ؛ وتعلَّقتْ به قدْرَتُك ، وأحاطَ به عِلمُك ، واكفِنا شرَّ ما هو ضِدٌّ لذلك ، واكْمِلْ دينَنا ، وأتِمِمْ علينا نِعمَتَك ، وهَبْ لَنَا حِكْمَةَ الحِكْمَةِ البَالِغَةِ ، مَعَ الحيَاةِ الطيبَةِ ، والموتةِ الحسَنَةِ ، وتَوَلَّ قَبْضَ أرواحِنَا بِيَدِكَ ، وحُلْ بيننَا وبيْنَ غيرِكَ فى البرزَخ وما قَبْلَهُ وما بعدَهُ بنُورِ ذاتِك وعظِيم قدرَتِك وجميلِ فضْلك إنك على كل شىء قديرٌ .

يا اللهُ يا علِىُّ يا عظِيمُ يا حلِيمُ يا حكِيمُ يا كَرِيمُ يا سمِيعُ يا قرِيبُ يا مُجيبُ يا ودُودُ حُل بيْننَا وبيْنَ فتْنةِ الدنْيَا وَالنِّسَاء وَالغَفْلَةِ والشَّهْوَةِ وظُلْمِ العبادِ وسُوءِ الخُلُقِ ، واغْفِر لنا ذنُوبنَا واقض عنَّا تَبعاتِنا ، واكشف عنا السُّوء ، ونجِّنا من الغمِّ واجعلْ لنا منْه مخرجا إنك على كل شىء قديرٌ .

يا اللهُ يا اللهُ يا اللهُ يا لطِيفُ يا رزَّاقُ يا قَوِىُّ يا عزِيزُ لك مقاليدُ السموات والأرض تبْسُطُ الرزقَ لمن تشاء وتقدِرُ ، فابْسُطْ لنا من الرزقِ

ما تُوصِّلُنَا بِهِ إلى رحْمَتِك ، ومن رحْمَتِك ما تَحُولُ بِهِ بيننَا وبَيْنَ نِقْمَتِك ، ومِنْ حِلْمِكَ ما يَسَعُنَا به عَفْوُكَ ، واخْتِمْ لنا بالسعَادَةِ التى خَتَمْتَ بها لأوْلِيَائِكَ ، واجْعَلْ خَيْر أيَّامِنا وأسعَدَها يومَ لقائِكَ ، وزَحْزِحْنَا فى الدنيا عن نار الشهْوَةِ ، وأدْخِلْنَا بفَضْلِك فى ميَادِينِ الرَّحْمَةِ ، واكْسُنا من نورِكَ جلاَبيبَ العِصْمَةِ ، واجعل لنا ظهيراً من عقولنا ومُهَيْمِناً من أرْواحِنا ومسَخِّرًا من أنفسنَا كى نُسَبِّحَك كثيراً ونَذْكُرَكَ كثيراً إنك كُنْتَ بنا بَصِيراً . وهَبْ لنا مُشاهَدَة تصحَبُها مُكَالَمَةٌ وافتح أسمَاعَنا وأبْصَارَنا واذكُرْنا إذا غَفَلْنا عنك بأحسنِ مما تذْكُرُنا بِهِ إذا ذكرْنَاكَ ، وارْحمْنا إذا عَصَيْناكَ بأتَمِّ مِمّا ترحمُنَا به إذا أطَعْناكَ ، واغفر لنَا ذنُوبَنَا ما تَقَدَّم منها وما تَأخَّر والطُفْ بنا لُطْفاً يَحْجُبُنَا عن غيْرِكَ ولا يحْجُبُنا عنك فإنك بكلِّ شىءٍ عليمٌ .

اللهم إنا نسألُك لسَانا رَطْباً بذِكْرِكَ ، وقلباً مُنَعَّماً بشكْرِكَ ، وبدَنا هَيناً ليناً بطاعَتِك ، واعْطِنَا مع ذلك مالا عَيْنٌ رأت ولاَ أُذُنٌ سمِعَت ولا خَطَرَ عَلَى قلبِ بشرٍ كما أخْبَر بِهِ رسُولُك صلى الله عليه وسلم حسَبَ ما عَلمْتَه بعِلْمِك واغنِنَا بلا سَبَبٍ واجْعَلْنا سَبَبَ الغِنىَ لأوليَائِك وَبَرْزخاً بينهُم وبيْنَ أعدائِك إنك على كلِّ شىءٍ قديرٌ .

اللهم إنا نسألُك إيمَانا دائماً ، ونسألُك قلْباً خاشِعاً ، ونسألُكَ علماً نافِعاً ، ونسألُك يقيناً صادِقاً ، ونسألك دِيناً قيِّماً ، ونسألُك العافية من كل بَلِيَّةٍ ، ونسألُك تمَامَ العافيةِ ، ونسألُك دَوَامَ العافِيَةِ ، ونسألُك الشكْرَ على العافيةِ ، ونسألك الغِنَى عن الناسِ .

اللهم إنا نسألك إيمانا دائماً ، ونسألك قلباً خاشعاً ، ونسألك علماً نافعاً ، ونسألك يقيناً صادقاً ، ونسألك ديناً قيّماً ، ونسألك العافية من كل بَليَّةٍ ، ونسألك تمامَ العافِيَةِ ، ونسألك دَوَامَ العافِيَةِ ونسألك الشكْرَ على العافيةِ ، ونسألك الغِنَى عن الناسِ .

اللهم إنا نسألك إيمانا دائماً ، ونسألك قلْباً خاشِعاً ، ونسألك علماً نافِعاً ، ونسألك يقيناً صادِقاً ، ونسألك ديناً قيِّماً ، ونسألك العافِيةَ من كل بَليَّةٍ ، ونسألك تمام العافية ، ونسألك دَوَامَ العافيةِ ، ونسألك الشكْرَ على العافيةِ ، ونسألك الغِنَى عن الناسِ .

اللهم إنا نسألك التوبة الكاملةَ ، والمغفرَةَ الشاملةَ ، والمحبَّةَ الكاملةَ الجامِعَةَ ، والخُلَّةَ الصافِيةَ ، والمعرفةَ الواسِعَةَ ، والأنْوَارَ الساطِعَةَ ، والشفاعَةَ القائِمَةَ والحُجَّةَ البالِغَةَ والدَّرَجَةَ العالِيَةَ ، وفُكَّ وثَاقنَا من المَعْصِيَةِ ورِهَانَنَا من النِّعْمَة بمواهب المِنَّةِ .

اللهم إنا نسألك التوبةَ ودَوامها ، ونعُوذُ بك من المَعْصِيَةِ وأسْبَابِهَا ، وذَكِّرْنَا بالخوْف منك قبلَ هُجُومِ خَطَرَاتِها ، واحمِلْنَا على النَّجاة منْها ومِنَ التَّفَكُّرِ فى طرائِقهاَ وامْحُ من قُلُوبنا حلاَوَةَ ما اجْتَنَيْنَاه منها ، واستبدِلْهَا بالكراهةِ لها ، والطَّعْمِ لِمَا هُوَ بِضِدِّها .

وأفض عَلَينَا من بحر كَرَمِك وعَفْوكَ حتى نَخْرُجَ من الدُّنْيَا على السلاَمَةِ من وَبَالِهَا واجْعَلْنَا عنْدَ الموْتِ ناطِقِينَ بالشهَادَة عَالِمِينَ بها ، وارأفْ بنا رأفَةَ الحَبِيبِ بِحَبِيبِه عِنْدَ الشَّدَائِدِ ونُزُولِهَا ، وأَرِحْنَا مِنْ

هُمُوم الدُّنْيَا وغُمُومِهَا بِالرَّوْحِ والرَّيْحَان إلى الجنَّةِ ونَعِيمِهَا .

اللهم إنا نسألك توبةً سابقةً منك إلينا لتَكُونَ توْبَتُنا تابِعَةً إليك مِنَّا وَهَبْ لنا التَّلَقِّى منك كتلقِّى آدمَ مِنْكَ الكلمات ليكُونَ قدوةً لولَدِهِ فى التَّوْبَة والأعْمَالِ الصَّالِحَاتِ ، وباعِدْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ العناد والإِصْرَارِ والشَّبَهِ بإبليسَ رأْسِ الغُوَاةِ واجعل سيآتِنَا سيآتِ مَنْ أَحْبَبْتَ ، ولا تجعل حسنَاتنا حسنَاتِ من أبغَضْتَ ، فالإحسانُ لا ينْفَعُ مع البُغْضِ منك ، والإسَاءَةُ لا تضرُّ مع الحُبِّ منك ، وقد ابهمْتَ الأمرَ علينا لنرجُو ونخافَ ، فآمِنْ خوفَنَا ولا تُخَيِّبْ رجاءَنَا واعطِنَا سؤْلَنَا فقد أعطَيْتَنَا الإيمَانَ من قبلِ أن نسألَكَ وكتَبْتَ وحبَّبْت وَزَيَّنْتَ وكَرَّهْتَ وَأطْلَقْتَ الألسُنَ بما بِهِ تَرْجَمَتَ ، فَنِعْمَ الرب أنْتَ فلك الحَمْدُ على ما أنْعَمْتَ ، فاغفر لنا ولا تُعاقِبْنَا بالسلْبِ بعد العطَاءِ ، ولا بكُفْرَانِ النِّعَمِ وحِرْمَانِ الرِّضا .

اللهم رَضِّنَا بقَضَائك ، وصَبِّرنَا على طَاعَتِك ، وعن مَعْصِيَتِك وعن الشهَواتِ المُوجِبَاتِ للنقْصِ أو البُعْدِ عنك وَهبْ لنا حقيقةَ الإيمانِ بك حتى لا نخَافَ غيْرَكَ ولا نرجُو غيْرَكَ ، ولا نُحِبَّ غيرَكَ ولا نَعْبُدَ شيْئاً سِوَاكَ ، وأوزِعْنا شكرَ نعمَائِك وغَطِّنَا بِرِدَاءِ عافيتِك ، وانْصُرْنا باليَقِينِ والتَّوَكُّلِ عليْكَ وأسْفِرْ وُجُوهَنَا بنُورِ صِفَاتِك ، وأَضْحِكْنَا وبَشِّرْنا يوْمَ القِيَامةِ بَيْنَ أوْلِيَائِك واجْعَلْ يدَكَ مبْسُوطَةً علينا وعلى أهْلِينا وأوْلادِنا ومن مَعَنا برحْمَتِك ، ولا تَكِلْنا إلى أنفسِنا طَرْفَةَ عَيْنٍ ولا أقلَّ من ذلك يا نعمَ المجِيبُ ، يا نعمَ المُجِيبُ ، يا نعْمَ المُجِيب .

يا مَنْ هُوَ هُوَ هُوَ فى عُلُوِّهِ قريبٌ يا ذا الجلالِ والإكْرَام ، يا مُحِيطاً

باللَّيالِي والأيامِ ، أشكُو إليك من غمِّ الحجَابِ وسُوءِ الحِسَابِ وشِدَّةِ العذاب ، وإن ذلك لوَاقِعٌ مالَهُ من دَافِعٍ إن لم ترحَمْني.

لا إله إلا أنْتَ سُبْحَانك انِّى كُنْتُ من الظَّالمِينَ .

لاَ إلهَ إلاَّ أَنْتَ سُبْحَانك إنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالمِينَ .

لاَ إلهَ إلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّى كُنْتُ مِنَ الظالمِينَ .

ولقد شَكا إليك يعقوبُ نخلصْتَه من حُزْنِه ورَدَدْتَ عليه ما ذَهَب من بَصَرِهِ وجَمعْتَ بينه وبين وَلَده ، ولقد نَادَاكَ نُوحٌ من قَبْلُ فنجَّيْتَه من كَرْبِهِ ، ولقد نَادَاك أيُّوبُ من بعدُ فَكَشَفْتَ ما بِهِ من ضُرِّه ، ولقد نادَاكَ يُونس فنجَّيْتَه من غَمِّه ، ولقد نادَاكَ زكريَّاء فوهَبْتَ له ولدا من صُلْبِه بعد يَأْس أهلِهِ وكِبَر سنِّه ، ولقد عَلمْتَ ما نزل بإبراهيمَ فأنقذْتَه من نار عدوه ، وأنْجَيْتَ لُوطًا وأهلهُ من العذاب النَازِل بقومه ، فهأنذا عبدُك ان تُعذِّبْنِي بجميع ما علِمْتَ من عذابك فأنا حقيقٌ به ، وإن تَرْحَمْنِي كما رحمتَهُم مع عظيم إجرَامِي فأنْتَ أولى بذلك وأحق من أكْرَمَ به ، فليس كرمُكَ مخصُوصًا بمن أطَاعَك وأقبل عليْك ،بل هو مبذُولٌ بالسَّبْقِ لمن شئْتَ من خلقك وان عَصاَك وأعرَضَ عَنْك ، ولَيْسَ من الكرمِ أن لا تُحْسِن إلاَّ لمن أَحْسَنَ إلَيْكَ ، وأنتَ المِفْضَالُ الغَنِيُّ بل من الكَرَمِ أن تُحْسِنَ إلى من أساءَ إليك وأنتَ الرَّحيمُ العلِيُّ ، كيف وقد أمَرْتَنَا أن نُحْسن إلى من أساءَ إلَيْنَا فأنت أولى بذلك منَّا .

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تغفِرْ لَنَا وَتَرْحمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسرِينَ ﴾ .

﴿ رَبَّنا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لنا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسرِينَ ﴾ .

يا الله يا اللهُ يا اللهُ يا رَحْمَنُ يا رَحْمَنُ يا رَحْمَنُ .

يا قَيُّومُ يا قَيُّومُ يا قَيُّومُ .

يا مَنْ هُوَ هو هو يا هُوَ إن لم نَكُنْ لرَحمتكَ أَهْلاً أن ننالها ، فرحمتك أهلٌ أن تنالنا يا ربَّاهُ ، يا ربَّاهُ ، يا ربَّاهُ .

يا مَوْلاَهُ ، يا مَوْلاَهُ ، يا مَوْلاَهُ .

يا مُغيث مَنْ عَصَاهُ ، يا مغيث من عصاه ، يا مغيث من عصاه ، أَغِثْنَا أَغِثْنَا أَغِثْنَا يا رب يا كريمُ ، وارْحَمْنَا يا بَرُّ يا رحيم ، يا من وسع كرسيُّه السمواتِ والأرضَ ولا يؤودُهُ حفظُهما وهو العليُّ العظيمُ .

أسألك الإيمانَ بحفظك إيماناً يَسْكُنُ به قَلْبي من هَمِّ الرِّزْقِ وخَوْفِ الخَلْق واقْرُبْ مِنِّي بقُدرتك قُربا تَمْحَقُ به عَنِّي كُلَّ حجاب مَحَقْته عن ابراهيم خليلك فلم يَحْتَجْ لِجبْريلَ رسُولك ولا لسُؤاله منك ، وحَجَبْتَه بذلك عن نار عَدُوِّه ، وكيف لا يُحْجَبُ عن مَضَرَّةِ الأعْداء مَنْ غَيَّبْتَهُ عن منْفَعَة الأحبَّاء ، كلاَّ إنِّي أَسْأَلُك أن تُغَيبِنِي بقُرْبك منِّي حَتَّى لا أَرَى ولا أُحسَّ بقُرْب شيء ولا بِبُعْدِهِ عَنِّي انك على كل شيء قديرٌ .

أَفَحَسِبْتُم أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إلينا لا ترْجَعُونَ فتَعَالى اللهُ

الملكُ الحقُّ لا إلٰهَ إلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكريم ، وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إلٰهًا آخرَ لا بُرْهَانَ لهُ بِهِ فإنَّمَا حِسَابُهُ عندَ رَبِّهِ إنهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ ، وقُل ربِّ اغْفِرْ وارْحَمْ وأَنتَ خَيْرُ الرَّاحمين .

هُوَ الْحَيُّ لا إلٰهَ إلاَّ هُوَ فادْعُوهُ مُخْلصينَ لهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للهِ ربِّ العَالمينَ .
إنَّ اللهَ وَملاَئِكَتَهُ يُصلُّونَ على النبيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صلُّوا عليه وسلموا تَسْلِيماً .

اللهم صلِّ وسلم على سيِّدِنا محمد وعلى آلِ سَيِّدِنَا محمد وبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا محمدٍ وعلى آل سيدنا محمد كَمَا صَلَّيْتَ وَبَارَكْتَ عَلَى سيدنا إبراهيمَ وعلى آل سيدنا إبراهيم فى العالمين إنَّكَ حميدٌ مَجيدٌ .

اللهم وارْضَ عن سَادَاتِنَا الْخلفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، أبي بكر الصديقَ وعُمَرَ ، وعُثْمَانَ ، وعَلى ، وارْضَ اللهم عن سيدنَا الحسَن ، وعن سيدنا الْحُسَيْنِ ، وعن أمِّهما فاطمة الزَّهْرَاء ، وعن الصَّحَابَةِ أجمعين ، وعن أزواج نبيكَ الطَّاهِرَاتِ أمَّهات المؤمنين ، وعن التَّابِعينَ ، وتابِعِيهِمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدين ، ولاَ حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العَظِيم .

وصلىَّ اللهُ تعَالى وسلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبيِّ الكريم .
سُبْحان ربك رَبِّ الْعِزَّةِ عمَّا يَصِفُونَ وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ والحمدُ لله ربِّ العَالمينَ .

حزب الشيخ أبى الحسن[1]

أعوذُ بالله من الشَّيْطانِ الرجيم ، بسم الله الرَّحمٰنِ الرَّحيم الْحَمْدُ لِلّهِ ربِّ العالمين الرحمٰنِ الرَّحيم . مالك يوم ِ الدين إيَّاكَ نعبدُ وإيَّاكَ نسْتعين . اهْدِنا الصِّراط المستقيمَ . صِرَاطَ الذين أنْعَمْتَ عليهِمْ غير المغضُوبِ عليهِمْ ولا الضَّالِينَ . آمينَ .

اللهُ لا إلٰهَ إلا هُوَ الحيُّ القيُّومُ لا تأخُذُهُ سِنَة ولا نَوْم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يَشْفَعُ عندَهُ إلا بإذنه يعلمُ ما بيْن أيدِيهِم وما خلْفَهُمْ ولا يُحيطُونَ بشىء من علمِهِ إلا بما شاء وسعَ كرْسِيه السمٰوات والأرض ولا يؤُوده حِفظُهما وهو العلىُّ العظيمُ .

آمن الرسولُ بما أُنْزِلَ إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمنَ باللهِ وملائِكتِهِ وكتبه ورُسلِهِ لا نفرِّقُ بيْنَ أحدٍ منْ رُسُله وقالُوا سمعنا وأطَعنا غُفْرانك ربنا وإليك المصيرُ . لا يُكلِّفُ اللهُ نفسا إلا وسعها لها ما كسَبَتْ وعليها ما اكتسَبَتْ ربنا لا تؤاخِذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحْمِل علينا إصْرًا كما حمَلْتَه على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تُحمِّلْنا مالا طاقَةَ لنا به ، واعْفُ عنا واغْفِرْ لنا وارْحمْنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

ألم . اللهُ لا إلٰه إلا هُوَ الحىُّ القيُّومُ . نَزلَ عليك الكتاب بالحق مصدِّقًا لما بين يديهِ وأنْزَلَ التَّوراةَ والإنجيل من قبل هدًى للناس وأنزل الفرقان ، إنَّ الذين كفروا بآيات الله لهُم عذاب شديدٌ واللهُ عزيزٌ

(١) هذا الحزب الجليل رواه ابن عطاء الله ، رضى الله عنه ، ولم يضع له اسما .

ذو انتقام . إن الله لا يَخْفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . هو الذى يُصَوِّرُكُمْ فى الأرحام كيف يشاء ، لا إلهَ إلا هو العزيزُ الحكيمُ .

قُل اللَّهُم مالك الملك تُؤتى الملكَ من تشاء وتَنْزِعُ المُلْك مِمَّنْ تشاء وتُعِزُّ من تشاء وتُذِلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قديرٌ . تُولج الليلَ فى النهار وتُولِجُ النهار فى الليل وتُخرِجُ الحىَّ من الميِّتِ وتخرج الميت من الحىِّ وتَرزُقُ من تشاء بغير حساب .

الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يُطْعِمُنِى ويسقين . وإذا مَرِضتُ فهو يشفين . والذى يُمِيتُنِى ثم يحيين . والذى أطمعُ أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . رب هَبْ لى حُكْمًا وألحِقنِى بالصالحين . واجعل لِّى لسان صدْقٍ فى الآخرين . واجعَلْنى من ورثةِ جَنَّةِ النَّعيم . واغفِر لأبى إنه كان من الضالين . ولا تخْزنى يوم يبعثون . يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنُون . إلا من أتى الله بقلبٍ سليمٍ ، وأزلفت الجنة للمتقين . وبرزت الجحيم للغاوين .

سَبَّحَ لله ما فى السموات والأرض وهو العزيزُ الحكيمُ . له ملك السموات والأرض يحيى ويميتُ وهو على كل شىء قديرٌ . هو الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكل شىء عليم . هو الذى خلق السموات والأرض فى ستَّةِ أيَّامٍ ثم استوى على العرش يعلم ما يلِجُ فى الأرض وما يخرجُ منها وما ينْزِلُ من السماء وما يَعْرُجُ فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير . له مُلْك السموات والأرض وإلى الله تُرْجَعُ الأمورُ . يولجُ الليلَ فى النهارِ ويولجُ النهار فى اللَّيلِ وهو عليمٌ بذات الصُّدُور .

هو اللهُ الذى لا إلهَ إلا هُوَ عالِمُ الغيب والشهادة هو الرَّحمنُ الرحيم .

هو الله الذى لا إلٰهَ إلا هو الملك القدُّوسُ السلام المؤمن المهيمن العزيزُ الجبار المتـكبرُ سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالِقُ البارئ المصورُ له الأسماء الحسنى يُسبح له ما فى السَّموات والأرض وهو العزيزُ الحـكيمُ .

والضحىٰ . والليل إذا سجىٰ . ما ودعك ربك وما قَلَىٰ . وللآخِرَةُ خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترْضىٰ . ألم يجدكَ يتيما فآوى . وَوَجَدَكَ ضالاً فهدى . وَوَجَدَكَ عائلا فأغنى . فأما اليتيم فلا تَقْهَرْ . وأما السائل فلا تَنْهَر . وأما بنعمة ربك فحدِّثْ .

ألم نشرحْ لكَ صدركَ . ووضعنا عنك وِزْرَكَ . الذى أنقضَ ظهرك . ورفعنا لك ذِكْرَكَ . فإن مع العُسْر يُسْرا . إن مع العُسْرِ يسرا . فإذا فرغت فانصَبْ وإلى ربك فارغب .

إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموَالهم بأَنَّ لهم الجنَّةَ يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقْتلُون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاسْتَبْشِرُوا بِبَيعِـكُمُ الذى بايعتم به وذلك هو الفوزُ العظِيمُ .

التائبون العابدون الحامدون السائحون الرَّاكِعُون السَّاجدون الآمرونَ بالمعروفِ والناهون عن المنـكرِ والحافظون لحدود الله وبَشِّرِ المؤمنين .

قدْ أفلح المؤمنُونَ . الذين هُمْ فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللَّغو معرضون والذين هم للزَّكاة فاعلُون . والذين هم لفروجهم حافظونَ . إلا على أزْواجهم أو ما مَلَـكت أيمَانُهُم فإنهم غيرُ ملومين . فمن ابتغَىٰ

وَراءَ ذلك فأولئك هُمُ العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعونَ . والذين هم على صلواتهم يحافظونَ . أولئك هم الوارثون . الذين يرثونَ الفردوسَ هم فيها خالدون .

إن المسلمين والمسلمات والمؤمنينَ والمؤمنات والقانتينَ والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدِّقات والصائمين والصائمَاتِ والحافظين فُرُوجَهُم والحافظات والذاكرين الله كثيرًا والذاكرَاتِ أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً .

إن الإنسان خُلقَ هَلوعًا . إذا مسه الشر جَزُوعاً . وإذا مَسَّهُ الخير منوعا . إلا المصلِّين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أمْوالهم حق مَعْلُوم . للسائل والمحروم والذين يُصَدِّقُون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مُشْفِقون . إنَّ عذاب ربِّهِمْ غير مأْمُون ، والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما مَلَكتْ أيمانهم فإنَّهُمْ غيرُ ملومين فمن ابْتَغَى وَرَاءَ ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك فى جنات مكرَمُون .

اللهم إنا نسألك صُحْبَة الخوف وغلبَة الشَوْقِ وثبَات العلم ودوام الفكر .

ونسألك سِرَّ الأسرارِ المانع من الاصْرَار حتى لا يكون لنا مع الذنب أو العيب قَرَار واجْتَبنا واهدنا إلى العمل بهذه الكلمات التى بَسَطْتَها لنا على لسان رسولك ، وابتليت بهن إبراهيم خليلك فأتمهن .

قال إِنِّى جَاعِلكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .

قال ومن ذريتى .

﴿ قَالَ لاَ ينالُ عهدى الظَّالمين ﴾ .

فاجعلنا من المحسنين من ذريته ومن ذرية آدم ونوح واسلك بنا سبيل أئمة المتقين .

باسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وعلى الله فليتوكل المتوكلون .

حسبي الله آمنت بالله ، رضيت بالله ، توكلت على الله ، ولا قوة إلا بالله أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، رب اغفر لى وللمؤمنين والمؤمنات .

والحمْدُ لله ربِّ العالمين . الرَّحمن الرحيم . مالك يوم الدين إيَّاكَ نعبد وإياكَ نستعين إهـــدنا الصراط المستقيمَ . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضَّالين .

قُل الحمد لله وَسلَام على عباده الذينَ اصْطَفَى .

رَب إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً فاغفر لى وتب على لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين .

يا الله يا على يا عظيم يا حليم يا عليم يا سميع يا بصير يا مريد يا قدير يا حى يا قيوم يا رحمن يا رحيم يا من هو هو يا هو يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن تبارك اسم ربك ذى الجـلال والإكرام .

اللهم صلنى باسمك العظيم الذى لا يضر معه شيء فى الأرض ولا فى السماء وهب لى منه سرا لا تضر معه الذنوب شيئا واجعل لى منه وجها

تقضى به الحوائج للقلب والعقل والروح والسر والنفس والبدن ووجها ترفع به الحوائج من القلب والعقل والسر والروح والبدن والنفس وادرج أسمائى تحت أسمائك ، وصفاتى تحت صفاتك ، وأفعالى تحت أفعالك درج السلامة واسقاط الملامة وتنزل الكرامة وظهور الإمامة وكمل لى ما ابتليت به أئمة الهدى من كلماتك واغننى حتى تغنى بى وأحينى حتى تحيي بى ماشئت ومن شئت من عبادك واجعلنى خزانة الأربعين ومن خلاصة المتقين واغفرلى فانه لا ينال عهدك الظالمين.

طس .

حم عسق .

مَرَجَ البَحْرين يَلْتقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخ لا يَبْغِيَانِ .

الْحَمْدُ لله رب العالمين . الرَّحمن الرَّحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهمْ غير المغضوب عليهم ولا الضَّالين .

قل هو اللهُ أحد. الله الصمدُ . لمْ يلِدْ وَلَمْ يولدْ . وَلَمْ يكُنْ له كفوا أحد .

قُلْ هُو اللهُ أحد اللهُ الصمدُ . لم يلد ولم يولَدْ . ولم يكن له كفوا أحد .

قُلْ هُو اللهُ أَحد اللهُ الصمدُ . لم يلد ولم يُولَدْ . ولم يكُنْ له كفوا أحد .

نصائح لأبى الحسن

كن متمسكا بهذه الصفات الحميدة تفز بسعادة الدارين :

لا تتخذ من الكافرين وليا ، ولا من المؤمنين عدوا . وارتحل بزادك من التقوى فى الدنيا وعد نفسك من الموتى . واشهد لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة . وحسبك عمل صالح وإن قل ؛ وقل : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وقل : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . فمن كان متمسكا بهذه الصفات الحميدة ضمن الله عز وجل له أربعة أمور فى الدنيا :

الصدق فى القول ، والإخلاص فى العمل ، والرزق كالمطر ، والوقاية من الشر ؛

وأربعة أمور فى الآخرة :

المغفرة العظمى ، والقربة الزلفى ، ودخول جنـــة المأوى ، واللحوق بالدرجة العليا .

فإن أردت الصدق فى القول فداوم على قراءة (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) .

وإن أردت الرزق كالمطر فداوم على قراءة (قل أعوذ برب الفلق) .

وإن أردت السلامة من شر الناس فداوم على قراءة (قل أعوذ برب الناس) .

وإن أردت جلب الخير والرزق والبركة فداوم على قراءة بسم الله الرحمن الرحيم . الملك الحق المبين هو نعم المولى ونعم النصير ، وقراءة سورة «الواقعة» وسورة « يس » .

وإن أردت أن يجعل الله لك من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ويرزقك من حيث لا تحتسب فالزم الاستغفار .

وإن أردت أن تأمن مما يروعك ويفزعك فقل : أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون .

وإن أردت أن تعرف أى وقت تفتح فيه أبواب السماء ويستجاب الدعاء فاشهد وقت نداء المنادى فأجبه ففى الحديث « من نزل به كرب أو شدة فليجب المنادى » وهو المؤذن .

وإن أردت أن تسلم من أمر يكربك ، فقل توكلت على الحى الذى لا يموت أبداً ، والحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً .

وإن أردت أن تنجو من هم أو غم أو خوف يصيبك ، فقل :

اللهم إنى عبدك ، وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فىّ حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى .

وإن أردت أن يداويك الله من تسعة وتسعين داءا أيسرها اللمم فقل لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وإن أردت أن تؤجر بما يصيبك من مصيبة فقل : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ .

وإن أردت أن يذهب همك ويقضى دينك فقل إذا أصبحت وإذا أمسيت :

« اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » .

وإن أردت أن توفق للخضوع والخشوع ، فاترك فضول النظر .

وإن أردت أن توفق للحكمة فاترك فضول الكلام .

وإن أردت أن توفق لحلاوة العبادة فاترك فضول الطعام ، وعليك بالصوم وقيام الليل والتهجد فيه .

وإن أردت أن توفق للهيبة فاترك المزح والضحك فإنهما يسقطان الهيبة .

وإن أردت أن توفق للجنة فاترك فضول الرغبة فى الدنيا .

وإن أردت أن توفق لإصلاح عيب نفسك فاترك التجسس على عيوب الناس ، فإن التجسس من شعب النفاق كما أن حسن الظن من شعب الإيمان .

وإن أردت أن توفق للخشية فاترك التوهم فى كيفيات ذات الله تعالى تسلم من الشك والنفاق .

وإن أردت أن توفق للسلامة من كل سوء فاترك الظن السيىء بكل الناس

وإن أردت المنزلة فاترك الاعتماد على الناس وتوكل على الله .

وإن أردت أن لا يموت قلبك فقل كل يوم أربعين مرة : ياحى ياقيوم لا إله إلا أنت.

وإن أردت أن ترى النبى ، صلى الله عليه وسلم ، يوم القيامة ، يوم الحسرة والندامة فاكثر من قراءة (إذا الشمس كورت) و (إذا السماء انفطرت) و (إذا السماء انشقت) .

وإن أردت أن ينور الله وجهك فداوم على قيام الليل .

وإن أردت السلامة من عطش يوم القيامة فلازم الصوم .

وإن أردت أن تسلم من عذاب القبر فاحترز من النجاسات واترك أكل المحرمات وارفض الشهوات .

وإن أردت أن تكون غنياً فلازم القناعة .

وإن أردت أن تكون خير الناس فكن نافعاً للناس .

وإن أردت أن تكون أعبد الناس فكن متمسكا بقوله صلى الله عليه وسلم :

«من يأخذ عنى هذه الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن»
قال أبو هريرة أنا يا رسول الله فأخذ بيدى وعد خمساً قال : «إتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » .

وإن أردت أن تكون من المحسنين الخالصين فاعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

وإن أردت أن يكمل إيمانك فحسن خلقك .

وإن أردت أن يحبك الله فاقض حوائج إخوانك المسلمين .

وإن أردت أن تكون من المطيعين فأد ما فرض الله عليك .

وإن أردت أن تلقى الله تعالى يوم القيامة نقياً من الذنوب فاغتسل من الجنابة ولازم غسل الجمعة .

وإن أردت أن تحشر يوم القيامة فى النور الهادى وتسلم من الظلمات فلا تظلم أحداً من خلق الله تعالى .

وإن أردت أن تقل ذنوبك فالزم الاستغفار .

وإن أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله .

وإن أردت أن يستر الله عليك فاستر عيوب الناس .

وإن أردت أن تمحى خطاياك فأكثر من الاستغفار والخشوع والخضوع والحسنات فى الخلوات .

وإن أردت الحسنات العظام فعليك بحسن الخلق والتواضع والصبر على البلية .

وإن أردت السلامة من السيئات العظام فاجتنب سوء الخلق والشح المطاع.

وإن أردت أن يسكن عنك غضب الجبار فعليك بإخفاء الصدقة وصلة الرحم.

وإن أردت أن يقضى الله عنك الدين فقل ما قاله النبي ، صلى الله عليه وسلم:

« قل اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك واغننى بفضلك عمن سواك » .

وإن أردت أن تأمن من قوم خفت شرهم فقل :

اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ونعوذ بك من شرورهم » .

وإن أردت كثرة الخير والرزق فداوم على قراءة (ألم نشرح) و(الكافرون)

وإن أردت الستر من الناس فداوم على قول : اللهم استرنى بسترك الجميل الذى سترت به نفسك فلا عين تراك .

وإن أردت عدم الجوع والعطش فداوم على قراءة « لإيلٰف قريش) .

الفصل التاسع

خاتمة واعتراف

— ١ —

حينما بدأت فى تأليف هذا الكتاب فوجئت مباشرة بمشكلة : هى مشكلة الكرامات المنثورة فى كل الكتب القديمة التى أرخت لأبى الحسن ، وهى من الكثرة بحيث لا يمكن إغفال الحديث عنها .

هل أنقلها جميعاً وأدع مسئولية روايتها على الذين ذكروها ؟ .

وإذا ما نقلتها جميعاً فهل أكون بذلك قد أحسنت بالنسبة لأبى الحسن ، أم أكون قد أسأت بالنسبة إليه ؟ .

إن الكثير من المثقفين فى العصر الحاضر يمجون ذكر الكرامات هكذا بدون حساب ، وفى إسراف مسرف ، ومما لاشك فيه أن اتباع الولى اينما كان وأينما كانوا ، يحاولون الإشادة بذكره فيروون عنه الكرامات الكثيرة ، فيصادف ذلك قبولا وارتياحا عند البعض ، ونفوراً وإعراضاً عند الآخرين .

ولقد وصل الأمر ببعض المنكرين للكرامات أن أنكروا كل المعجزات الحسية التى ذكرت للرسول صلى الله عليه وسلم فى السنة الصحيحة وفى الأخبار التى محصها رجال الحديث ، واكتفوا ـ فى المعجزات ـ بالقرآن الكريم نافين كل شىء غيره مما ذكرته كتب الصحاح على اختلاف ألوانها .

إن روح الكثيرين فى العصر الحاضر تنادى بانكار الكرامات ، وتسخر فى وضوح أو فى إشارات بكل من يروى كرامة لولى .

هل أجارى هؤلاء أم أولئك ؟ .

ومع قيام هذه المشكلة أمامى فى وضوح فإننى لم أتردد قط فى أن أبدأ كتابى هذا ، بعد المقدمة ، بكرامة لأبى الحسن ـ تلك التى رواها أبو العباس رضى الله عنه ـ وما شككت قط فى ثبوتها ، وما شككت قط فى صحة النقل ، ثم وجدتنى أنقل هذه الكرامة فى مناسبة ، وتلك فى أخرى ، ولم أجد فى ضميرى عتاباً ،

ولا فى شعورى تراجعاً ، ولا فى ذوقى نفوراً . حقيقة أنى لم أنقل كل الكرامات، بل ولا أغلبها ، ولكنى نقلت منها ما رأيت له مناسبة فى كتابى .

لماذا لم أجد حرجا فى نقل بعض الكرامات فى كتابى هذا ؟ .

لمـــاذا ؟ .

للأسباب الآتية :

١ — إن القرآن الكريم يحدثنا فى أسلوب لا لبس فيه عن المعجزات التى تفضل الله بها على رسله وأنبيائه .

ويحدثنا عن الكرامات التى منحها سبحانه لأوليائه وأصفيائه .

ألم يحدثنا القرآن بصورة لا تحتمل التأويل بأن عيسى عليه السلام كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأنه كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى باذن الله ؟ .

ألم يحدثنا عن سيدنا موسى بأنه ألقى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون ، وبأنه أخرج يده فاذا هى بيضاء للناظرين ؟ .

وسيدتنا مريم ألم تحمل بسيدنا عيسى من غير أب خارقة بذلك قوانين الطبيعة ، وكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال : يامريم أنى لك هذا ؟ .

قالت : هو من عند الله .

٢ — ثم إن ما نسميه قوانين الطبيعة إنما هو فى الواقع «عادات» الطبيعة .

وخرقها ليس بمستحيل عقلا .

وخرقها لا يترتب عليه مستحيل .

وعادات الطبيعة لا تسيطر على رب الطبيعة .

٣ — ثم إن هؤلاء الذين تجرى على أيديهم المعجزات أو الكرامات لا ينسبونها لأنفسهم ، وإنما ينسبونها إلى المتفضل الوهاب ، صاحب القدرة والقهر ، إنهم ينسبونها إلى من هو على كل شيء قدير .

٤ — والملاحظ فى منكرى الكرامات على مر العصور ، أنهم يتميزون بألوان من الغلظة وقساوة القلب ، فلا تجد فيهم رقة الشعور ، ولا صفاء البصيرة ، ولا ملائكية الروح ، وهم — إن لم يكونوا من الملاحدة — من الصنف الذى لم يخالط الإيمان شغاف قلبه وإنما بقى صورة عائمة على السطح .

٥ — وجمهرة المسلمين على مر العصور ، عامتهم وخاصتهم ، وقممهم الشوامخ فى العلم والدين من الذين يثبتون الكرامات ويؤمنون بها .

تلك هى الأسباب العامة التى لم تجعلنى أتحرج من نقل بعض كرامات أبى الحسن .

وأضيف إليها بعض الأسباب الأخرى الخاصة ، وأضيفها لأواجه المشكلة فى صراحة ، أضيفها معلنا فى غير كبرياء ولا فخر بأننى من الأشخاص الذين لا تلعب بهم الأوهام ولا التخيلات ، ولم أكن فى يوم من الأيام فريسة أباطيل أو خرافات ، ولقد باعد الله سبحانه — وله الفضل والمنة — بينى وبين التأثر بالإيحاء الموهم .

فإذا أضفت أسباباً خاصة فإنما أضيفها عن يقين وثقة ولعل الله يهدى بها بعض من لا يزال فى قلوبهم الاستعداد للخير ، وفى أرواحهم أسس الاهتداء إلى الحق :

فى فترة من الفترات ابتلانى الله بموضوع شق على نفسى وعلى نفس المحيطين

بى ، واستمر الابتلاء مدة كنا نلجأ فيها إلى الله طالبين الفرج .

وذات يوم أتى عندى بعض الصالحين ـ وكان على علم بهذا الابتلاء ـ وأعطانى ورقة كتب فيها صيغة من صيغ الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إقرأها ، واستغرق فيها ، وكررها منفرداً فى الليل لعل الله يجعلها سبباً فى تفريج هذا البلاء .

والصيغه هى :

اللهم صل صلاة جلال وسلم سلام جمال على حضرة حبيبك سيدنا محمد ، وأغشه اللهم بنورك كما غشيته سحابة التجليات : فنظر إلى وجهك الكريم ، وبحقيقة الحقائق كلم مولاه (العظيم) الذى أعاذه من كل سوء .

اللهم فرج كربى كما وعدت : أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وعلى آله وصحبه آمين .

واعتكفت فى غرفة بعد صلاة العشاء ، وأضأت نور الغرفة ، وأمسكت الورقة بيدى وأخذت فى تكرار الصيغة واستغرقت فيها وإذا بى أرى فجأة أن الحروف التى كتبت بها الصيغة مضيئة تتلألأ نوراً ، ومع أن الغرفة كانت مضيئة فإن الحروف كانت تتلألأ نوراً فى وسط هذا النور .

ولم أصدق عينى فغمضتهما وفتحتهما عدة مرات فكان النور على ما هو ، فوضعت الورقة أمامى ووضعت يدى على عينى أدلكهما وأدعكهما ، ثم فتحت عينى فإذا بالحروف على ما هى عليه تتلألأ نوراً ، وتشع سناء .

فحمدت الله وعلمت أن أبواب الرحمة قد فتحت ، وأن هذا النور رمز ذلك وفعلا أزال الله الكرب وحقق الفرج بكرامة هذه الصيغة المباركة .

وأمر آخر من خوارق العادات شاهدته بنفسى :

فى ذات صباح كنت جالساً ، فى المنزل ، فى غرفة المكتب ، كعادتى ، وكنت فى تلك اللحظة مطأطىء الرأس ، ثم رفعت رأسى ناظراً أمامى وإذا بى أجد أمامى إنساناً فأخذت فى تأمله دون أن أشعر قط بخوف أو فزع :

كان طويلا ، أقرب إلى النحافة منه إلى السمنة يميل لونه إلى السمرة ، وعلى رأسه شال أبيض أو ما يسميه الحجازيون : « الغطرة » وكان فى وقفته منحنياً قليلا ، وقد تأملت ملابسه أيضاً فى تفاصيلها وشكلها .

لم يتحدث معى ، ولم أتحدث إليه .

وبعد فترة ونحن على هذا الوضع ، أنظر إليه فى تحديق ، ويمد عينيه إلى فى نظرات ثابتة أخذ يشف شيئاً فشيئاً ، وألاحظ أنا فى وضوح التدرج فى هذه الشفافية وانتهت الشفافيـــة بزواله تماماً دون أن يتحرك من موضعه . ذلك ما شاهدته بنفسى .

وماذا يكون خرق العادات غير هذا .

إن الذين ينكرون خرق العادات ، وينكرون الكرامات لأولياء الله ، إنما ينكرون شيئاً أثبتته تجارب الإنسانية منذ أن وجدت الإنسانية ، وأثبته القرآن الكريم ، وأثبته جمهور الأمة ، وقد رأيت أنا خرق العادات بنفسى وبعينى كما رويت سابقاً . . .

ومن أجل كل ذلك أثبت ما أثبت فى الكتاب من كرامات أبى الحسن وبدأته بعد المقدمة مباشرة ـ بكرامة من كراماته ، رواها أقرب تلاميذه ومريديه إليه وهو القطب الكبير أبو العباس المرسى الذى كان شاهد عيان فيها .

— ٢ —

وأمر آخر أريد أن أعترف به وأن أشرح وجهة نظرى فيه :

ذلك إنى لم أتحدث عن وسط أبى الحسن وبيئته الاجتماعية ، ولم أتحدث عن

شيوخه الذين يكثر بعض المؤرخين من ذكرهم ، اللهم إلا عن الولى الكبير سيدى عبد السلام بن مشيش .

وإذا كنت لم أتحدث عن الوسط ولا عن الشيوخ ، فإنما فعلت ذلك متعمداً إننى فعلته عن مبدأ وعن رأى قد ترويت فيه وتأملته .

إننى أرى فى صراحة أن هؤلاء الذين يكتبون عن الصوفية فيتحدثون عن الوسط والبيئة ، وعن الأساتذة والشيوخ ليقولوا بعد ذلك أن الصوفى تأثر وقلد وأخذ ، وأن فكرته هذه يدين فيها لفلان ، وفكرته تلك يدين فيها للوسط الفلانى . . . إن هؤلاء الذين يدينون بالآلية فى الفكر الصوفى أو بأن الصوفى مرآة تعكس صور المجتمع والمربين ، وتنعكس فيها أفكار المجتمع والشيوخ ، ويأخذون فى تحليل آراء الصوفى وتفصيلها وتشريحها من أجل أن يعزوا كل فكرة إلى مصدر يختلف عن مصدر الفكرة الأخرى للصوفى نفسه ، إن هؤلاء الذين يصنعون ذلك مخطئون .

فالصوفى لا يكون صوفياً بالقراءة ، أو الدراسة والبحث ، حتى ولو كانت هذه القراءة والدراسة فى الكتب الصوفية نفسها وفى المجال الصوفى خاصة . وقد يكون شخص من أعلم الناس بهذه الكتب : درسها دراسة باحث متأمل، وعرف قديمها وحديثها ، وميز بين الزائف منها والصحيح ، وصنفها زمناً وميزها أمكنة . . . وهو مع ذلك لا سهم له ، فى قليل ولا فى كثير ، فى المجالات الصوفية .

ولقد درس الإمام الغزالى كتب الصوفية المحققين ، درسها دراسة تعمق وتأمل ، لقد درس كتب الحارث المحاسبى ، وكتب أبى طالب المكى ، وماروى عن الجنيد ، وعن الشبلى ، وغيرهم ، ثم اعترف بأن ذلك لم يجعله صوفياً ، ولو اقتصر على القراءة ، مهما كانت عميقة ، لما كان له فى التصوف نصيب . ليس

قراءة كتب الصوفية سلما يرقى به الإنسان فى معارج القدس .

وابن سينا درس التصوف فى كتبه الأصلية ، وخالط الصوفية وتحدث إليهم ، وكتب فى التصوف فصولا توج بها كتابه الذى كان يعتز به وهو كتاب الإشارات والتنبيهات ... ومع ذلك فإن ابن سينا لم يصر بذلك صوفياً . ولم تجعله دراسته للتصوف وكتابته عنه فى عداد الصوفية .

ثم إنه قد يكون الصوفى أمياً لم يقرأ فلسفة ، ولم يجهد نفسه فى بحث .

والحديث إذن عن المصادر والبيئة والأساتذة والتقليد والتأثر ... فى مجال التصوف إنما يقوم على أساس فاسد ، وكل من ينهج هذا النهج من الكتاب عن التصوف إنما يسير فى طريق زائف ، ويقف فوق جدار منقض ، ويعتمد أسس تنقضها حياة الغزالى ، وحياة ابن سينا ، وحياة الخواص ، وحياة العشرات غير هؤلاء .

هذا الطريق الزائف سار فيه المستشرقون ، وحاولوا ما استطاعوا أن يقفوا بكل فكرة فى الجو الصوفى عند مصدر أجنبى ، وأن يجدوا فى تراث كل صوفى مسلم ألواناً من أفكار سابقة فى الزمن مختلفة أو متحدة فى البيئة . سار المستشرقون فى هذا الطريق الضال فضلوا وأضلوا .

لقد ضلوا ولم يتأت لهم — بعد أكثر من قرن ونصف — أن يصلوا إلى نتائج موحدة ، أو يقينية ، أو شبه يقينية ، بل لقد ظهروا بمظهر لا يغبطون عليه ، وذلك أن الكثير منهم كان يرى الرأى اليوم : يؤيده بما شاء من كل شاردة وواردة ، ويتلقف من أجله كل خبر ورواية ، ويخرجه للناس على أنه الحق الذى لا مراء فيه ، ثم ينقضه هو نفسه من الغد ، فيخرج برأى آخر مغاير : يؤيده بما شاء من كل شاردة وواردة ، ويتلقف من أجله كل خبر ورواية .

لقد فعل ذلك المستشرق « ثولك » فأعلن مجوسية التصوف الإسلامى ثم عدل عن ذلك وأعلن إسلاميته .

وفعل ذلك « نيكولسن » فأعان أفلاطونية التصوف الإسلامى ثم أعان إسلاميته فى جوهره . . .

وأخذ المستشرقون يتحدثون عن مشكلة وهمية هى مشكلة مصادر التصوف ولا يزالون مختلفين .

وجارى الشرقيون المستشرقين فى الحديث عن مصادر التصوف وكما اختلف المستشرقون فقد اختلف الشرقيون ولا يزالون مختلفين .

سيستمر الخلاف لأن النقاش إنما هو عن مشكلة وهمية ، وسيستمر الخلاف لأن وضع المشكلة خطأ .

إنهم يتحدثون عن مصادر ثقافية على اعتبار أن التصوف ثمرة ثقافة كسبية ، وما دام ثمرة ثقافة كسبية فإنه إذن يتأثر بالوسيلة التى أدت إليه ، أى بالثقافة الكسبية التى كان ثمرة لها .

ولكن التصوف ليس ثمرة لثقافة كسبية ، إن الوسيلة إليه ليست هى الثقافة ، ولكن الوسيلة إليه إنما هى العمل ، إن الطريق إليه إنما هو السلوك .

والمعرفة الناشئة عن العمل والسلوك هى إلهام . وهى كشف ، وهى ملأ أعلى انعكس على البصيرة المجلوة فتذوقه الشخص حالا ، وأحس به ذوقا ، وأدركه الهاماً وكشفاً .

فهل يتأتى والحالة هذه أن نتحدث عن مجوسية التصوف الإسلامى ، أو عن أفلاطونيته ، أو فارسيته ، أو هنديته ؟

سار المستشرقون فى طريق خطأ ، وجاراهم الشرقيون فضلوا بضلالهم ،

بيد أن المؤسف هو أن الناس ألفوا الحديث عما سماه المستشرقون مصادر التصوف الإسلامى ، وشارك فى الحديث عنها القارئون والسامعون ، وهكذا لبس الوهم صورة الجد ، واتخذ الزائف مظهر الصحيح ، وكان نقاش وكان جدل ، وما زال النقاش وما زال الجدل وسيستمر ذلك إلى أن يصحح الوضع .

وتصحيح الوضع إنما هو بحذف الوهم الذى اتخذ صورة الجد ، وبحذف الزائف الذى لبس مظهر الصحيح : أى بحذف ما يعبرون عنه بمشكلة « مصادر التصوف » .

ومن أجل ما تقدم لم أكتب عن « مصادر » أبى الحسن وإذا كنت قد كتبت عن سيدى عبد السلام بن مشيش فإنما كتبت عنه كموجه ، موجه فقط ، والموجه ليس هو الموحى وليس هو الملهم ، ليس الموجه بصيرة ترق وتشف ، ولا سراً يصير مرآة مجاوة يحاذى بها الصوفى شطر الحق ، ولا ملأ أعلى ينعكس على بصيرة الصوفى فيتذوقه ويحسه ويشهده ، ولا مبادىء تلقى فى الروع فيدركها الصوفى سارية فى كيانه كله .

* * *

لقد تحدثت عن سيدى عبد السلام بن مشيش كموجه ، ولا بد للسالك من موجه ، لابد له من شيخ يقوده ، لا بد له من خبير يرشده .

يقول الأستاذ رينيه جينو الفيلسوف الفرنسى المعروف :

« ولا بد فى التصوف من شرط جوهرى هو « التأثير الروحى » أو ، بتعبير أدق ، البركة « وهى لا تتأتى إلا بواسطة « شيخ » ومن هنا كانت « الطرق » ومن هنا كانت « السلسلة » .

وهل السلسلة إلا بركات تنتقل من شيخ إلى مريد يوشك أن يصبح شيخاً فيؤثر بدوره فى مريد أو مريدين ؟ » اهـ .

ويعنى الأستاذ رينيه جينو بالبركة « السر » الذى ينتقل من الشيخ إلى المريد حينما تلتقى يد المريد بيد شيخه معاهداً إياه على الاستقامة .

وإذا كان الأستاذ رينيه جينو يرى ضرورة الشيخ من أجل « السر » فإن الإمام الرازى يرى ضرورة الشيخ لأن :

« من سلك الطريق ، وعرف مراحلهـــا ومنازلها ، واطلع على متالفها ومعاطبها ، أمكنه إرشاد الغير إلى سواء السبيل ، والإخبار عن كيفية تلك الأحوال على التفصيل » اهـ .

إلام تستمر مهمة الشيخ ؟

إنها تستمر إلى أن يرتبط السالك بالسماء ، إلى أن يشرق عليه الملأ الأعلى ، إلى أن يتمكن فى المجال الروحى : ومن هنا كان طبيعياً أن يقول أبو الحسن ـ وقد سئل عن شيخه ـ « أما فيما مضى فكان سيدى عبد السلام بن مشيش .

وأما الآن فأستقى من عشرة أبحر خمسة سماوية ، وخمسة أرضية ، أما السماوية فجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح ، وأما الأرضية فأبو بكر وعمر وعثمان وعلى والنبى صلى الله عليه » اهـ .

وليس معنى ذلك انفصال المريد عن شيخه انفصالا تاماً ، وإنما معنى ذلك أن الشيخ رأى بنور الله أن تلميذه قد قطع الطريق ، وأنه أصبح جديراً بأن يرشد السالكين إلى الله ، فيأذن له بالإرشاد ، ويبارك خطواته وتوجيهاته فى الدعوة إلى الله ... ويشرق بذلك فى العالم نور جديد ، ويتألق فى سماء الروح كوكب مشرق ، وتسعد الإنسانية بهاد إلى الله ، ويغنى التراث الروحى للإنسانية بإشراقات جديدة قريبة العهد من الله .

— ٣ —

أما الأمر أو الأمور التى أريد أن أختم بها هذه المقدمة فهى أن حياة أبى الحسن الشاذلى حينما يتأملها أى إنسان فإنه سيجد فيها ما يصحح الأفهام الخاطئة الشائعة عن التصوف ، لقد أشاع الماديون على اختلاف ألوانهم كثيراً من الأباطيل ضد التصوف، وأخذوا يروجون لها فى كل مكان ، وبكل وسيلة ، فتعلقت بأذهان كثير ممن لم يصادفهم التوفيق فى الوصول إلى صورة صحيحة عن التصوف .

١ — من ذلك مثلا ما أذاعه ويذيعه الماديون من أن التصوف والكفاح ، أو التصوف والعمل ضدان لا يجتمعان ، أو من أن التصوف والتوا كل صنوان مؤتلفان ، وحياة أبى الحسن — وهى تمثل التصوف الصحيح — تهدم ذلك :

لقد كان عاملا فى الزراعة ، صاحب حقول ، وزرع وحصيد ، ودرس معنياً بتربية ما تحتاج إليه الزراعة من ثيران وماشية .

وعنى عناية شديدة بأمر المسلمين فى حروبهم ، حتى لقد كان دائماً فى قلب المعركة ، وفى ميدان الحرب مع الجيش والجند عاملا ومشجعاً .

وعنى عناية شديدة بقضاء مصالح المسلمين الضعفاء والمساكين ، وسعى جاهداً فى أن ييسر لهم — بتوفيق الله — ما تعسر ، ويحل لهم ما تعقد ، ويفرج من كرباتهم مهما لاقى فى سبيل ذلك من عنت حاكم أو عدم مبالاة صاحب جاه .

٢ — وأشاع الماديون أن التصوف والعلم لا يجتمعان ، أو أن التصوف والجهل صديقان .

وتلك فرية أيضاً تهدمها حياة أبى الحسن وحياة الغزالى ، وحياة هؤلاء

الصوفية الذين بلغوا فى العلم الذروة والسنام ، وكانوا من الكثرة بحيث لا يكاد يحصيهم المؤرخون مهما بالغوا فى الاستقصاء والبحث .

٣ — وأشاع أصحاب الطبائع الكثيفة ، هؤلاء الحسيون المغرقون فى التصور الحسى أن الصوفية لا يتابعون الكتاب والسنة ، ومن أجل الرد على هؤلاء عقدنا فصلا خاصاً عن ذلك يهدم زيفهم وأباطيلهم .

٤ — ثم لقد كان أبو الحسن أنيقاً فى ملبسه ، والله جميل يحب الجمال ، وكان لا يتزمت فى مأكله ومشربه ما دام حلالا طيباً ، والله سبحانه وتعالى يقول عن الملبس والمطعم :

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟

قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » .

والتصوف فى النهاية هو الاسترسال مع الله على ما يريد ، وهو متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم على ما يحب ، هذا باعتباره وسيلة وطريقاً .

وهو قرب من الله ومشاهدة التوحيد باعتبار الغاية .

ويلخص هذا وذاك شارحاً الطريق والغاية وراسماً حياة كل صوفى ، الحديث القدسى الذى نختم به هذا الكتاب ، وقد رواه إمام المحدثين أبو عبدالله البخارى فى أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى ، وهو :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه :

« من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب . وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب

إلى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذ بى لأعيذنه .

هذا وبالله التوفيق .

١١ من ربيع الأول سنة ١٣٨٧ — ١٩ يونية سنة ١٩٦٧ .

الباب الثاني

العارف بالله
الشيخ عبد الواحد يحيى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ .

نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ، نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِين .

وَلا تَسْتَوِى الحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئةُ ادْفع بالَّتِى هِيَ أَحْسَن ، فإِذَا الَّذِى بينك وبينه عداوة كأنهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ .

وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِين صَبَرُوا وَمَا يُلقَّاهَا إِلا ذو حَظ عَظِيم ﴾ .

[قرآن كريم]

مقدمة

كيف عرفت عبد الواحد يحي

إنى لأذكر ذلك اليوم المشمس الجميل من شهر يونيو سنة ١٩٤٠ : فقد صحوت من نومى مبكراً، أتأهب لخوض غمار معركة علمية هى: مناقشة رسالة الدكتوراه فى جامعة السربون . سرت فى طريقى ميمما شطر الجامعة . وكنت أينما ألتفت لا أجد إلا وجوهاً يجللها الوجوم ، ونفوساً يعروها الذعر ويطاردها الخوف : فقد كان الألمان يحثون الخطى إلى قلب باريس ، ويدكون ، فى عنف ، كل ما يعترضهم من قلاع وحصون ؛ ولكننى كنت مشغولا عن هذا كله بما يتردد فى نفسى ويجول بذهنى من اعتراضات ستلقى ونقد سيوجه . ووصلت إلى فناء السربون ، فإذا بى أجد صديقى بول ريڤوليتى — وهو من الروس البيض الذين هاجروا إلى باريس — ينتظرنى وبيده كتاب هو «صوفية دانت» وطلب إلى أن أوصله إلى الشيخ عبد الواحد يحيى فى مصر : إذ كان من المقرر عندى أن أسافر غداة ذلك اليوم الذى تناقش فيه رسالتى . حاولت أن أعرف من صديقى من هو الشيخ عبد الواحد يحيى ، فآثر الصمت متعمداً .

وانتهت المناقشة ، ومرت الأيام بخيرها وشرها وحلوها ومرها ، ووصلت فى النهاية إلى القاهرة . ولم يكد يستقر بى المقام فيها حتى يممت شطر ضاحية الدقى باحثاً عن الشيخ عبد الواحد . وفى شارع نوال (ڤيلا فاطمة) طرقت الباب : فأطلت الخادم التى أعطيتها الكتاب ، وطلبت إليها أن تستأذن فى مقابلة الشيخ . ثم وقفت أنتظر الإذن بالدخول فإذا بى أجد الخادم مقبلة نحوى ،

وبيدها مقعد من الخشب عليه مسحة الخشونة والشظف ، وتطلب إلىّ أن أنتظر هنيهة من الزمن .

وجلست أمام الباب فى الشارع أنتظر . الدقائق تمر والإنتظار يطول . أرى الخادم مقبلة فأتهيأ للدخول ، ولكنها تطالب منى أن أنصرف اليوم ، غير مطرود ، وأحضر فى الغد فى الساعة الحادية عشرة . فانصرفت متراخياً ، وفى نفسى دهشة ، وعلى وجهى شىء من طابع الخجل ، ومع ذلك فقد أثارت هذه الحادثة رغبتى فى أن أرى هذا الشيخ الذى يضع الكرسى فى الشارع للزائرين ، والذى يأمرهم بالإنصراف اليوم ليحضروا إليه فى الغد .

وحضرت من الغد فى الموعد المضروب . وكنت دقيقاً كالساعة . وطرقت الباب وفى قلبى إشفاق ، وفى نفسى تطلع إلى الدخول ، ولم يكن حظى فى هذا اليوم بأسعد منه فى اليوم السابق ، فقد صُرفت ولكن لا إلى موعد يبعث فى النفس الأمل ، بل أبلغت عن لسانه بأن أكتب إليه ما أريد وهو يتولى الرد على ما أحب .

وانصرفت بعد أن أضعت يومين فى محاولة لقائه . لم أكتب إليه : فلم يكن يهمنى رده وإجابته بقدر ما كان يهمنى لقاؤه . ثم لم أكتب إليه . وفيم أكتب إليه . ؟ . . ومرت الأيام ولم يزل من نفسى هذا التساؤل . . . من هو هذا الشيخ عبد الواحد يحيى ؟ .

وفى يوم من الأيام كنت أزور مسيو دى كومنين مدير البعثة العلمانية الفرنسية بمصر وهو شخص له خطره وأثره ومكانته فى الأوساط المصرية ، وجرى الحديث على السادة فى فنونه وشئونه ، وإذا به يسألنى هل أعرف رينيه جينو . فلما أجبت بالنفى أخذ يحدثنى عنه وعن إسمه الإسلامى ،

عبد الواحد يحيى . فحدثته بما كان بينى وبينه : فرجانى أن أعود إلى محاولة لقائه من جديد ، وأن أستأذن له كذلك فى لقائه . ولـكننى مع ذلك لم أجد فى نفسى عزيمة تدفعها إلى إعادة المحاولة . فقد كان الـكرسى الخشب لا يزال ماثلا أمام ناظرى . . . ومرت الأيام أيضاً .

وفى ذات يوم يحمل إلى البريد خطابا من أستاذ جليل يقول فيه : إن « مسيوهيكتور ماديرو » وزير الأرجنتين المفوض فى مصر قد زاره بمكتبه ، ورجاه فى أن يرشده إلى شخص يمكنه أن يتحدث معه عن الفلسفة الإسلامية ، والتصوف الإسلامى ولم أجد من يصلح لهذه المهمة سواك وطلب إلى أن أقابله ..

والتقيت بالوزير فـكان أول ما يستفسر عنه : أتعرف رينيه جينو ؟ ومر بذهنى مرة أخرى الـكتاب والـكرسى الخشبى وحديث مسيو دى كومنين ، وذكرت كل ذلك للوزير . وقال الوزير :

إنك قد وصلت إلى نقطة حاسمة ، هى معرفة بيته ، وفى هذا نصر عظيم إذ أن الصحفيين الفرنسيين والسويسريين وغيرهم يأتون إلى مصر فيجعلون من بعض مهامهم البحث عنه ويتجهون أول ما يتجهون نحو حى الأزهر وحى سيدنا الحسين أو السيدة زينب ولـكنهم لا يعثرون له على أثر ، فيعودون وفى نفوسهم حسرة ، لأنهم لم يقضوا وطراً شهياً من زيارة مصر .

وصح منا العزم ذات يوم ، أنا ومسيو ماديرو ، على أن نخترق الحجاب المضروب بيننا وبين الشيخ عبد الواحد . . .

لا أزال أذكر ذلك اليوم ، وكان يوم أحد ، حيث وقفنا أمام باب (ڤيلا فاطمة) ندق الجرس ، وبعد برهة إذا شيخ طويل القامة يكاد وجهه يضىء نوراً عليه سمت المهابة وطابع الوقار والجلال . تشع عيناه ذكاء وتنطق قسماته

بالصلاح والتقى ، إذ بهذا الشيخ يفتح الباب بنفسه ، ويقف أمامنا وجها لوجه : فألقينا إليه بالسلام فرد التحية . ثم سألنا عن مقصدنا فأبلغه الوزير سلام أحد أصدقائه ، فما إن سمع اسم صديقه حتى أذن لنا بالدخول . ودخلنا والتزم الشيخ الصمت . وقد كان من الممكن أن يكون الموقف حرجاً لولا دبلوماسية الوزير الذى أخذ يتحدث ويتحدث ذاكراً آراء الشيخ عبد الواحد ، مثنياً عليها ، مشيراً إلى دقتها . كل ذلك والشيخ عبد الواحد صامت لا يكاد ينبس ببنت شفة . وانتهت الجلسة ، وطلبنا إليه أن يسمح لنا بأن نعود لزيارته مرة أخرى : فأذن فى تلطف وفى رقة .

وحين عدنا إلى المفوضية بعد لقائه قال الوزير لعقيلته متبسطاً :

— لقد قابلنا اليوم شخصية هامة جداً : فمن تظنين ؟

— أحد الوزراء ؟

— أعظم

— رئيس الوزراء ؟

— أعظم

— ملك ؟

— أعظم

— ربنا ؟

— إنه على كل حال شخصية إلهية . إنه رينيه جينو

فقالت فى دهشة واستغراب : أحقاً ؟ يالكما من سعيدين

وعدنا وتكررت الزيارة ، وتحدث الشيخ عبد الواحد ، وأفاض فى الحديث ، وذكر لنا أن عزلته هذه إنما هى عزلة بالنسبة للمتطفلين الذين لا يرغبون إلا فى

إضاعة الوقت بالأحاديث الشخصية التافهة ، ولكنه وقد رأى فينا رغبة صادقة فى المعرفة فليس بيننا وبينه إذن حجاب .

واستطعنا بعد ذلك أن نخرجه من وكره ، وأن نصحبه إلى مسجد السلطان أبى العلا فى الليلة الكبيرة من مولده ، وجلسنا فى حلقة من حلقات الذكر . فأخذ يهمهم فى نفسه ويهتز ، ثم أخذ كلامه يبين واهتزازه يشتد : وإذا به يذكر مع الذاكرين فى نبرة واضحة وفى هزة رتيبة ، ثم إذا به ينغمس فى الذكر ويستغرق . ولم أكد أنبهه بعد فترة حتى انتفض انتفاضة قوية خِلْتُ أنها انتفاضة العائد من آفاق قضية مجهولة .

وتتابعت الأيام وسافر الوزير ومات الشيخ عبد الواحد . ولم يبق فى نفسى سوى الذكريات الجميلة .

ثم هيأ الله لى أن أطبع كتاب المنقذ من الضلال للإمام الغزالى فقدمت له بمقدمة فى منطق التصوف جعلت من بعض فصولها تلخيصاً لمقال عن التصوف بقلم الشيخ عبد الواحد . وقد نال هذا الفصل استحساناً كثيراً لدى القراء فشجعنى ذلك على أن أستفيض نوعاً ما فى دراسة الشيخ فكان هذا الجزء . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

الفصل الأول

جيد وجينو

حياة جينو

من تاريخ الحركة الصوفية فى مصر

عودة إلى حياة جينو

چيد وجينو

قال (١) صاحبي :

— تحدث مع چيد عن جينو : فإنه كثيراً ما يلتقى الآن بمريد مشهور هو السيد عبد الله .

كنت على صلة بالسيد عبد الله : فقد كان فرنسيا اعتنق الإسلام ، وكان ينتسب روحيا إلى جينو الذى كان يقيم حينئذ فى القاهرة ؛ وكانا يتبادلان الرسائل دون انقطاع .

كان جينو فى القاهرة ، الحلقة المركزية على ما يقولون التى تصل الشرق بالغرب فى الناحية الروحية . وكنت أنا وزوجتى قد أخذنا بحظ وافر من الثقافة التى كتبها جينو ، وكنت معجباً بآرائه ، واستمر هذا الإعجاب على مر الزمن .

لقد انتقل چيد وعبد الله وجينو ، من هذا العالم إلى حيث يلقون ربهم ؛ أما عبد الله ــ وكان يسمى بالفرنسية چورج ــ فقد توفاه الله فى مكناس : توفاه الله صوفياً ، وحيداً ، مضطجعاً على فراش صلاته ، مسجى فى ثيابه البيضاء ، وفى يده المسبحة .

لقد وجدوه نائماً على فراشه : عيناه مسبلتان ، وسبابته تشير إلى السماء .

كان عبد الله فى حياته يعيش عيشة الزاهد ، ويسير متواضعاً فى ثيابه النظيفة

---

(١) من حديث جرى فى الجزائر بين الكاتب الفرنسى : هنرى بسكو وبين أشهر كتاب فرنسا وأدبائها فى العصر الحديث : أندريه جيد ، نشرته مجلة : فرنسا — آسيا «باختصار» .

الطاهرة . كان متحدثاً لامعاً : وكان لحديثه ؛ وهو ينساب من بين شفتيه فى سهولة ويسر ، جاذبية لطيفة . كان قد تعلم لغة الضاد ، وكان يفهم نصوصها فى دقة . ولم يكن على شىء من العُجب أو الإدعاء الكاذب . وكان يضم بين جوانحه الإيمان الحار والتواضع المثالى .

قال صاحبى : تحدث مع چيد عن جينو . . وتحدثت . . .

قال چيد :

— إذا كان جينو على حق فإنه من الواضح أن كل آرائى تصبح عديمة القيمة : إنها تنهار انهياراً تاماً .

فقال أحد الحاضرين :

— ويرافقها فى الانهيار كثير من آراء أئمة الفكر : آراء الفيلسوف « منتنى » مثلا :

فاستغرق چيد فى التفكير ، وبدا عليه عدم الرضا بهذا الاحتمال ، بل بدا عليه القلق . ثم أعلن فى صراحة :

ـ إننى حقاً لا أجد شيئاً قط أعترض به على ما كتبه جينو ، إن ما كتبه لايتطرق إليه النقض .

وساد المجلس صمت عميق . ولم يجرؤ أحد على أن يتعرض لنقض ماأعلن جيد نفسه أنه لاينقض ؛ بل بدا على وجوه القوم الرضا بما قال جيد ، وإن كان ماقاله لم يكن متوقعاً .

وقطع جيد الصمت بتصريح لم نكن أيضا نتوقعه منه :

ـ لقد قضى الأمر ، وبلغت من الكبر عتيا ، وتخطيت السن التى كان من الممكن أن يقلب الإنسان فيها حياته رأسا على عقب .

وتابع حديثه :

ـ ثم إننى أحب الحياة : أحبها فى قوة ، وأحبها فى تنوعها ، ولا أريد أن أن أحرم نفسى من متعها مختلفة الألوان . لاأريد أن أضحى بكل ذلك فى سبيل الوحدة : الوحدة المبهمة ، اللامحدودة(١) .

ومما كتبه جيد بقلمه فى « جرناله » :

إن السيد عبد الله ، الذى اعتنق الإســـلام ، قد مهد لى الفرصة لقراءة كتب جينو(٢) .

ماذا كنت أصير لو صادفْتُ هذه الكتب فى ريعان شبابى ، فى ذاك الوقت الذى استغرقْتُ فيه فى قراءة « طريقة للوصول إلى الحياة السعيدة » ، فى ذاك الوقت الذى كنت أنتبه فيه إلى دروس الفيلسوف فيشت هادئا وديعا ؟

ولكن كتب جينو لم تكن قد ألفت حينئذ . وإذا كانت موجودة الآن فإن السن قد تقدمت بى ؛

---

(١) عن العدد ٨٠ من مجلة فرنسا ـ آسيا الخاص « بجينو » .

(٢) ألف جينو مايقرب من سبعة عشر كتابا بالفرنسية، وقد ترجم منها الكثير إلى اللغة الإيطالية والإنجليزية ، وترجم منها إلى الاسبانية والبرتغالية والألمانية .

ومن الطريف أن كتابين من كتبه قد ترجما إلى لغة التبت ، ولأجل أن تنتشر ترجمتها فى أكبر عدد ممكن وضعهما المترجم كشرح لوصية « الدالاى لاما » الثالث عشر .

وكان الشرح ـ وهو الترجمة ـ يبتدىء بالعبارة : قال لاما عظيم عربى . . ولم يدر بخلد أهل التبت شك فى أن هذا اللاما العربى العظيم كان يشرح حقيقة وصية رئيسهم الدينى .

« لقد قضى الأمر ولم يعد فى الإمكان عمل أى شىء » .

لم يعد فى الإمكان الرجوع القهقرى إلى سن الشباب المقدام : لقد أصبح ذهنى مجرداً عن المرونة ، وليس من السهل عليه أن يتقبل هذه الحكمة القديمة: حكمة جينو . إننى على مذهبى ديكارت وبيكون ، وسأظل كذلك .

حقا إن كتب جينو رائعة ، وإنه لعلى هــــدى فيما يتعلق بآرائه الخاصة بالنتائج السيئة للقلق الذى يسود العالم الغربى ؛ ولـكن المخاطرة الخطرة (الحضارة الحديثة) التى ألقينا بنفسنا فيها مجازفين غير متحفظين ، هى أهل لأن نتحمل من أجلها ماتثيره لنا من متاعب . ومع ذلك فإننا لانستطيع الآن ، ولو حاولنا، أن نعود إلى الوراء ، يجب أن نسير إذن فيما شرعنا فيه ، إلى الأمام ، وأن ننتهى به إلى غايته مهما كانت هذه الغاية . « انتهى باختصار » .

من هو جينو ؟ كيف كانت حياته ؟ وماهى آراؤه ؟

ذلك ماسآخذ فيه الآن إن شاء الله .

حياة جينو

ولد جينو فى بلدة بلوا[١] فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٨٦ من أسرة فرنسية كاثوليكية محافظة كانت تعيش فى يسر ورخاء . فقد كان والده مهندسا ذا شأن

وحياة جينو لاتتسم بحوادث معينة : فقد كان هادئا وديعا . وكانت تلوح عليه ، منذ الطفولة مخايل الذكاء الحاد ، وقد بدأ تعليمه فى إقليمه الذى نشأ فيه ، وكان دائما متفوقا على أقرانه . وانتهى به الأمر سنة ١٩٠٤ إلى نيل شهادة البكالوريا ، بعد أن نال جوائز عدة كانت تمنح للمتفوقين . وفى هذه السنة : سنة ١٩٠٤ سافر جينو إلى باريس لتحضير الليسانس ، ومكث عامين فى الدراسات الجامعية ؛ ولكن باريس لم تدعه يستمر فى دراسته المدرسية المحدودة فقد فتحت له أبوابا أخرى كلها لذة . وكلها نعيم . ولا نقصد لذة حسية ، أو نعيما ماديا ؛ وإذا كانت باريس تمنح ذلك للماديين الحسيين فإنها تمنح لذة روحية ، ونعيما وجدانيا لمن لم تغرهم الدنيا وزينتها .

وقد كان جينو من هذا النمط الأخير : كان متطلعا إلى المعرفة ، المعرفة بمعناها الصوفى . كان يتطلع إلى السماء : يريد أن يخترق الحجب ؛ وأن يكشف القناع ، وأن يرفع المساتير ، وأن يصل إلى الحق .

وقد كان مثله إذ ذاك مثل الإمام الغزالى بالضبط : ولو عبرنا عن حالة جينو لما وجدنا أبرع من حديث الإمام الغزالى عن نفسه إذ يقول .

---

(١) هى بلدة فرنسية على نهر اللوار ، على بعد ١٧٢ ك . م من باريس . يبلغ عدد سكانها ٨٦٨ وهى شهيره بصناعة البسكويت والشكولاته . وقد نشأ فيها كثير من المشاهير .

« ولم أزل فى عنفوان شبابى ـ منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ سن العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين ـ أقتحم لجة هذا البحر العميق [بحر المعرفة] وأخوض غمرته خوض الجسور ، لاخوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة : لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع . لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبدا إلا وأترصد مايرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه : للتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى ، وديدنى ، من أول أمرى ، وريعان عمرى : غريزة وفطرة من الله ، وضعتا فى جبلتى ، لاباختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة ، على قرب عهد سن الصبا » .

كانت تلك بالضبط حالة جينو . ولقد أخذت باريس تشير إليه بالابتعاد عن الرسميات والشكليات ، وتقدم له الكثير من النواحى الثقافية الروحانية . كانت باريس مفعمة بالمدارس مختلفة الألوان : كان فيها الماسونية ، وكان فيها المدارس التى تنتسب إلى الهند ، أو إلى التبت ، أو إلى الصين ، كان فيها الروحانيون على إختلاف ألوانهم ومشاربهم ونزعاتهم ، بل كان فيها هؤلاء الذين يعالجون السحر ، والتنجيم ، والتصرف فى العناصر ، وتحضير الأرواح . .

وترك فتانا التعليم الجامعى غير آسف عليه ، وأخذ ينهل من هذه المنابع المختلفة : لقد انتسب إليها ، واتصل بها عن قرب ، وعرف ما تهدف إليه ، بل ساهم فى نشاطها . ومنحته هذه المدارس درجاتها الكهنوتية السامية . . .

ولقد كانت صلته الوثيقة بهذه المدارس السبب المباشر فى انفصاله عن أغلبها ، فقد أدرك الطيب منها والخبيث ، وهدته بصيرته النقادة ، وهداه رأيه القويم إلى أن الكثرة الكثيرة من هذه المدارس إنما هى شكلية سطحية لا تصل بالإنسان حقيقة إلى معرفة ما وراء الطبيعة أو إلى اختراق حجاب المساتير ، فأخذ فى الإنفصال عنها شيئاً فشيئاً .

وما إن تخلص جينو من هذه النزعات حتى أنشأ سنة ١٩٠٩ مجلة سماها « المعرفة » . وهذه المجلة اتسمت بالطابع الذى كانت تسير عليه مجلة أخرى سبقتها كانت تسمى الطريق ، وهو الطابع الصوفى .

كان يساهم فى إصدار مجلة « الطريق » ، ويشرف على منهجها ، عالم فرنسى سمه شمبرينو .

وقد اعتنق شمبرينو الإسلام ، وتسمى باسم عبد الحق ، واستمر يساهم فى إصدار مجلة الطريق من سنة ١٩٠٤ إلى سنة ١٩٠٧ . ثم ، لأسباب عدة ، انتهى إصدار المجلة . وفى هذه الأثناء تعرف جينو بعبدالحق ، وساعد عبد الحق جينو فى تحرير مجلة المعرفة . وكانت المجلة تنشر الأبحاث عن الإسلام ، وعن الديانة الهندية ، وعن الديانة البوذية . وكانت فى الوقت نفسه تنتقد كل مالا تراه مستقيما فى المدارس التى تنتسب إلى الروحانية .

ستمرت هذه المجلة إلى سنة ١٩١٢ . وفى هذه السنة اعتنق جينو الإسلام ؛

وتسمى باسم الشيخ عبد الواحد يحيى .

كيف اعتنق جينو الإسلام ؟ ولم اعتنقه ؟ وعلى يد من أسلم ؟ .

هذه أسئلة وضعها الغربيون وأخذوا يفترضون مختلف الفروض للإجابة عليها . ولكن آراءهم لم تخرج عن أن تكون مجرد فروض .

ولقد قال جينو إنه اتصل بممثلى الأديان الشرقية عن طريق مباشر : فكيف اتصل بهم ؟ — وبمن منهم اتصل ؟ ثم إن جينو أهدى أحد كتبه إلى الشيخ عبد الرحمن عليش . فمن هو هذا الشيخ عبد الرحمن عليش ؟ وكيف عرفه جينو ؟ وهل هو الذى هداه إلى الإسلام ؟ وكيف ؟

كل هذه الأسئلة كانت غامضة حتى ألقى عليها الأستاذ فلسن — الذى اعتنق ، هو الآخر ، الإسلام ، واتقن لغة القرآن — شيئاً من الضوء فى بحث مستفيض نشر فى عدد يناير — سنة ١٩٥٣ من مجلة « إتيد ترادسيونل » الفرنسية . وهذا البحث نلخصه فيما يأتى :

« من تاريخ الحركة الصوفية فى مصر »

الشيخ عليش (١) والشيخ عبد الواحد

إن الصلة بين الشيخ الأكبر ، سيدنا محيى الدين بن عربى، وبين الشيخ عبد الواحد بادية ظاهرة .

---

(١) أسرة الشيخ عليش أسرة مغربية أشهر رجالها هو الشيخ محمد عليش الكبير ١٢١٨ — ١٢٩٩ . وقد درس الشيخ محمد عليش فى الأزهر ثم جلس للتدريس به ١٢٤٥ هـ . وكان يحضر عليه ما ينوف عن المائتين من الطلبة . وقد تقلد مشيخة السادة المالكية والإفتاء بالديار المصرية سنة ١٢٧٠ هـ ، وتذكر الخطط التوفيقية « أنه كان فى حال حياته مستغرقا زمنه فى =

ولقد اعتنق جينو الإسلام بواسطة شيخ ينتسب إلى روحانية الشيخ الأكبر ، أعنى الشيخ عايش الكبير وهو الشخص الذى أهدى إليه جينو أحد كتبه فى هذه العبارة ، « إلى الذكرى المقدسة ، ذكرى الشيخ عبدالرحمن عليش الكبير ، المالكى ، المغربى ، الذىأدين لهبالفكرة الأولىلهذا الكتاب. مصر القاهرة ١٣٢٩ - ١٣٤٧ ه »

وهذا الشيخ المصرى يهمنا من ناحية أخرى لأنه فضلا عن صفته الصوفية السامية ، كان له صفة أخرى ، فلقد كتب جينو فى أحد خطاباته يقول : « كان الشيخ عايش شيخ فرع من الطريقة الشاذلية ، وكان فى الوقت نفسه شيخ المذهب المالكى بالأزهر » .

والشاذلية طريقة أسسها فى القرن السابع الهجرى الشيخ أبوالحسن الشاذلى وهو صورة من أروع الصور الروحانية فى الإسلام .

كان الشيخ الذى ينتسب إليه جينو ، إذاً ، يجمع بين صفتين هما الحقيقة والشريعة : كان شيخ طريقة ، وشيخ مذهب ، وهذا له أهميته بالنسبة لتلميذه فيما يتعلق بتقديرنا لآرائه من الناحية الإسلامية .

= التأليف ، والتدريس ، والعبادة ، متجافياعنالدنيا وأهلها ، لا تأخذه فىالله لومة لائم » اه وقد ألف الكثير من الكتب فى مختلف الفنون التى تدرس بالأزهر .

والطريف هو أن الشيخ عليش فى ١ يونية سنة ١٨٨٢ م خطب ممتدحاً « الجيش الذى خلص البلاد من الوقوع فى أيدى الكفار » وأثنى على رؤسائه وعلى وطنيتهم . وكانت هذه الخطبة تتعارض كل المعارضة مع سياسة الخديوى توفيق ، ولكن الشيخ عليش لم يبال به .

ثم أفتى الشيخ عليش بمروق الخديوى توفيق من الدين كمروق السهم من الرمية ، لخيانته دينه ووطنه . وتلى الشيخ محمد عبده هذه الفتوى فى الجمعية العمومية فى ٢٢ يوليهسنة١٨٨٢ه وكان الخديوى قد أصدر أمراً بعزل عرابى ـ وتداول الأعضاء فى الموقف . وفيما يجب عمله فاتفقت آراؤهم على عدم قبول عزل عرابى . وقررت الجمعية وقفأوامر الخديو وعدم تنفيذها

ومما ينبغي ملاحظته فى عناية : أن هذا الشيخ هو الذى يدين له جينو بالفكرة الأولى لكتابه : « رمزية الصليب » ، وهكذا كان هذا الشيخ يفتح السبل أمام جينو ، ويهديه الطريق : ولذلك ينبغى أن نعرف القراء بهذا الشيخ ، وبالواسطة التى كانت بينه وبين جينو . والمعلومات التى سنتحدث عنها مصدرها مجلة عربية إيطالية كانت تصدر فى القاهرة سنة ١٩٠٧ تسمى : النادى .

كانت الروح التى تسود هذه المجلة ، هى روح الشيخ الأكبر محيي الدين ، وكانت هذه المجلة تعتبر طليعة لمجلات أخرى صدرت فيما بعد فى فرنسا ، وساهم فيها جينو بحظ وافر وكان من ألمع محررى مجلة النادى ـ سواء ذلك قسمها العربى أو قسمها الإيطالى ـ هو عبد الهادى . وعبد الهادى هذا من أصل لتوانى فنلندى ، ونشأ مسيحياً ، وكان اسمه : إيفان جوستاف ، ثم اعتنق الإسلام ، وتعلم العربية ؛ وأخذ يكتب فى المجلة المقالات ، ويطبع فيها الرسائل الصوفية الإسلامية من مؤلفات الشيخ الأكبر ، ويترجم بعض النصوص . وقد تحدثت هذه المجلة كثيراً عن الشيخ عبد الرحمن عليش . ولقد كتب فيها الشيخ عليش نفسه مقالة خاصة بمحيي الدين بن عربى .

وكان عبد الهادى على صلة شخصية طبعاً بالشيخ عبد الرحمن عليش ، قد أعطانا عنه معلومات نفيسة . إنه يراه من أشهر رجال الإسلام ، ووالده من كبار رجال المذهب المالكى ، أما هو نفسه فقد كان حكيما عميق الحكمة ، وكان محترما من الجميع ، سواء فى ذلك الرجال العاديون أم الأمراء والسلاطين. وكان شيخا لكثير من الجماعات الدينية المنتشرة فى جميع أنحاء العالم الإسلامى : كان علما من زعماء الإسلام ، سواء فى ذلك ما يتصل بالجانب الصوفى ، أو الجانب

الفقهى أو الجانب السياسى ؛ ومع ذلك فقد ابتعد هو ووالده عن ألاعيب السياسة ومؤامراتها . وكانت صفاتهما الكريمة ، وتقشفهما فى الحياة ، ومعرفتها المستفيضة العميقة ، وحسبهما العريق ، . . كل ذلك سما بهما إلى مركز ممتاز فى العالم الإسلامى ، بيد أنهما لم يعيرا ذلك التفاتا والتزما مرضاة الله .

أما شهرتهما بالتعصب التى لا أساس لها ، فقد كان مصدرها فتوى شهيرة كانت نتيجتها كما يقولون ثورة عرابى باشا سنة ١٨٨٢ . وفى هذه السنة : سنة ١٨٨٢ زج بالشيخين فى السجن ، وحكم عليهما بالإعدام ، وقد مات الأب فى السجن ، أما الشيخ عبد الرحمن فقد استبدل حكم الإعدام فيه بالنفى .

ولكن الحظ السىء تابعه فى منفاه: كانت شهرته وكان حسبه و نبله الذاتى.. كان كل ذلك من عوامل الشك فيه ، واتهم ؛ فى حماقة ، بأنه يتطلع إلى إقامة الخلافة الإسلامية ، لحسابه أو لحساب سلطان مراكش ، فوضع فى السجن من جديد ، ولكن وضعه فى السجن هذه المرة كان بناء عن أمر أمير مسلم .

ومكث عامين فى زنزانة لا تطاق، حيث العفونة والروائح الكريهة ، وغير ذلك مما تضيق به النفس . ولأجل بعث الرعب فى نفسه كانوا يتعمدون أن يقتلوا أمامه بعض من حكم عليهم بالإعدام ؛ ثم أخرج من السجن ونفى إلى رودس .

ولقد أقام أيضاً فى دمشق ، حيث التقى بعدو الفرنسيين العتيد : الأمير عبد القادر الجزائرى ؛ فتألفت بينهما صداقة وطيدة، كان من أسسها الحب القوى فى نفسيهما للشيخ الأكبر الذى كان الأمير يكرس وقته ؛ فى أخريات حياته ، لدراسته ، وحمله إعجابه به ، على أن يمول الطبعة الأولى لكتاب الفتوحات المكية . ذلك الكتاب الذى تبلغ صفحاته حوالى « ٢٥٠٠ » ، ولما مات

الأمير كفنه الشيخ وصلى عليه ودفنه فى الصالحية بجوار مقبرة الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربى .

وأصدرت الملكة فيكتوريا العفو عن الشيخ : فعاد إلى مصر وأقام فى القاهره ، وأخذ نوره ينبعث من القاهرة إلى جميع أقاليم العالم الإسلامى . وكان يبتعد ، ويبعد تلاميذه عن جميع الصغائر ، وكان تأثيرة قويا إلى درجة أنه حينما تلتقى برجل شرقى، ترى فيه سمو الأخلاق وسعة المعرفة ، فيجب أن تعلم أنه « شاذلى » . والشاذلية[١] لا شك مدينة ، فى احتفاظها بالمثل العايا للسنة التى أقامها أبو الحسن الشاذلى ، إلى السمو الروحى للشيخ عليش .

وقد نشرت مجلة النادى مقالة للشيخ عليش عن محيي الدين وقد اختتمها بشكره لعبد الهادى بسبب ما أداه للحضارة من خدمة جايلة هى تعريف الناس بمحيي الدين ، ثم ينتهى الشيخ بأن يحث عبد الهادى على أن يستمر فى متابعة دراساته الصوفية غير معنى بما يثيره حوله بعض من لم يفهموا الإسلام على حقيقته .

وما إن نشرت مقالة الشيخ فى المجلة حتى أعلن فى العدد التالى أنه تألفت جمعية فى إيطاليا وفى الشرق لدراسة بن عربى وسميت « الأكبرية » ووضعت منهاجا هو التالى :

١ — دراسة ونشر تعاليم الشيخ محيي الدين سواء ما يتصل منها بالشريعة وما يتصل بالحقيقة ، والعمل على طبع مؤلفاته ومؤلفات تلاميذه ، وشرحها ، وإلقاء محاضرات خاصة به وأحاديث تشرح آراءه .

---

(١) هذا رأى عبد الهادى . ورجال التصوف الحقيقيون كلهم خير وكلهم بركة .

٢ — جمع أكبر عدد ممكن من محبي الشيخ ابن عربي ، وعقد صلة قوية بينهم، تقوم على الأخوة وتؤسس على الترابط الفكرى، بين النخبة المختارة من الشرقيين والغربيين .

٣ — تقديم المساعدة المادية والتشجيع الأدبي لمن هم فى حاجة إلى ذلك ممن يتبعون الطريق الذى اختطه محيي الدين بن عربي وعلى الخصوص هؤلاء الذين ينشرون دعوته بالقول أو بالعمل .

٤ — ولا يقتصر عمل الجمعية على ذلك بل يتعداه أيضاً إلى دراسة مشايخ الصوفية الشرقيين ، كجلال الدين الرومى مثلا، بيد أن مركز الدائرة يجب أن يستمر ابن عربي .

٥ — ولا صلة للجماعة قط بمسائل السياسة مهما كان مظهرها ؛ إذ أنها لا تخرج عن دائرة البحث فى الدين والحكمة .

وبدأ عبد الهادى ينشر دراساته الصوفية ، وقد ساعده الحظ ، فوجد حوالى عشرين رسالة لابن عربي مخطوطة ، نادرة الوجود ، نفيسة القيمة ؛ فأخذ فى تحليلها .

ولكن المجلة للأسف لم تسلم من شر أعداء التصوف فقضى عليها . ورأى عبد الهادى ، متابعاً لإشارة الشيخ عليش ، أن يحاول إقامة صلة روحية بين الشرق والغرب : فسافر إلى فرنسا حيث التقى بجينو .

وكان جينو إذ ذاك يصدر مجلة باسم « المعرفة » ، فأخذ عبد الهادى فى سنة ١٩١٠ يساهم فيها بجد ونشاط . لقد نشر فيها أبحاثا . ولكنه نشر فيها على الخصوص ترجمة كثير من النصوص الصوفية إلى اللغة الفرنسية . وأثمرت

مرافقته لجينو أن عقد بينه و بين الشيخ عليش صلة قوية متينة عن طريق تبادل الرسائل والآراء ، وكانت النتيجة أن اعتنق جينو الإسلام سنة ١٩١٢ ، بعد أن درسه دراسة مستفيضة .

وقامت الحرب سنة ١٩١٤ فأوقفت كل نشاط يتصل بالدين والروح والفكر . وسافر عبد الهادى إلى أسانيا ، وهناك ، فى بلدة برشلونة ، توفاه الله سنة ١٩١٧ .

وحمل جينو راية الجهاد فاستمر يبنى على ما أسسته « الأكبرية » : تلك الجماعة التى تنهج نهج الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى .

والواقع هو أن الذى وجه جينو هذه الوجهة ، هو الشيخ عليش ، والشيخ عليش إنما كان مرآة تعكس صورة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى : وهو أسمى مظهر للتصوف الإسلامى والعقيدة الإسلامية . وإذا كان الشيخ عليش مالكيا محافظاً ، فإن تصوفه لا يخرج عن التعاليم الإسلامية . وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة له فإنه كذلك أيضاً بالنسبة لتلميذه جينو .

عودة إلى حياة جينو

وفى السنة التى اعتنق جينو فيها الإسلام وتسمى باسم الشيخ عبد الواحد يحيي : أعنى سنة ١٩١٢ ، تزوج من فتاة فرنسية من إقليمه .

وفى هذه السنة نفسها توقفت مجلة المعرفة عن الصدور ، فأخذ الشيخ عبدالواحد يكتب فى مختلف المجلات : أخذ يكتب عن انحراف الماسونية : فأثار سخط الماسونيين . وأخذ يكتب عن انحراف البروتستانتية : فأثار سخط البروتستانتيين . وانتقد الروحانية المزيفة أنى وجدت : فغضب منه الذين ينتسبون إلى الروحانية الحديثة .

وفى سبتمبر سنة ١٩١٧ عين الشيخ أستاذاً للفلسفة فى الجزائر ، فقضى فيها عاماً عاد بعده إلى فرنسا، وعين فى مدرسة بلدته ، ولكنه استقال بعد عام قضاه فى التدريس : ليتفرغ لأبحاثه ، وكان من ثمرة هذا التفرغ أن نشر فى سنة ١٩٢١ كتابين هما :

١ — مدخل لدراسة العقائد الهندية .

٢ — التيوزوفية : تاريخ دين مزيف .

وتوالى نشر كتبه . وتوالت مقالاته فى مختلف الجرائد .

وفى سنة ١٩٢٥ فتحت له مجلة : « قناع إيزيس » صدرها فأخذ يكتب فيها ، وانتهى به الأمر فى سنة ١٩٢٩ أن أصبح أهم محرر بها : ذلك أنه رفض ماعرضته عليه المجلة من رئاسة التحرير .

ومن بين من التفوا حوله فى تحرير المجلة العالم الضليع الأستاذ شون الذى ألف كتاباً بالفرنسية من بينها كتاب « عين القلب » وقد اعتنق هذا العالم الإسلام أيضاً ، وهو يدين ، رغم أصالته وعبقريته ، إلى جينو بكثير من اتجاهاته .

ثم عرض بيت من بيوت النشر فى باريس ، على الشيخ عبد الواحد أن يسافر إلى مصر ، ليتصل بالثقافة الصوفية ، فينقل نصوصاً منها ويترجم بعضها . فقبل العرض .

وفى ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٠ سافر إلى مصر لهذا الغرض . وكان المفروض أن يقضى فيها بضعة أشهر فقط . ولكن هذا العمل اقتضاه مدة طويلة ، ثم عدل بيت النشر عن مشروعه ، فاستمر الشيخ عبد الواحد يحيى فى القاهرة ، يعيش فى حى الأزهر ، متواضعاً ، مستخفياً لا يتصل بالأوربيين ، ولا ينغمس فى الحياة العامة ، وإنما يشغل كل وقته بدراساته .

كانت والدته وزوجه ووالده قد توفاهم الله قبل حضوره إلى القاهرة ، فحضر إليها وحيداً ، ووجد الكثير من المشاق فى معيشته منفرداً : فتزوج فى سنة ١٩٣٤ كريمة الشيخ محمد إبراهيم : فمهدت له حياة من الطمأنينة والهدوء . وانتقل بها من حى الأزهر إلى حى الدقى . واستمر يرسل المقالات إلى فرنسا ، وينشر الكتب مستريحاً إلى عطف زوجته ورعايتها ، ورزقه الله بفتاتين ، سمى إحداهما خديجة ، والأخرى ليلى ، ورزقه بولد سماه أحمد ، كان له قرة عين ، وبعد وفاته بأربعة أشهر أتت زوجه بولد سمته عبد الواحد .

ولقد حاول الشيخ عبد الواحد بمجرد وصوله إلى القاهرة ، أن ينشر فيها الثقافة الصوفية ، فساهم مالياً وأدبياً فى إخراج مجلة « المعرفة » . وقد بدأت المجلة

وعليها طابع التصوف ، ولكنها ، فيما يبدو ، لم تجد الإقبال المنتظر ، فأخذت تتسم شيئاً فشيئاً بالطابع الأدبي . ثم توقفت عن الصدور بعد ثلاث سنوات من حياتها .

ومكث الشيخ عبد الواحد في القاهرة يؤلف الكتب ؛ ويكتب المقالات ويرسل الخطابات إلى جميع أنحاء العالم . كان حركة دائمة : حركة فكرية وروحانية ترسل بسنائها إلى كل من يطلب الهداية والرشاد .

واستمر هكذا إلى أن أتاه المصير المحتوم في ٧ يناير سنة ١٩٥١ تحيط به أسرته الكريمة ؛ وبجواره السيدة فلنتين دي سان بوان ؛ تلك السيدة العظيمة التي أقامت في القاهرة منذ سنة ١٩٢٤ ؛ واستقبلت الشيخ عند حضوره . واستمرت صديقة له طيلة إقامته بالقاهرة ، ثم ودعته الوداع الأخير .

كانت هذه السيدة أديبة مشهورة ، وصحفية لامعة . ولا عجب في ذلك فقد كانت من أسرة لامرتين . وقد اعتنقت الإسلام ، وناضلت عنه جزاها الله خير الجزاء .

ولقد وصف الكاتب المشهور أندريه روسو — حيث كان في القاهرة إذ ذاك — جنازة الشيخ عبد الواحد فكتب في جريدة الفيجارو الفرنسية يقول :

« شيعت جنازته في اليوم التالي لوفاته ؛ فذبح تحت نعشه ، كما هي العادة ، كبش وأسيل دمه على عتبة المنزل : وسار في الجنازة زوجه وأطفاله الثلاث ، واخترقت الجنازة البلدة إلى أن وصلت إلى مسجد سيدنا الحسين حيث صلى عليه ، ثم سارت الجنازة إلى مقبرة الدراسة . لقد كانت جنازة متواضعة مكونة من الأسرة ومن بعض الأصدقاء ، ولم يكن فيها أي شيخ من مشايخ

الأزهر . ودفن الشيخ عبد الواحد فى مقبرة أسرة الشيخ محمد إبراهيم .

وكان آخر ما قال لزوجه . . « كونى مطمئنة . سوف لا أتركك قط . حقيقة أنك لاترينى . ولكننى سأكون هنا وسأراك » .

ويضيف روسو « والآن حينما لا يلتزم أحد أطفالها الهدوء فإنها تقول له : كيف تجرؤ على ذلك مع أن والدك ينظر إليك ، فيلتزم الطفل السكون فى حضرة والده اللامرئى » .

وفى ٩ يناير وصل إلى باريس برقية تعلن « وفاة رينيه جينو الفيلسوف والمستشرق الفرنسى » .

وما أن وصلت هذه البرقية حتى أخذت الصحف والمجلات تنشر مختلف المقالات عن الشيخ تحت عناوين مختلفة منها . « حكيم كان يعيش فى ظل الإهرامات » ، « فيلسوف القاهرة » ، « أكبر الروحانيين فى العصر الحديث » .

ووصفوه « بالبوصلة المعصومة » ، « وبالدرع الحصين » . ثم خصصت له مجلة «إتيد تراد سيونل» عدداً ضخما كتب فيه الكثيرون من كتاب فرنسا ، أروع المقالات .

وكذلك خصصت له مجلة ـ فرنسا ـــ آسيا ـ عدداًضخماً كتب فيه كذلك كثير من الكتاب الفرنسيين . ولكن جينو كان عالمياً . ولذلك أوسعت المجلتان صدرهما لكتاب الألمان ، والإنجليز ، وغيرهم من غربيين وشرقيين ، فكتبوا المقالات المستفيضة التى تناولت آثاره بالتحليل والتقدير ، وأخيراً خصه الكاتب الفرنسى الشهير پول سران بكتاب خاص تناول فيه نواحيه المتعددة مبديا إعجابه العظيم وتقديره السامى .

ولكن ما كتب عنه لم يكن كله من هذا النمط فقد كان هناك أعداؤه : كان هناك الماسونيون المنحرفون ، وكان هناك المسيحيون الحانقون ، وكان هناك المشايعون لهذه الحضارة المادية التى هاجمها جينو ولعنها فى غير ما رأفة أو رحمة . وقد كتب هؤلاء كلهم ضد جينو . واحتد الخلاف بين أنصاره وأعدائه وكانت النتيجة من ذلك كله خيرا وبركه : فقد حث ذلك الكثيرون على قراءة كتب جينو وفى قراءته الخير كل الخير . وكانت النتيجة المباشرة لذلك كله أن اضطربت وتهافتت حجج المبشرين ضد الإسلام ، وأخذ الإسلام يغزو أوربا فى بعض أفراد من طبقتها المثقفة ، وتكونت الجمعيات فى فرنسا وسويسرا تريد أن تنهج نهج الشيخ عبد الواحد وتسير على منواله .

ولا يتأتى أن نترك المجال دون أن نذكر بعض ما سبق أن كتبناه عن الشيخ .

لقد كتبنا عنه فى الكتيب الذى نشرناه بعنوان « أوربا والإسلام » ، ما يلى .

أما الذى كان إسلامه ثورة كبرى ، هزت ضمائر الكثيرين من ذوى البصائر الطاهرة ، فاقتدوا به : واعتنقوا الإسلام ، وكونوا جماعات مؤمنة مخلصة ، تعبد الله على يقين فى معاقل الكاثوليكية فى فرنسا ، وفى سويسرا ... فهو العالم الفيلسوف الحكيم ، الصوفى : « رينيه جينو » الذى يدوى اسمه فى أوروبا قاطبة وفى أمريكا ، والذى يعرفه كل هؤلاء الذين يتصلون اتصالا وثيقاً بالدراسات الفلسفية الدينية فى أوربا ، أو فى أمريكا .

وكان سبب إسلامه بسيطاً منطقياً فى آن واحد :

لقد أراد أن يعتصم بنص مقدس ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه ، فلم يجد — بعد دراسة عميقة — سوى القرآن ، فهو الكتاب الوحيد الذى لم ينله التحريف ولا التبديل : لأن الله تكفل بحفظه ، وحفظه حقيقة : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

لم يجد سوى القرآن نصاً مقدساً صحيحاً ، فاعتصم به . وسار تحت لوائه ، فغمره الأمن النفسانى فى رحاب الفرقان .

ومؤلفاته كثيرة مشهورة من بينها كتاب : « أزمة العالم الحديث » بين فيه الانحراف الهائل الذى تسير فيه أوروبا الآن ، والضلال المبين الذى أعمى الغرب عن سواء السبيل .

أما كتابه : « الشرق والغرب » فهو من الكتب الخالدة ، التى تجعل كل شرقى يفخر بشرقيته . وقد رد فيه إلى الشرق اعتباره ، مبينا أصالته فى الحضارة ، وسموه فى التفكير ، وإنسانيته التى لاتقاس بها مادية الغرب وفساده وامتصاصه للدماء ، وعدوانه الذى لايقف عند حد ، وظلمه المؤسس على المادية والاستغلال ، ومظهرا فى كل صفحة من صفحاته نبل الشرقيين وعمقهم وفهمهم للأمور فهما يتفق مع الفضيلة ومع أسمى المبادىء الإنسانية .. !

وقد كتبنا عنه تقريراً لإحدى جامعاتنا المصرية ، للتعريف به ، ننشره فيما يلى:

«رينيه جينو : من الشخصيات التى أخذت مكانها فى التاريخ ، يضعه المسلمون بجوار الإمام الغزالى وأمثاله ، ويضعه غير المسلمين بجوار أفلوطين ، صاحب الأفلاطونية الحديثة ، وأمثاله .

وإذا كان الشخص ، فى بيئتنا الحالية ، لايقدر التقدير الذى يستحقه إلا بعد وفاته ، فقد كان من حسن حظ : « رينيه جينو » أنه قدر أثناء حياته ، وقدر

بعد وفاته . أما فى أثناء حياته : فكان أول تقدير له : أن حرمت الكنيسة قراءة كتبه ، والكنيسة لاتفعل هذا إلا مع كبار المفكرين ، الذين تخشى خطرهم ، وقد وضعته بذلك بجوار عباقرة الفكر ، الذين اتخذت تجاههم نفس المسلك ، ولكنها رأت فى «رينيه جينو» خطرا يكبر كل خطر سابق ، فحرمت، حتى الحديث عنه .

وإذا كان هذا تقديرا سلبياً له قيمته ، فهناك التقدير الإيجابى ، الذى لا يقل فى أهميته ، عن التقدير السلبى ، فهناك هؤلاء الذين استجابوا لدعوة « رينيه جينو » فألفوا جمعيات فى جميع العواصم الكبرى فى العالم ، وعلى الخصوص ، فى سويسرا ، وفى فرنسا ؛ والمكونون لهذه الجمعيات ، احتذوا حذو « رينيه جينو » فاتخذوا الإسلام دينا ، والطهارة والإخلاص وطاعة الله ، شعارا وديدنا؛ ويكونون ، وسط هذه المادية السابغة ، وهذه الشهوات المتغلبة ، واحات جميلة، يلجأ إليها كل من أراد الطهر والطمأنينة .

ومن التقدير الإيجابى أيضاً ، أن كتبه ، رغم تحريم الكنيسة لقراءتها ، قد انتشرت فى جميع أرجاء العالم . وطبعت المرة بعد الأخرى ، وترجم الكثير منها إلى جميع اللغات الحية الناهضة ، ماعدا العربية ، للأسف الشديد .

ومن الطريف: أن بعض الكتب ترجم إلى لغة : الهند الصينية،ووضعت كشرح للوصية الأخيرة من وصايا « الدالاى لاما » . ولم يكن يوجد فى الغرب شخص متخصص فى تاريخ الأديان ، إلا وهو على علم بآراء «رينيه جينو» .

كل هذا التقدير كان فى حياته .

أما بعد مماته ، فقد زاد هذا التقدير ، لقد كتبت عنه جميع صحف العالم ، ومنها بعض الصحف المصرية العربية ، كالمصور مثلا ، الذى كتب عنه ، فى استفاضة ، والصحف الإفرنجية أيضاً ، كمجلة « أيجيبت نوفل » ، التى أخذت

تكتب عنه ، عدة أسابيع . ثم أخذت تكتب عنه كل عام فى ذكرى وفاته .

وقد خصصت له مجلة : « فرنسا آسيا » وهى مجلة محترمة ، عدداضخما ، كتب فيه كبار الكتاب الشرقيين والغربيين ، وافتتحته بتقدير شاعر فرنسا الأكبر . « أندريه جيد » ، ل « رينيه جينو » وقوله ، فى صراحة لالبس فيها : إن آراء « رينيه جينو » لا تنقض :

وخصصت مجلة : « ايتودترا ديسيو نيل » ، وهى المجلة التى تعتبر فى الغرب كله : لسان التصوف الصحيح ، عددا ضخما من أعدادها ، كتب فيه أيضاً ، كبار الكتاب الشرقيين والغربيين .

ثم خصص له الكاتب الصحفى الشهير ، « پول سيران » كتابا ضخما تحدث فيه عن حياته وعن آرائه ؛ ووضعه ؛ كما وضعه الآخرون ، الذين كتبوا عنه ؛ فى المكان اللائق به ؛ بجوار الإمام الغزالى أو الحكيم أفلوطين .

نشأ « رينيه جينو » فى فرنسا من أسرة كاثوليكية ، ثرية محافظة ، نشأ مرهف الحس ، مرهف الشعور ، مرهف الوجدان ، متجها بطبيعته ، إلى التفكير العميق والأبحاث الدقيقة . وهاله ؛ حينما نضج تفكيره ، ما عليه قومه من ضلال ؛ فأخذ يبحث ، فى جد عن الحقيقة ؛ ولكن أين هى ؟ أفى الشرق أم فى الغرب ؟ وهل هى فى السماء أم فى الأرض ؟

أين الحقيقة ؟ سؤال وجهه « رينيه جينو » إلى نفسه ؛ كما وجهه من قبل إلى نفسه : الإمام المحاسبى ؛ والإمام الغزالى ، والإمام محى الدين بن عربى ؛ وكما وجهه ، من قبلهم ، عشرات من المفكرين الذين أبوا أن يستنيموا للتقليد الأعمى... وتأتى فترة الشك والحيرة والألم الممض ، ثم يأتى عون الله وكان عون الله ، بالنسبة لـ « رينيه جينو » : أن بهرته أشعة الإسلام الخالدة وغمرة ضياؤه الباهر ، فاعتنقه وتسمى باسم الشيخ عبد الواحد يحيى ، وأصبح جنديا من جنوده

يدافع عنه ويدعو إليه . ومن أمثلة ذلك : ما كتبه فى كتابه : « رمزية الصليب » تفنيدا للفرية التى تقول : إن الإسلام انتشر بالسيف . ومن أمثلة، ذلك ، أيضاً ما كتبه ، فى العدد الخاص ، الذى أصدرته مجلة : « كاييه دى سود » ، فى عددها الخاص بالإسلام والغرب دفاعا عن الروحانية الإسلامية . لقد أنكر الغربيون روحانية الإسلام أو قللوا من شأنها وأشادوا بروحانية المسيحية وأكبروا من شأنها ، ووضعوا التصوف المسيحى فى أسمى مكانة وقللوا من شأن التصوف الإسلامى .

كتب الشيخ عبد الواحد يحيى ، مبينا سمو التصوف الإسلامى وروعته ؛ وقارن بينه وبين مايسمونه بالتصوف المسيحى ، أو « الميستيسيسم وانتهى بأن هذا الميستيسيسم لا يمكنه أن يبلغ ولا عن بعد ، ما بلغه التصوف الإسلامى من سمو ومن جلال .

على أن الشيخ عبد الواحد يحيى لم يشد بالإسلام فحسب ، وإنما أشاد فى جميع كتبه ، وفى مواضع لايأتى عليها الحصر ، بالشرق ثم خصص كتابا ضخما بعنوان : « الشرق والغرب » تزيل قراءته من نفس كل شرقى مركب النقص الذى غرسه الاستعمار فى نفوس الشرقيين فى هذه السنوات الأخيرة .

لقد دأب الاستعمار على أن يغرس فى نفوس الشرقيين : أنهم أقل حضارة بل أقل إنسانية من الغربيين . . .

وأتى الشيخ عبد الواحد ؛ فقلب الأوضاع رأسا على عقب ؛ وبين للشرقيين قيمتهم ، وأنهم منبع النور والهداية . ومشرق الوحى والإلهام .

إن كل شرقى يفخر بشرقيته بمجرد قراءته لهذا الكتاب . »هو ليس كتابا يشيد بالشرق على الأسلوب الصحفى . أو على الطريقة الإنشائية . وإنما هو كتاب علمى بأدق المعانى لكلمة علم ؛ وهذا وحده يكفى لأن يقيم الشرقيون مظاهر التكريم للشيخ عبد الواحد ؛ اعترافا منهم بالجميل . والله الموفق ؛

الفصل الثاني

تصحيح أخطاء غربيــــة
عن الإسلام

تمهيد

لقد أخذ المبشرون منذ زمن بعيد يختلقون الأباطيل ضد الإسلام ، ولكنهم كانوا كناطح الصخرة يرتد عنها واهن القوى ، والله غالب على أمره ، إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون .

لقد اتهم المبشرون الإسلام بأنه لا يثمر الروحانية العميقة : فرد الشيخ عبد الواحد هذه الشبهة رداً عنيفاً فى فصل عن التصوف الإسلام ، مقارنا بينه وبين التصوف المسيحى ، وسنتحدث عنه فيما بعد .

واتهم المبشرون الإسلام بأنه دين سيف ، لم ينتشر بالبرهان ، وإنما انتشر بحد الحسام . وأرجفوا بأن الحضارة الإسلامية لم تتسم بالقوة الذاتية، التى تجعلها تؤثر فى أقاليم غير التى نشأت فيها : ولذلك كانت حضارة إقليمية محلية لم تساهم فى التقدم الإنسانى .

وكما رد الشيخ عبد الواحد على التهمة الأولى فى أبحاثه عن التصوف الإسلامى، فقد رد كذلك على التهمتين الأخيرتين بما لا يدع لأراجيف المبشرين مكانا ، ونحن نذكر رده فيما يأتى .

— ١ —

الإسلام والسيف

تعود الغربيون أن ينظروا إلى الإسلام على أنه دين يتميز بطابعه الحربى ، وإذا ذكر السيف فى النصوص الإسلامية فهمه الغربيون فهما حرفيا ، ولم يتأت لهم قط أن يسألوا أنفسهم عما إذا كان له معنى آخر .

ومما لا شك فيه أن الإسلام لا يخلو من جانب حربى ؛ ولكن ذلك ليس خاصا بالإسلام : فإنه يوجد فى أكثر الأديان ، ويوجد فى المسيحية . إننا لا نريد فى هذا المقام أن نذكر كلمة المسيح نفسه : « لم آت لأحمل إليكم سلاماً وإنما أتيت بالسيف » لأنها قد تحمل محمل السخرية .

ولكن تاريخ المسيحية ، فى العصور الوسطى ، أعنى تلك العصور التى انتشرت فيها وازدهرت ، يقدم لنا الدليل الكافى على جانبها الحربى ؛ بل إن الديانة الهندية ، التى يأخذ عليها كثير من الناس ، أنها لا تدعو إلى العمل ، لا تخلو من الجانب الحربى الذى يتمثل فى بعض نصوصها .

إن أى شخص لم يعمه رأى فطير عن رؤية الحق ، من السهل عليه أن يفهم أن الحرب ما دامت موجهة ضد هؤلاء الذين يعبثون بالنظام الاجتماعى ، فإنها تعتبر مشروعة : من أجل إعادة النظام واستتبابه ، إنها ليست إلا مظهراً من مظاهر « العدل » حينما يفهم العدل بمعناه الأعم . لابد إذن من الجانب الحربى فى كل دين لتحقيق العدالة ، وإشاعة الأمن ، ونشر الطمأنينة والنظام .

ومع ذلك فإن هذه النظرة إلى الحرب إنما هى النظرة الظاهرة الشكلية .

أما النظرة الحقيقية الباطنة ، فإنها تنظر إلى الحرب على أنها رمز للجهاد العنيف الذى يجب أن يقوم به الإنسان ضد أعدائه الذين بين جنبيه : أعنى ضد كل العناصر التى تعمل فى داخله ضد النظام والوحدة . وسواء كنا بصدد النظام فى المجتمع أو بصدد النظام الروحى للشخص ، فإن الحرب يجب أن تتجه أيضاً وباستمرار إلى توطيد التوازن والتناسق — من أجل ذلك تعلقت حقيقة « بالعدل » — وإعادة الوحدة نوعا ما بين مختلف العناصر التى تتعارض وتتصارع فيما بينها ، وهذا يرشد فى وضوح إلى أن نتيجة الحرب الطبيعية هى الإنسجام .

والعلة الوحيدة التى تبرر وجودها ، فى الإسلام إنما هى السلام ، والسلام لا يتأتى حقيقة إلا بالاستسلام التام للمشيئة الإلهية : الإسلام .

وأظن أننا لسنا فى حاجة إلى أن نبين العلاقة الوثيقة فى اللغة العربية بين كلمة الإسلام والسلام : فإن ذلك من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى تبيان . وفى السنة الإسلامية يتمثل هذان المعينان للحرب ، وتتمثل نسبة أحدهما إلى الآخر واضحة جلية فى حديث شريف قاله الرسول ، صلى الله عليه وسلم عند رجوعه من إحدى الغزوات وهو : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . فالحرب المقدسة الخارجية هى الجهاد الأصغر ، بينما الحرب الداخلية : حرب النفس ، هى الجهاد الأكبر . وأهمية الجهاد الأصغر إذن تعتبر ثانوية بالنسبة لأهمية الجهاد الأكبر . وفى مثل هذه الأحوال يكون من الطبيعى جداً أن ما يستعمل فى الحرب الخارجية قد يتخذ رمزا فيما يتعلق بالحرب الداخلية ويتمثل ذلك على الخصوص فيما يتعلق بالسيف .

ومما ينبغى ملاحظته أن الخطيب أثناء خطبة الجمعة ، يمسك بيده سيفا .

وإنه لمن الواضح أن الخطيب حينئذ ليس فى حالة حرب بالمعنى العادى لهذه الـكلمة ؛ على أن سيفه عادة يتخذ من خشب : فلا يمكن والحالة هذه إلا أن يكون رمزا .

إنه على الخصوص رمز لقوة تأثير الـكلام فى النفس .

أما حدّاه فإنهما رمز للبناء والهدم بواسطة الأسلوب : إن الخطيب يمكنه بالخطابة أن يقود المستمعين إلى الإيمان بفـكرة أو أن ينفى من رؤسهم الإيمان بها .

وهذه المعانى الرمزية للسيف لا توجد فى الإسلام فحسب ، وإنما وجدت فى غيره من الديانات .

والسيف ، أحيانا ، رمز للمحور ، وهذه الفـكرة نفسها تذكرنا بالهدف الذى اتخذه الإسلام للحرب المقدسة ، سواء كانت داخلية أم خارجية : أعنى التناسق والإنسجام ؛ ومن البين الواضح أن المحور هو المـكان الذى ينسجم عنده المتعارضون ويزول تعارضهم ، أو بتعبير آخر : هو مكان التوازن الـكامل ، وهو الوسط الذى لا يطرأ عليه التغير .

ومما ينبغى ملاحظته بالنسبة للإسلام ، أنه يفرق بين «حرب» و «جهاد» فإذا كان الأمر أمر مبادىء عليا ، أمر إعلاء كلمة الله : فالواجب الجهاد أعنى الحرب المقدسة ، الحرب من أجل الحق . وذلك هو المشروع فى الإسلام . أما غير ذلك فإنه حرب وليس بجهاد . وهكذا يرمز السيف فى الإسلام إلى التوازن الاجتماعى « العدالة » . وإلى سيطرة الإنسان على أهوائه « الجهاد

الأكبر » وإلى وجوب انسجام الفرد والمجتمع فى وحدة لا تعارض فيها كوحدة المحور الذى لا يعتريه قط التغير .

إن ما سبق إنما هو جمع لبعض الملاحظات التى كان من الممكن أن نتوسع فيها ونتعمق ولكنها ، على ما هى عليه ، تبين فى وضوح أن الذين لا يفهمون من معنى السيف فى الإسلام إلا المعنى المادى بعيدون كل البعد عن الحقيقة .

(٢)

أثر الثقافة الإسلامية فى الغرب

إن كثيراً من الغربيين لم يدركوا قيمة ما اقتبسوه من الثقافة الإسلامية ، أو يفقهوا حقيقة ما أخذوه عن الحضارة العربية فى القرون الماضية ؛ بل ربما لم يدركوا منهما شيئاً مطلقاً . وذلك لأن الحقائق التى تلقى إليهم ، حقائق مشوهة ، حظها من الصحة قليل : فإنها تبالغ كل المبالغة فى الحط من شأن الثقافة الإسلامية ، والتقليل من قدر المدنية العربية ، كلما أتاحت الظروف لأصحابها ذلك . ويلاحظ أن دراسة التاريخ فى المعاهد الغربية لا توضح هذا التأثير . بل إن الحقائق تناولتها يد التحوير والتحريف ، قصداً فى كثير من الحوادث عظيمة الشأن جليلة الخطر . مثال ذلك ما هو شائع معروف من أن أسبانيا ظلت تحت الحكم الإسلامى عدة قرون : بينما لا يذكر التاريخ الغربى قط ، أن صقلية والجزء الجنوبى الحالى لفرنسا كانا تحت الحكم الإسلامى أيضاً . وربما عزا البعض هذا الإهمال من المؤرخين إلى تعصبهم الدينى ، ولكن ماهى حجة المؤرخين المعاصرين — وغالبهم لادينى — فى موافقتهم أسلافهم فى قلب الحقائق ؟ لهذا ينبغى أن ندرك مقدار زهو الغربيين وكبريائهم ، مما منعهم عن إدراك الحقائق الصحيحة ، ومقدار ما هم مدينون به للشرق . والأغرب من ذلك كله : أنه بينما يعتبر الأوربيون أنفسهم الورثة المباشرين للمدنية اليونانية القديمة ، فإن الحق يدحض زعمهم هذا : إذ أن الواقع المعروف من التاريخ نفسه ، يثبت لنا أن علوم اليونان وفلسفتهم لم تنتقل إلى الأوربيين إلا بواسطة المسلمين ، وبعبارة أخرى لم تصل المخلفات العقلية لليونانيين إلى الغرب ، إلا بعد أن درسها الشرق . ولولا علماء الإسلام وفلاسفتهم لظل الغربيون جاهلين بتلك العلوم زمناً طويلا ؛ بل ربما لم

يدركوها كلية . وينبغى أن نلاحظ أننا نبحث هنا عن مقدار تأثير الحضارة الإسلامية لا العربية فحسب ، كما يختلط على البعض أحياناً ، وذلك لأن معظم من حاولوا نقل هذه الثقافة الإسلامية لم يكونوا من العرب الخلص ، وإذا كانت لغتهم عربية ، فإن ذلك ناتج عن تأثرهم بدينهم الإسلامى ، وما دمنا قد ذكرنا اللغة العربية، فإننا نلاحظ دليلا واضحاً يثبت لنا انتقال المؤثرات الإسلامية فى الغرب : وهو تلك الكلمات العربية الأصل والمنبت ، التى تستعمل تقريباً فى كل اللغات الأوربية ؛ بل ما زالت تستعمل حتى وقتنا هذا ، على أن معظم الغربيين الذين يستعملونها يجهلون حقيقة مصدرها كل الجهل . وبما أن الكلمات هى التى تستعمل لنقل الأفكار ، وإظها ما تكنه النفوس ، فإن من السهل علينا جداً أن نستنتج انتقال تلك الأفكار والآراء الإسلامية نفسها ، وفى الحق أن تأثير الحضارة الإسلامية ، قد تناول لدرجة بعيدة وبشكل محسوس ، كل العلوم ، والفنون ، والفلسفة ، وغير ذلك . وقد كانت بلاد الإسبان مركز الوسط الهام الذى انتشرت منه تلك الحضارة . وليس غرضنا الآن أن نفحص كل هذه الأنواع بالتفصيل ، ونرى مقدار ما خلفته الثقافة الإسلامية فيها ، ولكننا نركز بحثنا فى بعض نقط ، نعتقد أنها من الأهمية بمكان ، وإن قل من يدركها فى وقتنا هذا .

أما عن العلوم فمن السهل أن نفرق بين العلوم الطبيعية ، والعلوم الرياضية ، فأما عن الأولى فإنا نعلم علم اليقين : أنها انتقلت بكلياتها وجزئياتها إلى أوربا ، عن طريق الحضارة الإسلامية ، مصبوغة بالصبغة الإسلامية تماماً . فالكيمياء احتفظت دائماً باسمها العربى الذى يرجع أصله إلى مصر القديمة ، والذى كان له معنى من أعمق المعانى التى لم يعرفها الكيمائيون الحديثون حقيقة . ولنضرب مثلا آخر ، ذلك علم الفلك ، فإن أكثر اصطلاحاته الخاصة ماتزال محتفظة فى كل اللغات الأوربية بأصلها العربى ، كما أن كثيراً من النجوم ما يزال علماء الفلك

فى كل الأمم يطلقون عليها أسماءها العربية . وهذا يرجع إلى أن مؤلفات الفلكيين اليونانيين القدماء ، مثل بطليموس الإسكندرية ، كانت معروفة فى التراجم العربية ، ومجتمعة مع المؤلفات الإسلامية . ومن السهل جداً أن نوضح أن كثيراً من المعارف الجغرافية الخاصة بالمناطق السحيقة فى آسيا وأفريقيا ، عرفت من الرحالة العرب الذين جابوا كثيراً من الأقطار وحملوا معهم معلومات جمة . أما من ناحية الاختراعات — وهى تابعة للعلوم الطبيعية — فقد انتقلت أيضاً بنفس الطريق أى بواسطة المسلمين . وما تزال قصة الساعة المائية التى أهداها الخليفة هارون الرشيد إلى الامبراطور شارلمان ، عالقة بالأذهان ، ثابتة الواقع .

أما الرياضيات فيجب أن نعيرها التفاتاً خاصاً ، وذلك لأهميتها فى هذا البحث ، فإن ميدانها الواسع لا نرى فيه علوم اليونان فحسب ؛ بل نرى فيه أكبر الأثر للثقافة الإسلامية ، مضافا إليها علوم الهند أيضاً . أما اليونانيون فقد بلغوا درجة الكمال فى الهندسة ، وعلم الأرقام . ويلاحظ أن الأخير يرتبط دائماً مع الأول فى الأشكال الهندسية المناسبة . وهذا التوفق الذى كان للهندسة يظهر لنا جلياً فى الجملة التى حفرها أفلاطون على مدخل مدرسته : (لا يدخله إلا عالم بالهندسة) .

ولكن يوجد علم آخر من الرياضيات يتبع علم الأرقام ، ولكنه لم يكن معروفاً — كالعلوم الأخرى — فى اللغات الأوربية بالإسم اليونانى : لأنه لم يكن معروفاً بين اليونانيين القدماء : هذا هو علم الجبر الذى كان مصدره الأول الهند ، والذى يسهل علينا من اسمه العربى أن نعرف طريق انتقاله إلى الغرب .

حقيقة أخرى حان حين ذكرها ولو أنها قليلة الأهمية ، ولكنها تدل أيضاً على ما قدمناه ، وهى أنه من الشائع فى كل مكان ، أن الأرقام التى يستعملها

الأوربيون هى نفس الأرقام التى استعملها العرب ، ولو أن مصدرها الأول هو الهند ، لأن علامات العد التى كان العرب يستعملونها قديماً ما هى إلا حروف الهجاء نفسها .

وإذا انتقلنا من بحث العلوم إلى بحث الفنون ، فإننا نلاحظ أن كثيراً من المعانى التى جادت بها قرائح الكتاب والشعراء المسلمين فى الأدب والشعر ، قد أخذت واستعملت فى الأدب الغربى ؛ بل أكثر من هذا ، فإن بعض كتاب الغرب وشعرائه قد قلدوا تمام التقليد بعض كتاب المسلمين وشعرائهم . وكذلك نلاحظ أن أثر الثقافة الإسلامية واضح كل الوضوح ، وبصفة خاصة فى فن البناء ، وذلك فى العصور الوسطى : فمن ذلك شكل القوس المعقود الذى صار متميزاً بنفسه حتى صار يدل على طريقة خاصة للبناء كان يستعمل فيها . وقد كان مصدره فن البناء الإسلامى ، ولو أن كثيراً من النظريات الخيالية اخترعت لمخالفة هذه الحقيقة . ومما هدم هذه النظريات وجود رواية يتناقلها دائماً البناؤن أنفسهم ، وهى تثبت انتقال هذه الطريقة من الشرق . وقد كان لهذه الحقيقة صفة سرية جعلت لغتهم معنى رمزياً ، فكانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم الأرقام . وقد نسب هذا العلم فى مصدره الأول لهؤلاء الذين بنوا هيكل سيدنا سليمان . ومهما يكن من أمر هذا المصدر البعيد فلا يمكن بحال ما أن يكون انتقاله إلى أوربا إلا بواسطة العالم الإسلامى . ومما يحسن ذكره أن هؤلاء المعاريين — وقد كانوا هيئات متحدة لها شعائر خاصة — كانوا يعتبرون أنفسهم كأنهم أجانب فى الغرب حتى فى مساقط رؤوسهم . وقد ظلت هذه التسمية حتى الآن . على أن هذه الأمور صارت غير معروفة إلا للقليلين جداً .

فى هذه النظرة العجلى ، ينبغى أن نذكر بصفة خاصة نوعاً آخر هو الفلسفة . فقد بلغ التأثير الإسلامى فى القرون الوسطى مبلغاً عظيماً لم يستطع

أشد خصوم الشرق تعصباً أن ينكر قوته . وهذا صحيح فإن أوربا لم يكن فيها من وسيلة أخرى لمعرفة الفلسفة اليونانية فى ذلك الزمن ، وذلك لأن التراجم اللاتينية لأفلاطون وأرسطو — وهى التى استعملت حينئذ — لم تنقل أو تترجم من الأصل اليونانى مباشرة ؛ بل أخذت من الترجمة العربية السالفة . وأضافوا إليها ما كتبه المعاصرون المسلمون فى الفلسفة الإسلامية . ومن أولئك المعاصرين : ابن رشد وابن سينا وغيرهما .

والفلسفة التى كانت معروفة فى ذلك الوقت باسم «الفلسفة المدرسية» كانت تتميز بها الفلسفة الإسلامية ، واليهودية ، والمسيحية ، ولكن من الإسلامية استمد النوعان الآخران مصدرهما ، بل إن الفلسفة اليهودية وهى التى ازدهرت فى أسبانيا كانت لغتها عربية . وذلك ثابت ويرى فى المؤلفات الهامة لموسى ابن ميمون . وعنه نقل فيلسوف يهودى آخر — بعد قرون عديدة — كثيراً من فلسفته الخاصة ذلك هو (سبينوزا) .

وليس من الضرورى أن نصر على بحث أشياء معاومة لكل من درس شيئاً من تاريخ الفكر ، بل يحسن أن نبحث أخيراً فى أشياء أخرى من نوع مختلف لا يعرفه معظم الحديثين ، خصوصاً فى الغرب ، بل لا يكاد يكون لأحد ما أية فكرة ذات أهمية عنه . ولكن من وجهة نظرنا نرى له أهمية كبرى أكثر من كل المعارف الخارجية التى تحتويها العلوم والفلسفة ، وما نقصده بهذا هو التصوف ، وما يتصل به ، أو يعتمد عليه من أنواع المعرفة الأخرى الثانوية ، التى تختلف عن تلك العلوم التى يدرسها الحديثون كل الاختلاف .

وليس للغرب فى وقتنا هذا شىء من أمثال تلك العلوم على حقيقتها ، بل أكثر من هذا أن الغرب لا يعرف أيضاً من المعارف الحقة كالتصوف

أو ما يماثله شيئاً مطلقاً . على أن هذه الحال لم تكن هى الحال فى القرون الوسطى . وهذه المعارف لها أيضاً أثرها الإسلامى البين الواضح بأجلى وضوح فى تلك العصور . ومن السهل جداً ملاحظة أثر ذلك فى بعض المؤلفات التى تختلف معانيها الحقيقية عن الثمرات الأدبية كل الإختلاف .

وقد بدأ هذا النوع يتضح لبعض الأوربين أنفسهم ، وذلك خلال دراساتهم لأشعار « دانتى » الإيطالى ، ولكنهم لم يدركوا ماهية طبيعتها الحقة . ومنذ سنين عدة كتب المستشرق الإسبانى « دون ميجيل آسين بلاثيوس » كتاباً عن المؤثرات الإسلامية فى مؤلفات « دانتى » جاء فيه أن جزءاً كبيراً من الرموز والإشارات التى استعملها « دانتى » كان يستعملها قبله بعض المحققين والكتاب المسلمين ، وبخاصة سيدى محيي الدين بن عربى . ولكن لسوء الحظ نرى : أن ملاحظاته لم تتعد التخيلات الشعرية . على أن هناك كاتباً آخر إيطالى الجنس هو « لويجى فاللى » ، الذى توفى حديثاً ، تعمق بعض التعمق فى البحث ، فذكر أن دانتى لم يكن وحده الذى استعمل الإشارات المماثلة لما كان مستعملاً فى الشعر الصوفى ، الفارسى والعربى ، بل إن كثيراً من الشعراء المعاصرين لدانتى فى مملكته كانوا أعضاء فى اتحاد أو هيئة سرية تسمى « أمناء الحب » وكان دانتى نفسه أحد رؤساء تلك الهيئة .

ولما حاول « لويجى فاللى » أن يحل ألغاز لغتهم السرية لم يتمكن من إدراك ما كانت تتميز به تلك الهيئة ، أو ما يماثلها من الهيئات التى وجدت فى أوربا أيام القرون الوسطى . على أن الحق هو أن بعض الشخصيات السرية كانت تستتر خلف تلك الهيئات لتكون مصدر إرشاد لها . وقد كانت تلك الشخصيات السرية ، تعرف بأسماء مختلفة ، من أهمها تلك التسمية « إخوان

الوردة والصليب » وليس لهؤلاء قواعد مكتوبة يسيرون عليها . كذلك لم يكن لهم اجتماعات معينة . وكل ما كانوا يعرفونه به ، هو أنهم وصلوا إلى حالات روحية خاصة . ويمكننا أن نصفهم بأنهم صوفيون غربيون ، أو على الأقل متصوفة فى درجات عالية .

وقد قيل إن هؤلاء « الإخوان » الذين كانوا يتسترون بألبسة البنائين ورموزهم ، كانوا يعلمون الكيمياء وعلوماً أخرى تماثل ما كان مزدهرا من العلوم فى العالم الإسلامى .

وفى الحق أنهم كانوا حلقة اتصال بين الشرق والغرب . وكانوا على إتصال مباشر بالصوفيين المسلمين . وقد كان ذلك الإتصال يستتر وراء رحلات مؤسسهم الخيالى . وليس هذا معروفا فى التاريخ الذى لا يتعمق كثيراً فى البحث ؛ بل يكتفى فقط بمظهر الحوادث الخارجى ، مع أن هناك المفتاح الحقيقى الذى يفتح لنا مغاليق كثير من الأشياء ولولاه لاستمرت دائماً غير واضحة بالمرة .

هذا جزء من كلّ من أثر الثقافة الإسلامية فى الغرب . ولكن الغربيين لا يريدون أن يعترفوا به فى وضوح ، لأنهم لا يريدون أن يعترفوا بفضل الشرق عليهم . ولكن الزمن كفيل بتبيان الحقائق التى يريدون إخفاءها .

الفصل الثالث

في المعــــرفة

١ — طرقها المسدودة

٢ — طريقها الصادق

تمهيد

كيف نصل إلى المعرفة : المعرفة الحقة ، معرفة ما وراء الطبيعة . كيف نخترق الحجب ، ونكشف المساتير ، ونزيل النقاب عن الملأ الأعلى : فنصل إلى الروح ، وإلى الملائكة ، وإلى الله ؟ كيف نصل إلى اليقين ؟ أيكون ذلك عن طريق الروحانية الحديثة ، أم عن طريق الفلسفة الحديثة ؟

سنذكر فيما يلى رأى الشيخ عبد الواحد فى هذين الأمرين اللذان يعدها بعض الناس خطأ ، وسائل المعرفة .

ثم نتبع ذلك بالوسيلة الصحيحة للمعرفة فى نظره وهى التصوف .

الروحانية الحديثة وخطوها (١)

من أخطر الأغلاط الغربية الحديثة ، واحدة ثبتت فى أمريكا منذ أقل من مائة سنة أى : (سنة ١٨٤٧ م) ، وعرفت باسم [الروحانية الحديثة] ويمكن تحديد معناها بأنها ثبوت إمكان الاتصال بالموتى بواسطة وسائل مادية ...

أما كيف بدأت ؟ أولا : فإنها لاحت فى بعض ظواهر طبيعية كانبعاث أصوات ، وتحرك أشياء فى أحد المنازل بدون ما سبب واضح لها ، أما هذه الظواهر فقد لوحظت فى كل زمان ومكان فلا يمكن القول بأنها ظواهر شاذة فلماذا إذن يستولد منها الغربيون عقيدة جديدة فى تلك الحالة الخاصة ؟ بينما لم يفكر أحد فى شيء من ذلك من قبل ! ! ! ..

الحق أنهم ثاروا على تلك المادية المنتشرة فى العالم فعملوا على إيجاد وسيلة سرية تعمل على هدمها ، ولكن إذا اعتبرنا أن غايتهم من ذلك حسنة ؛ إلا أن الوسائل التى استعملوها لبلوغ غايتهم لم تكن كذلك .

وحقيقة أن الباطل هو شر دائماً ولذا يمكننا أن نوافق على ما يدعيه البعض من أن الغاية تبرر الواسطة ، وفى الواقع أن الواسطة إذا لم تكن صالحة تماماً فإنها كثيراً ما تنقلب سريعاً ضد الغاية المرجوة ، وإننا إذا تخيلنا صورة الحياة بعد الموت ، على مثال صورة حياة الجسم على الأدض ، وهى التى انقاد إليها أتباع العقيدة الجديدة ، فيمكننا أن نعتبر أن ما يسمى « الروحانية الحديثة » ما هى فى الحقيقة إلا مادية من نوع آخر ، بل أكثر ضرراً من المادية لأنها

---

(١) مجلة المعرفة : صفر سنة ١٣٥٠ ، يولية سنة ١٩٣١ .

تخلق الأوهام والتخيلات فى حقيقة طبيعتها حتى تتمكن من التأثير فى الذين لم يقبلوا الآراء المادية الصريحة الشائعة ، أكثر من هذا أن فيها خطراً آخر ، ويكفى أن نرى كم من الأشخاص — بواسطه ما يسمى الاتصال بالموتى — أصيبوا بالجنون أو الخراب ثم الانتحار ، عند ذلك يكون لنا الحق فى التصريح، بأن هذا التعليم الذى يجلب مثل هذه العواقب، هو لعنة على بنى الإنسان ، وهذه العدوى المزمنة التى رسخت فى عقول الكثيرين من الأشخاص الطاهرى السريرة، وذوى النوايا الطيبة ، هذا الخطر ينتشر فى الشرق ، بل لا نغالى إذا قلنا إنه امتد إلى الشرق الأقصى حيث نلاحظ — منذ سنوات قليلة — انبعاث دين جديد فى الهند الصينية يسمى « كاؤداى » ويدعى أنصاره أنه لا يستمد تعاليمه عن طريق الوحى بل يستمدها مباشرة من الله بواسطة [سـلة] متحركة .

وينبغى أن يفهم القارىء أننا بعيدون جداً عن إنـكار حقيقة أنواع الظواهر المختلفة التى يرى فيها «الروحانيون الحديثون» برهانا على وجهة نظرهم، فإن هذه الظواهر — كما سبق القول — كانت معروفة دائماً عند القدماء ، بل كانوا أكثر علماً بها ممن يعرفونها الآن .

ولـكننا ننكر تفسيرها الحديث الذى تفسر به هذه الحقائق بنسبتها إلى فعل « الأرواح المجردة » ، وهى التى يقصد بها الشخصيات الإنسانية التى زالت عن عالم الوجود الأرضى .

كيف يقبل التفـكير السليم أن « الأرواح المجردة » يمكنها تحريك مائدة ، أو استيلاء قوة خفية على اليد تجعلها تـكتب أو ترسم ، أو أشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل ؟

مثل هذه الإثباتات لا تدل إلا على عدم العلم — الذى أصبح تقريباً عاماً

فى وقتنا هذا — باختلاف الظروف فى حالات الوجود المتباينة ، وينبغى أن نذكر أنه إذا أمكن للإنسان أن يتصل بالأرواح — إنسانية أو غير إنسانية — فإن ذلك لا يكون إلا بأن يصير نفسه متيقظاً فى حالة وجوده الخاصة التى تطابق الحالة نفسها ، والتى تكون فيها تلك « الأرواح » فعلا ، ولكن هذه مسألة أخرى ليس لها أية صلة بتعاليم وأفعال « الروحانية الحديثة » .

وفى الحقيقة توجد عناصر كثيرة من أنواع مختلفة ربما ساعدت على إيجادها ؛ على حسب الحالات المختلفة ، ولكن ينبغى أن نفرق بين هذه العناصر بدقة ، وسنشير بإيجاز إلى أنواعها المختلفة حيث لا يمكننا أن نفسر كلا منها تفسيراً كاملاً مفصلاً لأن ذلك لا يتسع البحث فيه الآن : —

(١) من أهم العناصر التى تحدث هذه الظواهر تلك التى تحدث فى معظم الحالات ، وكثيراً ما تكون منفردة ، وهى التى فى قوى الإنسان العقلية — هذه القوى التى يمكن أن تتسع وتكبر أكثر مما يظنه علماء النفس الحديثون ، أو الذين يشتغلون بدراسة الحالات الشاذة .

هذه القوى كامنة فى كل إنسان ، وإذا نمت واتسعت بطبيعتها فإن ذلك يكون فى حالات نادرة ، لكن يمكن تنميتها صناعياً فى بعض الأشخاص بوضعهم فى حالات خاصة مثـــل تلك الحالات المعروفة تحت الإسم العام « التنويم المغناطيسى » وهى التى فيها يمكن للإنسان أن يحس بأشياء بدون أن يتصل جسمه بها ، وكذلك يمكنه تحريكها ، كما يمكنه أيضاً رؤية أشياء مخفاة عن حواسه العادية ، أو بعيدة عنه فى الزمان أو فى المكان وغير ذلك .

ولا يمكن لغير الرجل المادى — فى أضيق حدود معنى هذه الكلمة — أن يقول بأن الإنسان محدود بالقياس إلى جسمه ، ولكن الروحانيين —

بتسميتهم هذه التي درجت في الفلسفة الغربية — يشكون جداً في قدرة الإنسان على احتمال ما هو فوق مستوى قواه الجسمية ، أو تلك القوى التي تتصل وثيقاً بالجسم وتظهر في الحياة المعتادة لأى فرد ، ومن جهة أخرى ينبغي أن نذكر أن تلك التي تسمى القوى الشاذة ـ وهي التي نتكلم عنها ـ ليس فيها شيء روحي في الحقيقة أكثر من القوى المعتادة .

وإن التصور الذي جعل الإنسان الحي يتكون من جزئين أو عنصرين فقط — وهو ما انتشر في الفلسفة الحديثة خاصة وفي العقل الغربي عامة — هذا التصور هو الذي سبب هذا الاضطراب ، لأنه صيّر الناس جاهلية بالفرق الأساسي بين النفس والروح ، وإن طبيعة المقدرة التي تظهر في الأشخاص الذين ينامون تنويماً مغناطيسيا — وهم الذين يسمونهم « الروحانيون الحديثون » بالوسطاء — ليست «روحية» بالمرة بل هي «نفسية» تماماً ، وهي تخص الحالات التي يمكن وصفها بأنها ألطف من الحالات العادية كما أنها أكثر اتساعاً ، وأعلى منزلة أيضاً في درجات الوجود ؛ كما يجب أن تكون الحالات الروحية .

وإنما مثل هذه القوى في الإنسان هو إنماء الإحساس بالاتساع لا الإحساس بالارتفاع .

هذه الحالات النفسية التي تظهر إما في التنويم المغناطيسي ، أو في بعض حالات من الأمراض العقلية ينشأ عنها مايسميه علماء النفس خطأ « بالشخصيات المتعددة » لأنها تظهر منفصلة عن الحالات العادية ، وربما كان هذا خطأ في استعمال الكلمات ، وإلا فإنه يكون خطأ فاحشاً لأنه لا يمكن لعقل ما أن يتصور أن الإنسان الحي له أكثر من شخصية واحدة .

وحقيقة أن كل حالات الكائن ما هي إلا مظاهر جزئية لشخصية واحدة غير متغيرة .

وصحيح أن الإنسان فى حالاته العادية لا يحس بالأعمال التى يؤديها ، أو المعارف التى يستقيها فى الحالات الأخرى ، ومن السهل جداً أن ندرك هذا لأن الحالة العادية هى أضيق الحالات مجالا ، كما أنها لا تعتمد إلا على الشروط الجسمية ، بينما الحالات الأخرى تكون مطاقة الحرية ، وإننا لا نجد غرابة فى هذا لو فكرنا فقط فى التفرقة التى توجد عادية فى كل فرد بين شعوره بحالة اليقظة وشعوره بحالة النوم .

ينبغى أن نوجه بحثنا نحو نقطة واحدة : هى أن كل مايسمى (بالظواهر) إما أن يصدر من القوى العقلية فى الحالات العادية أو من قوى الحالات النفسية الأخرى . هذه الظواهر تمثل فقط الجزء الظاهرى من الكائن ، وواضح من الكلمات نفسها أن (الظواهر) — من أى نوع أو درجة — هى كلها من الظاهر وليست من الباطن : أى أنها تعديلات سطحية للكائن وليست عناصر مكونة لذاته الباطنية العميقة ، والقوى التى يمكن يسميتها تماماً باطنية ينبغى أن يبحث عنها فى حالات تختلف تماماً عن الحالات النفسية وتسمو كثيراً عن الظواهر العادية أو الشاذة .

(٢) إذا رجعنا إلى الحالات النفسية التى تكلمنا عنها فينبغى أن نقرر أن الإنسان فى هذه الحالات — كما فى الحالة العادية — يحاط بقوى فعالة مختلفة ألطف من تلك التى فى عالم الجسم والحس ، ولكن بعضها ربما كان مشابهاً — لا ذاتياً — لقوى مثل الكهرباء وغيرها ، ولا يخفى أن هذه القوى يمكن للطبيعى العادى الاستدلال عليها بتأثيراتها المحسوسة .

هذه القوى النفسية التى كان يعبر عنها [الطاو ـ صى] الصينيين بأنها (قوى سابحة) كان لها قوانين مثل أى قوانين أخرى طبيعية ، وربما كان الغرض منها علمياً فإذا أمكن أن تجمع وتركز بشروط خاصة ، فإنه ينبعث

منها تأثيرات ربما تظهر عريبة لمن يجهلون مثل هذه الأشياء ، مثلها فى ذلك مثل ظهور التأثيرات الكهربائية لمن يجهلون الطبيعيات .

أضف إلى هذا أن الإنسان إذا اتصل بمثل هذه القوى يمكنه ـ بدون أن يشعر ـ أن يلبسها لوقت ما شخصية ظاهرية بزوال شخصيته الخاصة ، ومن هذا يمكننا تفسير ظواهر كثيرة .

وهنا يمكننا أن نرى أحد الأسباب للأخطار التى يقع فيها من يمارس (الروحية الحديثة) أو ما يماثلها : يعرض الفرد نفسه لتأثيرات ربما أثرت فيه أحوال كثيرة فتبعث فى كائنه الخاص عناصر الاضطراب ، وعدم الاتزان النفسى ، تذهب به أحيانا إلى نوع من الوحدة والعزلة ، ويمكننا أن نجد ما يماثل هذه الوحدة فى بعض ما يسمى (بالشخصيات المتعددة) ـ التى تكلمنا عنها سابقاً ـ .

هذه الأخطار لا يستهان بها ، وربما لا يمكن تجنبها إذا كان الأشخاص الذين يتصلون بهذه القوى جاهلين تماماً بطبيعتهم ، كما هى الحال مع الأكثرية العظمى لمعاصرينا ، وخاصة « الروحانيين الحديثيين » الذين هم فى الحق كالأطفال يلعبون بالنار .

(٣) الإنسان فى حالته العقلية أو النفسية يجد نفسه متصلا ـ كما فى الحالات العادية ـ بكائنات أخرى موجودة فى حالات تتفق مع حاله ، وأهم ما نقصده هنا بالكائنات ، هم بنو البشر وهذا هو ما يحدث لهؤلاء الذين يشتركون فى (جاسات) الروحانية الحديثة بدون رغبة منهم ، أو معرفة فيوصلون أفكارهم إلى الوسيط ، وليست أفكارهم هى المطابقة للواقع حينئذ فحسب ، بل أيضاً وغالباً أفكارهم البعيدة التى تلوح لهم كأنهم نسوها لبعد العهد بها ،

فيعجبون جداً من اكتشافها ، ويمكن للأشخاص الغائبين أيضاً أن يتصلوا بأنفسهم مهما كانوا بعيدين إذا كانوا فى مثل هذه الحال متجردين من كل القيود الجثمانية ، ويمكن إجراء هذه التجربة بشعور من الأشخاص ، أو بدون إحساسهم بها : وتحدث الأولى فى الحالات النادرة للأشخاص الذين لهم معارف خاصة ، والذين يعملون هذا لغرض محدود كما حدث عند ابتداء العلم (بالروحانية الحديثة) .

وتحدث الثانية فى الحالة العامة وهى اتصال أى فرد — وخاصة أثناء النوم — ويجدر بنا أن نضيف إلى ما ذكر أنه يوجد بعض المظاهر فى الحيوانات لأن لهذه أيضاً حالات لطيفة فى كائنها الخاص .

(٤) وفى بعض الحالات تحدث الظواهر — طبيعية كانت أو مفتعلة — بعناصر تنبعث حقيقةً من الموتى ، ولكن ليس اتصال فعلى بشخصياتهم الحقيقية: وهذه العناصر ما هى إلا بقايا نفسية مشابهة لبقايا الجسم التى يتركها الميت بعده بتحلله ، لأنه يوجد فى الطبقة النفسية عناصر تلازم الخالد من الكائن ، وهذه العناصر أقرب إلى الحالة الجسمية ، ولذا يمكنها أن تولد تأثيرات حسية ، وهذه البقايا النفسية تمثل حقيقة حالات خاصة من (القوى السابحة) التى سبق ذكرها قبلا ، وإذا ذكرناها على حدة فإن ذلك لأن مظاهرها جميعها يمكن اعتبارها كمظاهر حسية للموتى ، ولكن فى معنى يختلف تماماً عما يقصده (الروحانيون الحديثون) ، مثل هذه العناصر يمكن أن تأخذ مظهراً مؤقتاً للحياة ثم تعطى حينئذ إجابات آلية تعكس بعضاً من أفكار الفرد التى سبق أن كانت تختص به .

وهذا الطيف من الشخصية — إذا أمكن تسميته كذلك — هو ما كان يسميه اليهود القدماء [أوب] كما يرى فى بعض الكتب المقدسة ،

وقد أعطى إجابات فى (الاستحضارات) التى استعملت بين معظم الناس ، ولو أن الدين يحرمها بصفة عامة .

(٥) وأخيراً ليكون الموضوع تاماً ؛ ينبغى أن نذكر إمكان تداخل تلك الكائنات التى ليس لها حياة جسمية . هذه الكائنات — التى تعتبر غير إنسانية — ليس لها مطلقاً طبيعة روحية خالصة ، ولكنها بالعكس تقرب جداً من العالم الحسى ، ولهذا يمكنها أحياناً أن تحدث تأثيرات فيه ، ونريد هنا أن نشير بصفة خاصة إلى فعل الجن — ولكن ليس هنا مجال الإفاضة فى هذا الموضوع — وبما أنه لايوجد شىء روحى فى كل هذه الأشياء أكثر من تلك التى لها اتصال بالحياة الأرضية ؛ فلا ضرورة للقول بأنه لا يمكن المقارنة بينها وبين الأشياء الأخرى التى تختلف فى طبقتها ؛ كوحى الأنبياء — عليهم السلام — أو التى فى طبقة أقل ارتفاعاً ، كالمقدرة الخاصة للأولياء — رضى الله عنهم — وهى التى تنبعث فى مبدئها من العالم الروحى ، وينبغى أن نقرر أن هذه المبادىء تختلف فى حقيقتها بينما تتفق فى المظاهر الخارجية ، ولكن هذه أيضاً مسألة أخرى تلك مسألة (المؤثرات الروحية) وليس لها صلة بموضوعنا الحالى ، أما من حيث الظواهر النفسية فإننا سنصف هذا :

بعض الغربيين — وليس هؤلاء الذين يقبلون وجهة نظر فحسب الروحانية الحديثة ، بل والذين يسمونها أغراضاً علمية — يحاولون بكل جهدهم أن يكتشفوا أشياء كانت معروفة تمام المعرفة فى الأزمنة السحيقة عند الأمم الشرقية ، ويلاحظون بعض الحقائق ، ولكن يعجزون عن تفسيرها ، بينما يوجد — كما سبق أن أوضحنا باختصار — كل ما نحتاج إليه لتفسير هذه الحقائق نفسها بل وحقائق أخرى كثيرة لم يكن لديهم أقل فكرة عنها .

والنتيجة :

أن كل من يود معرفة حقيقية مثل هـــذه الموضوعات ، لا يمكنه أن يجد ضالته فى البحوث الغربية الحديثة ، بل عليه أن يرجع إلى المعارف الشرقية القديمة ؟

عبد الواحد يحيى

الروحانية الحديثة (١)

رد على رد

لو كان الأستاذ فريد بك وجدى قد قرأ ما كتبناه منذ عشر سنين تقريباً عن موضوع « الروحانية الحديثة » ، فإنه ما كان ليكلف نفسه عناء جمع هذه الملاحظات التى كتبها فى الجزء الماضى من هذه المجلة ، لأننا أجبنا عن كل منها إجابةً تامة ، وأكثر إسهاباً مما يمكننا ذلك فى هذه الصفحات القلائل ، ومع ذلك سنحاول هنا ثانياً، أن نحدد مركزنا فى مثل هذا الموضوع ؛ حتى لا يبقى مجال آخر لذلك الاضطراب الذى نشأ من هذا البحث .

ينبغى علينا أولا أن لا ننكر أنه منذ ابتداء ما يسمى بالعصور الحديثة — أى منذ ثلاثة أو أربعة قرون — شك الغربيون فى كل معارف القدماء ، ولكن ذلك إنما حدث لأنهم لم يدركوا تماماً معنى وطبيعة هذه المعارف ، وفى نفس الوقت يظهر أنهم لم يستطيعوا أن يقبلوا أى شىء خارج عن دائرة التجارب الحسية ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك ظهور وانتشار المادية واتساع دائرة البحث اتساعا غير عادى فى بعض علوم خاصة تختص بالمادة فقط .

وقد كان هذا الأمر فى الغرب فحسب ؛ أما الشرق فإنه لحسن الحظ لا يزال محتفظاً للآن بمعرفته القديمة ، ولم يقبل هذه الحدود المتعسفة ولم يستسغ أيضاً تعاليم فرنسيس باكون، أو تعاليم ديكارت التى لا توضح شيئاً ماللعقول الشرقية النقية : أى التى لم تتأثر بسموم الأفكار الغربية .

والآن إن فكرة محاربة المادية المنتشرة فى الغرب بواسطة العلم المادى نفسه

---

(١) مجلة المعرفة : ربيع الثانى ١٣٥٠ هـ ، سبتمبر سنة ١٩٣١

هى فكرة خاطئة ، ولا تؤدى إلى نجاح ما ، لأن هذه الوسائل ليس لها من قيمة ؛ إلا فى دائرة خاصة ضيقة جداً ، وإذا تعدتها تكون عديمة القيمة ، ويظهر أن هذه الفكرة نشأت من توهم أن مثل هذه الوسائل هى الوحيدة [الوسائل العلمية] التى يمكن الاعتماد عليها فى محاربة المادية ، ولكن هذه أيضاً أوهام غربية ، وفى الحق أن لدينا علوماً أخرى لاتقل فى أهميتها وحقيقتها عن سابقتها ؛ تستخدم وسائل مخالفة تمام المخالفة ، غير معروفة للغربيين الحديثين .

وإذا قلنا ذلك ينبغى أن نميز بين حقيقه مسألة الظواهر الشاذة التى نتحدث عنها هنا ، والتفسيرات المختلفة التى أعطيت لها هناك . وإننا لنستغرب جداً أن الأستاذ فريد بك وجدى لايزال يصر على النقطة الأولى « للظواهر » لأننا قلنا أنفسنا إن حقيقة هذه الظواهر لا تقبل الشك ، وإنها كانت معروفة فى كل العصور ، وفى كل الأقطار ، فإن مثل هذه الحقائق شائعة الوجود وليست نادرة ، ولها من الأنواع ما يكثر عما يدركه الغربيون « الروحانيون الحديثون » أو غيرهم من الذين يحاولون دراستها .

وإننا لنأسف على أن الأستاذ فريد بك وجدى — فى هذه المسألة — يعدد كثيراً من أسماء العلماء الأوربيين والأمريكيين ، الذين اشتركوا فى هذه الدراسة ، كأننا ملزمون أن نقبل مايمليه علينا هؤلاء العلماء ، وإننا لنأسف لأننا لا يمكننا أن نسيغ للشرقى أن يعتقد أنه ملزم بأن يتبع الغربيين ، ويتقبل تعاليمهم — وخاصة فى أشياء لا تزال حقيقتها معروفة دائماً فى الشرق ؛ بينما الغرب ليس إلا باحثاً فيها فقط — ، وليس من حاجة إلى القول بأن الذين يبحثون عن شىء هم الذين لا يعرفون حقيقة هذا الشىء .

أضف إلى ذلك أن الأشخاص الذين ذكروا ليست قيمتهم متعادلة فلا يمكننا أن نضع فى وصف واحد رجلا [طبيعياً] نقدره حق قدره مثل :

وليم كروكس ؛ مع آخر نعتبره (متجراً بالعلوم) مثل : كاميل فلاماريون ، كما علينا أن نضيف أنه إذا كان بعض الرجال قد قبل « الروحانية الحديثة » فإن كثيراً منهم اختلفوا فى وجهة نظرهم ، أو ربما صدوا أنفسهم عن أى نظرية أو تفسير ، وإننا نجد بين هؤلاء الذين صاروا « روحانيين حديثين » من اشتغل — لأسباب لاصلة لها — بالعلم مثل : سيزار لومبروزو ، و أوليفرلودج ؛ فإن الأول اشتغل بها بعد موت والدته ، والثانى بعد أن قتل ابنه فى الحرب ، وهذا يظهر لنا أن مثل هؤلاء الرجال — بصرف النظر عن علومهم الخاصة — ضعاف القول جداً.

وينبغى أن نضيف إلى ذلك أيضاً أن بعض العلماء لم يمنعهم تعليمهم من أن يخدعوا بالظواهر المصطنعة ، كما حدث لوليم كروكس مع وسيطته فلورنس كوك ، وكما حدث حديثاً مع شارل مريشيه فى الجزائر ، وحدوث ذلك سهل الإدراك جداً ، لأن هؤلاء الأشخاص — بعيدون عن حدود علومهم — ليس لهم أية كفاءة أكثر من أى إنسان جاهل آخر ، بل ربما وقعوا فى الخطأ بسهولة أكثر من أى شخص آخر ، لأنهم حينئذاك يبحثون فى أشـــياء تختلف طبيعتها وقوانينها اختلافا تاماً عن تلك التى اعتادوها ، ولأنهم يحولون استعمال وسائلهم العادية فى هذه الأشياء ، بينما هذه الوسائل لم توضع لمثل ذلك مطلقاً .

وماذا نقول فى ذلك التاجر الغنى الذى كان يتاجر بالنبيذ « جان ماير » الذى مات منذ شهور قليلة فقط ؟ صرف هذا الرجل ملايين عديدة لأنه طمع فى أن يصير يوما ما بابا « الروحانية الحديثة] ، وقد أثار حربا بلا شفقة على هؤلاء [الإخوان الدينيين] الذين تعمدوا أن يؤسسوا جمعيات ومكاتب مستقلة واضطروا أن يذعنوا لقوة المال ، وكان ذلك بالطبع تحت اسم [الأخوة — والإخاء] ، وقد أسس هذا الرجل نفسه فى باريس معهداً (علميا) لغرض إخضاع الباحثين الأحرار ، ونقصد بهم الذين لم يكونوا « روحانيين حديثين »

وباستلامهم منه إعانات مالية لم يكونوا قادرين على أن يعاوضوا شيئاً من (الروحية الحديثة) .

وفى الحق إننا لنجد عاراً فى اضطرارنا إلى التصريح بمثل هذه الأسماء والوقائع على صفحات هذه المجلة التى ننزهها عن ذكر مثل هذه الأعمال .

أما الأخطار التى تنتج من [الروحانية الحديثة] فإننا نؤكد للأستاذ فريد وجدى بأن الجنون والحوادث الأخرى التى تنتج منها ليست شاذة بالمرة ، بل كثيرة الحدوث فى الواقع ، فإذا قال لنا إنها تحدث لغير المتعلمين ؛ أجَبْنا بأن هؤلاء فى الواقع هم العدد الأكبر بين « الروحانيين الحديثين » فى كل الأقطار ، وليس لنا الحق فى أن نترك هؤلاء الناس معرضين بدون وقاية من مثل هذه الأخطار ، التى تنشأ من انتشار الأفكار الضارة ، وهم على استعداد لقبولها بدون فحص ، ولا روية .

بل ينبغى أن يكون العكس تماماً ، ونضيف فوق ذلك أننا لا نظن مطلقاً أن التعاليم الخارجية كما تحصل فى المدارس والجامعات الغربية ؛ يمكن أن تحفظ صاحبها من هذه الأخطار البتة ... وذلك لأن مايسمون بالأشخاص (المتعلمين) ، أو حتى مشاهير « العلماء » يجهلون تماما هذه الأشياء التى تبحث هنا .

أما تفسير الظواهر بواسطة مقدرة « الوسيط » نفسه فهذا صحيح ، ولكننا غير ملزمين بأن نقبله أو نرفضه ، لأن بعض الغربيين استساغه ، حَدَثَ من هذا القبيل أنهم قرروا أشياء — بدون علم منهم — لم تكن بمستحدثة بالمرة ، بل كانت معروفة فى الشرق منذ آلاف السنين ، ولسوء الحظ نرى أن الغربيين ، يفهموها فى معنى ضيق جداً ، لأن معرفتهم بطبيعة الإنسان الحقيقية

ومقدرته ناقصة ، ولذلك لم يستطيعوا استعمال ذلك التفسير فى حالات كثيرة يناسبها تماماً ، ولا ينبغى أن نذكر أن تلك القوى التى لها نصيب هام فى توليد هذه الظواهر هى قوى عقلية ، بل هى قوى نفسية تختلف تماماً ، ويتسع مدلولها ومعناها أكثر من الأولى ، ولكن ينبغى أن نكرر ثانياً أنها نفسية وليست روحية بالمرة ، مثل تلك العناصر التى يتركها الرجل بعد موته ، والتى ليست لها صلة بالجزء الخالد من كائنه .

ونحن إنما نصر على هذه النقطة ـ لأنه ولو أننا أو صححناها سابقاً ـ إلا أن الأستاذ فريد بك وجدى، يجعلنا نتكلم عن هذه كأنها عناصر روحانية ، وإذا قلنا إن هذه ألطف وليست (من القوى التى فى الجسم) ، بل (من تلك التى فى عالم الجسم والحس) أى : أنها من تلك التى تدرس بواسطة العلوم الطبية الحديثة ، فإنها تتسبب من طبيعتها النفسية ، وذلك لأن عبارة (العالم اللطيف) هى ترجمة أدبية للتعبير الهندى الذى يقابل « العالم النفسى » - هكذا يعبر عنه للمقارنة بينه وبين العالم الحسى - ولا يمكن أبداً أن يطابق « العالم الروحى » .

وعلى أية حال فإن القوى التى تعمل فى هذه الظواهر - سواء كانت تخص الوسيط نفسه أو أى حى آخر سواه ، أو كانت قوى أخرى خارجية مثل القوى السابحة أو قوى تنبعث من أحياء مثل الجن - هذه القوى كما ذكرنا سابقاً تقرب جداً من العالم الحسى، ويجب أن تعتبر حقيقة من طبيعة منحطة ، وفى مثل كل هذه الحالات لا تتداخل القوى العلوية مطلقا ، ولو أن الأستاذ فريد بك وجدى يؤكد ذلك . . . بينما يعطينا سبباً معقولا لهذا التأكيد - ونحن مضطرون لأن ننكر ذلك إنكاراً باتاً - وحينئذ يسقط من تلقاء نفسه كل

ما يحتم علينا أن نصدق ظهور شخصية أحد الموتى ، ولو أنه ينبغى علينا أن لا نقرر كذب ذلك، مثل ما نقرر إذا رأينا أحد القردة يقلد حركات الإنسان ، وتستمد هذه القوى ر الحس من الأشخاص الذين تظهر بينهم ، ولذا فإن الأفكار التى تعبر ها هذه القوى تطابق تماماً ما يجول فى خاطر الأشخاص الذين يتسمعونها، وهذا يفسر لنا لماذا تتناقض ما تسمى [الأرواح] بعضها مع بعض .

خذ مثلا لذلك : بينما تشيع نظرية « التقمص » فى فرنسا - إذ لا يعترف بها فى انجلترا وأمريكا - وقد رأينا « أرواحاً » مادية فى بعض الرسائل التى تسلمت فى هولندا منذ عشرين سنة ، تنكر الخلود وتثبت أن حياة الإنسان تبقى بعد الموت على الأكثر لمدة ١٥٠ سنة .

والآن ينبغى أن نضيف ما يأتى :

يوجد أشياء لا يمكن أن تخضع لوسائل العلوم الغربية الحديثة المادية ، ولذا يقال عنها إنها خرافات أو من خيال القدماء، بينما هى فى الواقع المنفذ الذى يؤدى إلى نوع آخر من العلوم يختلف تماماً عن العلوم المادية ، وهذا العلم القديم هو الذى يجدر بنا أن نسميه - بحق - العلم الصحيح .

وإننا لا نخاف إذا قررنا وجود نفوس بالكواكب ، وأن لها تأثيراً فعالا على الحوادث الأرضية ، ولا نخاف أيضاً إذا اعترفنا - كما علمنا القدماء - بأن العناصر ليست أربعة بل خمسة، وأنه لا يوجد أكثر من ذلك أو أقل، وأن هذه العناصر ليس لها أية صلة بما نسميه الكيمياء الحديثة « المواد الأولية

البسيطة » لأنها - أى العناصر - ليست أجساماً بل هى تلك التى تتكون منها الأجسام .

لا يمكننا أن نعطى أى أهمية - إذا نظرنا إلى المعرفة الحقة - للعلوم الحديثة، وهى على الدوام متغيرة غير ثابتة فى تفسيراتها ، فإذا سلمنا بالنتائج العملية التى تنتج من أشياء كثيرة كالكهرباء مثلا بدون معرفة لطبيعتها، فلا نسمى هذا علماً ، بل يجب أن يسمى فقط صناعة .

فلا نستطيع مشاركة الأستاذ فريد بك وجدى فى تفاؤله بنتائج البحوث الغربية ، التى تظهر لنا كأنها تحاليل لانهاية لها ، ظاهرية لا نفع فيها .

وبما أننا نرى أن التقدم فى هذه البحوث يؤدى إلى عكس كل ما هو طبيعة روحية ، فإننا لا نشك فى صعوبة بل واستحالة الوصول بهذه البحوث إلى فتح الطريق إلى العالم الروحانى .

وإذا افترضنا حدوث ذلك بأى حادث كان ، فإن ذلك سيكون نهاية العلم الحديث والمدنية كما يفهمها الغربيون ، ومع ذلك فمن المحتمل جداً ، أن يصل الغربيون إلى ذلك .

وأخيراً نقول : إن الشرق يجب أن يحتفظ بعلمه الخاص فإنه أصدق وأتم وأكثر انتشاراً فى كل الوجود بدلا من تضييق دائرته فى عالم المادة فقط ، ولسنا كما يظننا الأستاذ فريد بك وجدى نعيش فى زمن غير زمننا ، لأن زمننا يختلف عن زمن الغربيين ، فبينما يحلم هؤلاء (بالتقدم) حتى يستيقظوا على صوت إحدى الكوارث - نعرف أن العهد الذهبى كان فى الحق عند ابتداء التاريخ البشرى إذ أعطيت كل المعرفة للإنسان فى المبدأ ، أخذت تختفى عنه

تدريجياً بتوالى العصور ، وتنتقل رويداً من عالم الروح إلى عالم المادة ، وأخيراً نحن نؤكد أن تلك العقول التى تأثرت بالفكر الغربى سوف لا تزال تتهمنا بأن كل ما نقرره خرافات ، ولكن ذلك لا قيمة له من جهتنا ، وإنما نحن نوجه كلامنا هذا لا إلى مثل هؤلاء الأشخاص ، بل إلى الشرقين الحقيقيين الذين يصرون دائماً على أن يكونوا - كما هو الواجب عليهم - محافظين على الحكمة الأبدية ؟

عبد الواحد يحيى

القوى السابحة (١)

عندما بينا العناصر المختلفة التي تتضافر في إحداث تلك الظواهر التي ينسبها الروحانيون المحدثون إلى ما أسموه « بالأرواح » ؛ أشرنا بصفة خاصة إلى واحد منها يلعب دوراً خطيراً : هو عنصر القوى اللطيفة التي أسماها « الطاو ـ صى » الصينيون [بالقوى السابحة] ، ولقد يكون من المهم الآن أن نعطي تفسيراً تكميلياً لهذه النقطة ، حتى نتجنب الخلط الذي يقع فيه بسهولة أولئك الذين لهم دراية بالمعارف الغربية الحديثة أكثر مما لهم من علوم الشرق القديمة ، وهم لسوء الحظ كثيرون في أيامنا هذه .

لقد نبهنا إلى أن القوى التي نعنيها هنا — لكونها ذات طبيعة نفسية — تكون بالضرورة ألطف من قوى العالم الحسي أو الجسمي ، ولهذا فينبغي أن لا نخلط بينهما حتى ولو تشابهت نتائجها مع نتائج القوى الحسية بعض الشبه ، مثل هذا التشابه يوجد في الواقع على وجه الخصوص مع نتائج الكهرباء ، ولكن هذا التشابه يفسره ما يوجد من تطابق بين سائر القوانين التي تسير كل العوالم وكل الحالات . . ذلك التطابق الذي بواسطته يتحقق التناسق والانسجام في درجات الوجود كلها .

ولهذه القوى السابحة أنواع متباينة تمام التباين ، ونحن نجد في العالم الحسي أنواعاً عديدة من القوى ، ولكنا نجد في العالم النفسي أن الأمور أكثر تعقيداً مما هي هنا لك ، ولهذا فالميدان النفسي أكثر امتداداً من الميدان الجسمي ،

---

(١) مجلة المعرفة : جمادى الثانية ١٣٥٠ هـ ، نوفمبر سنة ١٩٣١ م .

وأقل ضيقاً منه إلى حد كبير ، ويندرج تحت هذه التسمية العامة (القوى السابحة) كل القوى الخارجة عن الأفراد ، وأعنى بذلك كل القوى التى تفعل وتؤثر فى الوسط الكونى من غير أن تدخل فى تركيب أى كائن معين ، وفى بعض الحالات تكون هذه القوى بذاتها ، وفى حالات أخرى تكون صادرة عن عناصر نفسية منحلة كانت تخص فيما سبق كائنات حية ؛ ومن بينها الإنسان كما أوضحنا ذلك فى المقال السابق . على أن المقصود فى كل الحالات إنما هو صنف معين من القوى الطبيعية التى لها قوانينها كما لغيرها من القوى ، والتى لا تشذ عن تلك القوانين كما لا يشذ غيرها من القوى عن قوانينه ، وإذا لاح أن فعلها إنما يجرى غالبا اتفاقاً وصدفة ومن غير نظام ؛ فما ذلك إلا لجهلنا بقوانينها ، ويكفى أن نلقى نظرةً إلى نتائج صاعقة مثلاً ، النتائج التى ليست أقل غرابةً من هذه القوى لنعلم أنه لا يوجد البتة شىء فى هـــذا العالم لا يجرى وفق قانون .

وهذه القوى — كغيرها — يمكن أن يجمعها ويستخدمها أولئك الذين يعرفون قوانينها ، وهنا يجب علينا أن نميز بين حالتين :

تدبير هذه القوى والتصرف فيها على الوجه المتقدم ؛ يمكن أن يكون بواسطة كائنات تنتسب لنفس العالم اللطيف كالكائنات المعروفة بالجن أو بواسطة أناس أحياء يوجد لديهم حالات مطابقة لذلك العالم اللطيف مما يؤهلهم للتأثير فيه ، وهؤلاء الذين يتصرفون فى هذه القوى بإرادتهم — سواء أكانوا من الإنس أم من الجن — يلبسون تلك القوى نوعاً من الشخصية المصطنعة المؤقتة ، وتلك الشخصية فى حقيقة الأمر ليست إلا إنعكاساً لشخصيتهم الذاتية وطيفاً لها ، ولكنه يحدث أحياناً أيضا أن هذه القوى عينها يمكن أن تجتذب وتدبر من غير شعور بواسطة كائنات تجهل قوانينها ولكنها هيئت وأعدت

لذلك بما لها من خصائص شاذة فى طبائعها ، ومثل تلك الكائنات ما اتفق اليوم على تسميته [بالوسطاء] وهؤلاء أيضاً يعيرون القوى التى ينقلون بها شخصية ظاهرية ، ولكنهم يخسرون بإزاء ذلك سلامة حالاتهم النفسية التى يعتريها من تلك القوى اضطرابات قد تصل إلى حد الانحلال الجزئى فى الشخصية .

ولنا على هذا النوع من الاستحواز اللاشعورى ، أو اللاإرادى الذى يقع فيه الكائن تحت رحمة القوى الخارجية بدلا من تسلطه عليها —

ملاحظة هامة : هى أن جاذبية هذا النوع يمكن أن تؤثر فى هذه القوى ليس فقط بوساطة أناس [وسطاء] كما تقدم ذكره ، ولكنه يحدث أيضاً بوساطة كائنات حية أخرى بل وحتى بوساطة أشياء غير حية ، أو بوساطة أمكنه معينة تتركز فيها تلك القوى فتنتج بعض الظواهر الشاذة ، هذه الكائنات والأشياء إذا جاز لنا أن نستعمل اصطلاحاً يبرره التشابه بقوانين القوى الطبيعية — إنما تقوم مقام « الأجهزة المكثفة » ، وهذا التكثيف قد يتم من تلقاء نفسه ، ومن جهة أخرى يستطيع الذين يعرفون قوانين هذه القوى اللطيفة أن يركزوها أيضاً بطرق خاصة وذلك بالاستعانة بمواد أو أشياء معينة طبيعتها توافق النتائج المرغوب فى تحصيلها .

وعلى عكس ما تقدم يمكن لهؤلاء أيضاً أن يحلوا تكاثف تلك القوى اللطيفة التى كونوها قصداً بأنفسهم أو بواسطة غيرهم ، أو التى تكونت بذاتها من غير تدخل .

ولهذا التحليل لم يجهل الإنسان — فى أى عصر من العصور — ما للأطراف المعدنية المدببة من منفعة فى تحليل أو تفريغ القوى المكثفة ، وفى هذا مشابهة

شديدة بتفريغ الظواهر الكهربائية ، وإنه ليحدث إذا ما لمس الإنسان بطرف معدنى مدبب نفس النقطة التى يوجد منها ما يمكن أن يسمى (عقدة التكاثف) فإنه يصدر عن ذلك شرار ، ولو أن هذا التكثيف قام به ساحر - كما يحدث كثيراً - فإنه يجوز أن يجرح أو يقتل برد فعل الضربة مهما كان موضعه . ومثل هذه الظواهر شوهدت فى كل زمان وفى كل مكان .

وعمليتا التكثيف والتحليل المشار إليهما لهما نظائر فى حالات تستخدم فيها قوى من نوع آخر كما فى علم الكيمياء ، لأنهما إنما ترجعان إلى قوانين كلية شاملة كانت معروفة فى العلم القديم وخاصة فى الشرق ، ولكنها مجهولة عند الحديثين بتاتا على ما يظهر ، وفى الفرجة التى تنحصر بين هذين الطرفين (التكثيف والتحليل) يستطيع الشخص الذى يدبر هذه القوى اللطيفة أن يلبسها نوعاً من الشعور مما يجعل لها شخصية ظاهرية تخدع الذين يواجهون تلك القوى المكثفة فيظنون أنهم أمام كائنات حقيقة .

وإمكان تكثيف تلك القوى اللطيفة فى أشياء تختلف طبعائعها تمام الاختلاف ، ثم الحصول على نتائج ذات مظهر شاذ غير عادى من ذلك التكثيف - إنما يميط اللثام عن خطأ الرأى الذى يعتنقه المحدثون والذى يذهب إلى أن « الوسيط » لابد أن يكون إنساناً . وينبغى أن ننبه هنا إلى أنه قبل الروحانية الحديثة كان استخدام الإنسان كمكثف أمراً قاصراً على أحط أنواع السحرة ، لما يحيق بالوسيط من مخاطر مهلكة من جراء ذلك الاستخدام .

ونضيف إلى ما تقدم أنه بخلاف ما سبق من وسائل التكثيف ، توجد وسيلة أخرى مخالفة لها تماماً ، لا تقوم على مبدأ تكثيف القوى اللطيفة فى كائنات أو أشياء خارجة عن الشخص الذى يقوم بهذا العمل ، ولكنها تقوم

على مبدأ تكثيفها فى نفسه ، وذلك كيما يستخدمها وفقاً لإرادته ، وكيما يوجد تحت تصرفه إمكان مستديم لإنتاج ظواهر معينة ، واستعمال هذه الطريقة أمر مراعى فى الهند على وجه الخصوص ، ويحسن بنا أن نشير هنا إلى أن هؤلاء الذين يتوفرون على الحصول على نتائج غير عادية بهذه الطريقة ، أو بغيرها مما سلف ذكره ـ ليسوا أهلا لما يسبغه الناس عليهم من جدارة وتفوق ، وإنما هم فى الحقيقة أناس وقف نموهم الباطنى فى درجة معينة ـ لسبب من الأسباب ـ فلم يستطيعوا أن يسيروا إلى أبعد منها ، فنتج عن ذلك أنهم توفروا على بذل نشاطهم فى أشياء من نوع أعلى .

على أن المعرفة التامة الدقيقة بتلك القوانين التى تسمح للانسان بأن يتصرف فى القوى اللطيفة إنما كانت على الدوام قاصرة على عدد يسير من الناس ، وذلك لما ينتج من المضار إذا ما ذاعت بين من لهم مقاصد سيئة ، ويوجد فى الصين كتاب منتشر جداً عن « القوى السابحة » ولكنه لا يتناول غير تطبيق ضيق لتلك القوى على نشأة الأمراض وكيفية علاجها ، وما عدا هذا ألا يكون فى الحقيقة غير موضوع دراسة شفوية محضة ، ومع ذلك فإن الذين يعرفون قوانين القوى السابحة معرفة تامة ، يكتفون بتلك المعرفة ويزهدون تمام الزهد فى تطبيقها واستخدامها عملياً ، وهم ينكرون على أنفسهم أن يثيروا أى ظاهرة من ظواهر تلك القوى بقصد إدهاش الناس أو بقصد إشباع نزعة حب الاستطلاع عندهم ، وإذا تحتم عليهم مع ذلك أن يحدثوا بعض الظواهر ـــ لأسباب مباينة تماماً لما تقدم ذكره من الأسباب وفى ظروف خاصة ـــ فإنهم يفعلون ذلك بوسائل مخالفة تماماً لما هو معروف ، ويستعملون فيه قوى من نوع آخر ، ولو تشابهت النتائج الظاهرة .

وإذا وجد هنالك تشابه بين القوى الحسية كالكهرباء ، وبين القوى اللطيفه

أو النفسية ، فإنه يوجد أيضاً مثل هذا التشابه بين هذه الأخيرة ، وبين القوى الروحية التي يمكن - مثلا - أن تتركز بدورها في أمكنة معينة ، أو في أشياء معينة أيضاً ، ويمكن أن تصدر نتائج تتشابه في الظاهر عن تلك القوى المتباينة في طبائعها ، وهذه المشابهات الظاهرية ، هي مصدر الخلط والانخداع الكثيرين الذين لا يمكن أن يتحاشاهما الذين يتوفرون على تحقيق تلك الظواهر :

فالسحرة يمكنهم - ولو إلى حد محدود - أن يقلدوا بعض كرامات الأولياء ، ومع هذا التشابه الظاهري في النتائج ، فإنه ليس يوجد شيء مشترك بين مصادرها المتباينة فيما بينها تماماً .

وليس يدخل في موضوعنا هذا التكلم عن فعل هذه القوى الروحية ، ولكننا مما تقدم نستطيع على أقل تقدير أن نستمد النتيجة المهمة وهي :

أن الظواهر بمفردها لاتقوم دليلا ، ولاتنهض حجة ، على شيء من الأشياء ، وإنها لا تستطيع أن تثبت صحة نظرية من النظريات أيا كانت ، إذ أن نفس الظواهر يجب أحيانا أن تفسر بصورة تختلف باختلاف الأحوال والظروف ، وإنه لينذر أن لا يوجد لظواهر معينة إلا تفسير واحد ممكن .

ونخلص من هذا كله إلى أن العلم الحقيقي لايمكن أن يتكون إلا إذا بدأ من فوق ، أعني من « مبادىء عالية » . نطبقها على الوقائع التي ليست في الحقيقة إلا نتائج لتلك المبادىء تقرب أو تبعد عنها ، وهذا نقيض ما يفعله العلم الغربي الحديث تماماً ، ذلك العلم الذي يريد أن يبدأ من الوقائع ليستخرج منها تفسيراً شاملا كما لو كان الأكثر يمكن أن يستخرج من الأقل وكما لو كان الأوضع يتضمن الأرفع ، وكما لو كانت المادية يمكن أو تكون معياراً للروح وحداً لهـا ؟

عبد الواحد يحيى

الفلسفة الحديثة

فى الحضارة الروحانية لا يتصور أن إنساناً يزعم أنه صاحب فكرة معينة ابتدعها أو اخترعها . وإذا زعم ذلك شخص ، فإن هذا يكفى فى إزالة الثقة بفكرته . لأنها تعد حينئذ مجرد خيال : إذ أن الفكرة إذا كانت حقيقة ، فهى مشاع بين كل من هم أهل لفهمها . أما إذا كانت خطأ فإنه لا يفتخر أحد بادعاء اختراعها . والفكرة الحقيقية لا يمكن أن تكون « جديدة » : ذلك أن الحقيقة ليست نتاج العقل الإنسانى . إنها موجودة مشتقلة عنا ، ومهمتنا أن نعرفها ، أما إذا خرجنا عن دائرة هذه المهمة فإنه لا يمكن أن نخرج إلا الخطأ. ولكن أيبحث الحديثون عن الحقيقة ، وهل يعلمون معنى هذه الكلمة ؟ . إن الكلمات فقدت معانيها فى هذا العصر الحديث : فأصحاب : مذهب « البرجماتسم » المعاصرون يعرفون « الحقيقة » بأنها كل ما يصل بالإنسان إلى منفعة عملية . وهم فى هذا يبتعدون كل البعد عن النظام الروحانى .

إن الفلسفة الحديثة : لأنها فردية شخصية ، قد وصل بها الأمر إلى إنكار البصيرة ووضع العقل فوق كل شىء. ولقد جعلت منه — وهو الملكة الإنسانية المحضة — الجزء الأسمى من القوة الدراكة ؛ بل إنها ذهبت إلى أبعد من ذلك فقصرت القوة الدراكة على العقل ؛ وهذا هو مذهب «العقليين»(١) والمؤسس الحقيقى له هو فى الواقع ديكارت . وقصر القوة الداركة على العقل ليس إلا مرحلة أولى ؛ إذ أن العقل نفسه أخذ ينزل شيئاً فشيئاً عن صفته النظرية إلى

---

(١) Rationalisme مذهب فلسفى يرفض الوحى : كمصدر للمعرفة ، ويزعم تفسير كل كل شىء بواسطة العقل وحده .

أن حدد عمله بأنه على الخصوص الناحية العملية . وهذا التحديد كان تابعاً لزيادة الاهتمام بالتطبيق العملي، ذلك الإهتمام الذى يجعل الناحية العلمية النظرية فى المرتبة الثانية . على أن ديكارت نفسه كان فى الحقيقة معنياً بالتطبيق العملى أكثر من عنايته بالعلم البحت . وليس هذا كل شيء : فإن الفردية الشخصية فى الفلسفة قد أدت بالضرورة إلى المذهب الطبيعى[١] لأن كل ما هو خارج عن الطبيعة بعيد عن متناول الفرد باعتباره فرداً . والمذهب الطبيعى وإنكار ما وراء الطبيعة . . هما شيء واحد . وإذا كانت الفلسفة الحديثة قد أنكرت البصيرة ، فإنه لم يعد مجال للبحث فيما وراء الطبيعة . بيد أنه إذا كان بعض الأشخاص لا يزالون يصرون على إقامة مذاهب « مزيفة » فيما وراء الطبيعة ، فإن غيرهم قد اعترف فى صراحة بعدم إمكان ذلك؛ ومن هذه النظرة نشأ «النسبيون[٢] » فى مختلف صورهم ، سواء فى ذلك «المذهب[٣] النقدى» لكانت، أو «الفلسفة الوضعية[٤] » لأوجيست كونت ؛ وبما أن العقل نفسه نسبى ، ولا يمكن أن يثمر حقيقة إلا فى محيط نسبى كذلك : فإنه من الواضح أن مذهب « النسبية » هو النهاية المنطقية للمذهب العقلى .

وبذلك يهدم المذهب العقلى نفسه : ذلك أن « الطبيعة » و « الصيرورة » يعنيان فى الواقع شيئاً واحداً : ولذلك كان الطبيعى المنطقى المنسجم مع منطقه

---

(١) «Naturalisme» المذهب الطبيعى ، هو المذهب الذى يعزو كل شيء إلى الطبيعة ، ويرى أنها المبدأ الأول .

(٢) المذهب النسبي : Relativisme مذهب فلسفى يرى أن المعارف الإنسانية كلها نسبية .

(٣) Criticisme مذهب فلسفى لكانت يبحث فى الحدود التى يجب أن يتخطاها العقل إذا أراد السير فى دائرته التى خلق لها .

(٤) Positivisme : هو مذهب فلسفى أسسه أوجيست كونت ، يزعم أن الإنسان لا يمكنه أن يعرف فى دقة إلا الحقائق التى تستمد عن طريق الملاحظة أو التجربة .

فيلسوفا من فلاسفة الصيرورة ، ومثله الأعلى يتحقق فى مذهب « النشوء والارتقاء » . وهذا المذهب هو الذى ينتهى إلى معارضة «المذهب العقلى» فى أنه يأخذ على العقل أنه لا يمكنه أن يقوم بدوره قياماً صحيحاً فى دائرة التغير والصيرورة والكثرة : أنه يعجز عن أن يجعل قواعده تحتوى على التغيرات الحسية اللانهائية المتأرجحة . ومن هنا كانت الصورة الحديثة التى لبسها مذهب النشوء والارتقاء : أعنى مذهب « الحدس » لبرجسون وهو مذهب فردى لا يتمشى مع الاتجاه الروحانى ، مثله فى ذلك مثل «المذهب العقلى» . وإذا كان صاحب مذهب الحدس قد انتقد المذهب العقلى فإنه قد نزل إلى مرتبة دنيا حينما التجأ إلى ملكة أحقر من العقل هى الحدث الحسى الذى لم يحدده برجسون تمام التحديد ، والذى امتزج قليلا أو كثيراً بالخيال وبالغريزة وبالعاطفة ؛ وهكذا وصل بنا الأمر أننا لم نعد بصدد البحث عن « الحقيقة » ولكن بصدد عن « الواقع » ، بل « الواقع » المقتصر على الدائرة الحسية مفهومة على أنها فى جوهرها متغيرة متأرجحة . بين هذه النظريات جردت القوة الدراكة عن جميع أقسامها السامية واقتصر فيها على أدنى أجزائها ؛ بل إن العقل نفسه لم تعد له من قيمة إلا فى الأعمال الصناعية . وبعد كل ذلك لم يعد إلا خطوة واحدة هى الإنكار المطلق لقيمة القوة الدراكة ، وللمعرفة . ووضع « المنفعة » بدل « الحقيقة » : وهذا هو مذهب « البرجماتسم »(١) » وهو مذهب لا يستشرف المعرفة الروحانية ، ولا يتجه إلى السماء يستلهمها الرشاد الحق ، بل إنه لا يقف بنا عند حد المعرفة البشرية الإنسانية كالمذهب العقلى : إنه ينزل بنا إلى مرتبة أقل من المرتبة الإنسانية ، مرتبة تستضىء « باللاشعور »

---

(١) عقيدة تجعل الفائدة العملية مقياس الحقيقة : فالحقيقة فى هذا المذهب تطلق بكل بساطة على كل ماله فائدة عملية .

الذى يجعله وليم جيمس الواسطة إلى الاتصال بالألوهية . وفى هذا قلب للأوضاع الطبيعية .

تلك هى خاتمة الفلسفة فى العصر الحديث وهى خاتمة ما كان يمكن أن توجد فى حضارة روحانية .

لا نريد أن نطيل فى الحديث عن الفلسفة الحديثة فإنه يجب أن لا نعطيها من الأهمية أكثر مما ينبغى لها : إنها من وجهة نظرنا لا تعدو أن تكون نصاً يعبر عن اتجاه البيئة فى زمن معين . إنها تعبر عن اتجاه البيئة ولكنها لا تنشئها . وأنه لمن المؤكد أن الفلسفة الحديثة تنتسب فى أصولها إلى ديكارت ؛ ولكن تأثير ديكارت فى عصره أولا ، ثم فيما تلاه ، ما كان يمكن أن يوجد لو لم تكن الآراء التى قال بها تتجاوب مع اتجاهات سبقته وعاصرته . إن الروح الحديثة وجدت فى الديكارتية مرآة تصورها . فلما نظرت فى المرآة تبينت نفسها فى وضوح أوضح . على أننا نجد فى كل الميادين أن الظواهر التى تشبه الديكارتية هى نتائج أكثر منها مبادئ مبتدعة . إنها ثمرة عمل موجود وإن كنا لا نشعر به فى وضوح . وإذا كان ديكارت أوضح مثل للانحراف الحديث فإنه ليس المسئول عن ذلك وحده ؛ بل ليس أول مسئول عن ذلك .

من جو الفلسفة إلى جو التصوف

إعرف نفسك بنفسك (١)

وهو بحث فلسفى صوفى

كثيراً ما تقال هذه الجملة - إعرف نفسك بنفسك - وكثيراً ما يخفى القصد وبين هذا القول ، وذلك الغموض ؛ يعترضنا سؤالان :-

أولهما : ما هو المصدر الأصلى للجملة ؟ وثانيهما : ما مدلولها الحقيقى وما ترمى إليه من أغراض ؟

قد يخيل لبعض القراء ؛ عند أول وهلة . أن السؤالين مفترقان ، لا رابطة ولا صلة تجمعهما . وعند تدقيق النظر ، والبحث والتمحيص ؛ سيثبت لهؤلاء أن السؤالين مرتبطان ببعضهما كل الارتباط .

* * *

إذا سألنا أغلبَ مَنْ درسوا الفلسفة اليونانية ؛ عن الإنسان الذى فاه بهذه الحكمة ، لما تردد فريق منهم فى الإجابة بأن القائل سقراط . . بينما يقول فريق ثان أفلاطون . . ويقرر فريق ثالث بأنه فيثاغورث .

من هذا التضارب فى الرأى ، وذلك التباين فى القول ؛ نستطيع الحكم بأن الجملة تقرأ فى كتاب لأحدهم باعتباره مصدرها .

---

(١) مجلة المعرفة : ذو الحجة سنة ١٣٤٩ ، مايو سنة ١٩٣١ .

وقد يبدو حكمنا هذا جائراً ، ولـكنه فى الحق حكم صحيح ، تثبت للقارىء صحته عندما يعلم أن اثنين من أولئك الفلاسفة — هما فيثاغورث وسقراط — لم يخلفا شيئاً مكتوباً أو منقوشاً . وأما ثالثهم أفلاطون فإن أحداً — بالغاً ما بلغ من العلم بالفلسفة — لا يستطيع أن يميز على التحديد ، ما قاله أفلاطون نفسه ، أو ما قاله بلسان أستاذه سقراط ، الذى لم نعرف أكثر آرائه إلا بواسطة أفلاطون ، وقد يكون أفلاطون استقى من مدرسة فيثا غورث بعض التعليم التى بثها فى محاوراته ، كما استقى من سقراط نفسه .

من هذا نرى : أن من الصعب جداً ، أن تحدد نسبة بعض العبارات إلى أحد الثلاثة ؛ فما ينسب لأفلاطون قد ينسب لسقراط بينما يكون سابقاً لوقت الإثنين معاً : فيكون صدر من المدرسة الفيثاغورية ، إن لم يكن من فيثاغورث نفسه .

والحق : هو أن المصدر الحقيقى لهذه الجملة لأقدم تاريخاً من أولئك الفلاسفة أنفسهم ، بل لأكثر قدما من تاريخ الفلسفة نفسها وأكثر من هذا وذاك . إنها أسمى مجالا من مجال الفلسفة ذاته .

هذه العبارة ، وجدت محفورة على باب هيكل « أبولون » فى « دلفى » .. وإتخذها سقراط كما إتخذها غيره قاعدة لتعاليمهم — وإن اختلفت التعاليم ، وتباينت المقاصد — ومن المحتمل جداً أن فيثاغورث إستعملها قبل سقراط نفسه.

والذى نفهمه من هذا . هو أن أولئك الفلاسفة حاولوا أن يظهروا لنا ، بل أظهروا لنا بالفعل : أن تعاليمهم لم تـكن من تلقاء أنفسهم فحسب ، بل كانت من مصدر أسمى ، ومنزلة أرفع ، يتناسبان مع مصدر الوحى ، ومنزلة الإلهام .

لهذا نراهم مختلفين جد الإختلاف عن الفلاسفة الحديثين ، الذين يحاولون جهد طاقاتهم ، أن يقولوا شيئاً جديداً يدّعون أنه من بنات أفكارهم الخاصة ، وأنّ ما يبدونه من آراء وقف عليهم . كأن الحقيقة مِلك لشخص معين .

والآن لماذا كان يود الفلاسفة القدماء أن يربطوا تعاليمهم بهذه العبارة ، أو بعبارات تماثلها ؟ ولماذا يمكننا أن نقول : إن هذه العبارة أسمية منزلة من الفلسفة نفسها ؟ .

للجواب عن الفقرة الأخيرة من هذا السؤال ، نقول : إنه منحصر فى المعنى الأصلى المقصود من اشتقاق كلمة الفلسفة نفسها . . . التى قيل إن أول من إستعملها فيثاغورث .

فكلمة « فيلسوفياً » تعنى تماماً حب (سوفيا) أى « الحكمة » والميل للحصول عليها . وقد استعملت لتدل دائماً على كل تحضير للحصول على الحكمة ، وعلى الأخص لمحبها ، حيث تساعده على أن يصير (سوفوسَ) أى « حكيماً » وبما أن الوسيلة لا تؤخذ على أنها غاية ، كذلك حب الحكمة ليس هو الحكمة بذاتها .

وبما أن الحكمة هى بذاتها المعرفة الحقيقية الباطنة ، فإنه يمكن القول بأن المعرفة الفلسفية ، إنْ هى إلا المعرفة السطحية الخارجية ، فليس لها قيمة فى نفسِها ، أو مِنْ نفسِها ، وما هى إلا درجة أولية ، فى الطريق المؤدية للمعرفة السامية الحقة التى هى الحكمة .

معروف لمن درسوا الفلسفة ، أن معظم الفلاسفة القدماء ، كان لهم فى مدارسهم ، نوعان من التعليم : خارجى ، وداخلى .

أما الأول : فهو ما كان مكتوبا .   وأما الثانى : فيصعب علينا معرفة طبيعته على التحقيق ، وذلك لقصره على القليلين أولاً ، ولصبغته السرية ثانياً ، وهذه الصبغة وتلك القلة دليلان على وجود غرضٍ أسمى من تعلم الفلسفة الذى لا يستطيع تأديته . على أنا نعتقد أن لهذا التعليم السرى أقوى صلة مباشرة بالحكمة ذاتها ، والذى ما كان عمادة ـ فى حالٍ ما ـ العقلُ أو الإستدلالُ المنطقى : كالفلسفة التى تعتمد عليها ، وبهما سميت المعرفة العقلية .

ومسلم من الفلاسفه القدماء بأن المعرفة العقلية ـ أى الفلسفة ـ ليست هى المعرفة العليا الحقة ، وبعبارة أخرى : ليست هى الحكمة ذاتها .

لكن ، هل يمكن أن تعلم الحكمة كما تعلم المعرفة الخارجية بواسطة التلقين أو الكتب ؟ هذا مستحيل كل الاستحالة ، وسترى سبب ذلك والذى يمكننا أن نقرره هو أن التحضير الفلسفى ما كان ليكفى مطلقاً . لأنه لا يختص إلا بقوى محدودة هى نفسها العاقلة بينا يستمد التحضير للحكمة من الكون الكلى للإنسان نفسه .

وإذن فهناك تحضير آخر للحكمة أسمى منزلة من التحضير الفلسفى ، لا يلجأ فيه إلى العقل ، بل إلى النفس والروح ، وهذا ما نستطيع تسميته بالتحضير الباطنى ، الذى عرف أنه من الصفات التى امتاز بها تلاميذ الفيثاغورية للمتازون ، والذى ظل حتى مدرسة أفلاطون ، بل حتى وصل إلى الأفلاطونية الحديثة بمدرسة الإسكندرية ، التى ظهر فيها ذلك التحضير بوضوح تام ، كما ظهر جلياً فى نفس الوقت عند أتباع الفيثاغورية الحديثة .

لمثل هذا التحضير الباطنى ، تستعمل الكلمات على أنها صور رمزية لإحدى الوسائل التى تساعد على تركيز التأمل الباطنى . وبهذا التأمل ينقل الإنسان

إلى بعض حالات نفسية ، وروحية يمكنه فيها أن يسمو فوق درجة المعرفة العقليه ، التي وصل إليها سابقاً .

بما وأن هذه فوق مستوى العقل : فإنها — منطقياً — فوق مستوى الفلسفة ، إذ يستحيل علينا أن نعطى للفلسفة غير المعنى المعروف عنها ، فهى دائماً لتعيين ما يبحثه العقل فحسب .

ومن الغرابة أن الفلاسفة الحديثين ما يفيدون الفلسفه بهذا القيد كأنها كاملة فى نفسها . وغاب عن أذهانهم أن فوق فلسفتهم ما هو أسمى بكثير .

وقد عُرف هذا النوع من التعليم الباطنى فى الأقطار الشرقيه قبل أن يعرف فى اليونان ، حيث كان معروفاً عند الأخيرين باسم «ميستيريا» أى (المساتير)(١) وقد أدخل أولئك الفلاسفة ـ وخاصة فيثاغورث ـ تلك الميستيرات فى تعاليمهم لأنها كانت بالنسبة إليهم نوعاً جديداً ، ومعنى حديثاً للآراء القديمة . فقد كان يوجد أنواع كثيرة من تلك الميستيرات لها مصادر مختلفه . ولكن التى ألهمها فيثاغورث وأفلاطون كان لها صلة بطقوس معبد (أپولون) .

وقد احتفظت الميستيرات دائما بصبغه سرية ، ولذلك صار أسمها مرادفاً للسرّ فالمعنى الأصلى لتلك الكلمة هو الصمت التام ، فكل الأشياء التى تتصل بالغيبيات غير قابلة للتفسير بواسطة الكلمات ، وبهذا لم يكن لها من طريق التعليم غير طريقة الصمت . وجاء الفلاسفة الحديثون فلم يعرف أكثرهم تلك الطريقه ، فهربوا خلف استعمال الكلمات التى ندعوها من طريق التعليم الخارجى

---

(١) لم نعثر على ترجمة دقيقة تؤدى المقصود من كلمة (ميستيريا) وقد راجعنا الأستاذ فريد بك وجدى فى هذا ، فعبر عنها بكلمة (المساتير) وكنا نرى أنها قد تكون الغيبيات . أو الروز ، أو الخفائية . . فلعل أحد حضرات القراء يجد لها معنى أدق .

ويمكننا أن نؤكد أن هذا التعليم الصامت كانت طريقته الأشكال والرموز ووسائل أخرى ، يراد منها تهيئة الإنسان لحالات باطنية يمكنه فيها — بعد خطرات متتابعة — أن يصل أخيراً إلى المعرفة الحقيقية . وهذا هو الغرض الأساسى العام من (الميستيرات) وما يشابهها غرضاً أما (الميستيرات) التى تتصل بطقوس (أبولون) أو (بأبولون) نفسه ، فإنه ينبغى أن نشرح للقراء بأنه كان معروفاً فى عرفهم بأنه رب الشمس والنور ، والمعنى الروحى للنور وهو المبدأ المشرق الذى منه تنبعث كل المعارف من علوم وفنون .

وقد قيل إن الطقوس الدينية لمعبد [أبولون] جاءت من الأقطار الشمالية ، وقد ثبت هذا فى الكتب المقدسة [كالفيدا] الهندى ، و [الآفتشا] الفارسى ، وقد كانت دلفى معروفة بأنها المركز العام . وقد كانت دلفى معروفة بأنها المركز العام . وقد وجد فى هيكلها حجر يسمى [أومفالوس] يرمز إليه بأنه مركز العالم .

يظهر أن تاريخ فيثاغورث بل وإسم فيثاغورث نفسه له صلة وثيقة بالطقوس الدينية لأبولون ، فقد كان يسمى [بِيثْيُوس] . وقد قيل إن (بيثو) هو الإسم القديم لدلفى ، وإن المرأة التى كانت تتلقى وحى الآلهة فى الهيكل كانت تسمى [بيثيا] ومعنى [بيثيا جوراى] هو دليل (بيثيا) ، ودليل بيثيا هو نفسه . وقتل أيضا إن البيثيا هى التى أعلنت أن سقراط أحكم الرجال ، ومن هنا نستطيع أن نفترض أن لسقراط اتصالا خاصا بالمركز الروحى فى دلفى كفيثاغورث أيضا .

أضف إلى ذلك أن كل العلوم كانت تنسب إلى أبولون ، وبخاصة الهندسة والطب ، وقد كان أبولون يمثل نفسه كأنه يمارس هذه العلوم عامة والهندسة منها بوجه خاص . وفى مدرسة فيثاغورث كانت الهندسة وسائر فروع الرياضة هى

الجزء العام فى التحضير للمعرفة العليا ، وعند هذه المعرفة لم يكن لتلك العلوم لتترك جانبا ، بل كانت تستعمل كرموز للحقيقة الروحية . وقد كانت الهندسة لدى أفلاطون تحضيراً ضرورياً لكل فرع من فروع تعاليمه ؛ حتى صح عند قوله الذى حفره على مدخل مدرسته [لا يدخله إلا عالم بالهندسة] ، ويظهر معنى هذه الكلمات جليا إذا قورنت بقول آخر لأفلاطون نفسه [الإله يصنع الهندسة دائما] وهنا يجب أن نذكر أن المقصود بالإله المهندس هو أبولون .

وإذن فيجب ألا ندهش إذا ما رأينا الفلاسفة القدماء استعملوا تلك الجملة المحفورة على مدخل هيكل دلفى ؛ بعد أن عرفنا صلة الاتصال بينهم وبين طقوس أبولون ورموزه .

من كل ما تقدم يمكننا أن ندرك بسهولة ما الغرض الحقيقى لهذه الجملة ، ويمكننا أيضا أن ندرك أخطاء الفلاسفة الحديثين فيها ، وأساس خطئهم هذا ناشىء من أنهم أخذوا الجملة باعتبارها صادرة من أحد الفلاسفة الذى كثيرا ماينسبون إليه فكرة كفكرتهم ؛ مع أن الحقيقة هى أن الفكرة القديمة كثيرا ماتختلف عن الفكرة الحديثة كل الاختلاف ، ولذا يعطى كثير منهم لهذه الجملة معنى سيكوليجى (علم النفس) ، مع أن علم النفس هو دراسة الظواهر العقلية فحسب . أى دراسة الوصف الخارجى — لا الذاتى — للكائن الحى ، ويرى بعض الحديثين — وخصوصا الذين ينسبونها إلى سقراط — أنهاوضعت لغرض خلقى هو البحث عن قانون داخلى لاستعماله فى الحياة العملية ، وكل هذه التفسيرات الظاهرة — ولو أنها أحيانا لا تكون باطلة — فإنها على الأقل لاتكفى تماما ، ولا تحقق الصفة المقدسة التى كانت لهذه الجملة فى أول الأمر ، وهى التى لها معنى أعمق كثيرا من هذه التفسيرات الظاهرة .

فإنها أولا تفيد أن التعليم الخارجى لا يمكن أن ينتج معرفة حقيقية ، وهى

التى يجدها الإنسان فى نفسه فقط ، ولا يخفى أن أى معرفة لا يمكن الحصول عليها إلا بالإدراك الشخصى ، وبدونه لا يكون التعليم نتيجة فعالة ، والتعليم الذى لا يوقظ فيمن يتلقاه ما يناسبه لا يمكن أن يعطى أى معرفة بالمرة ، ولذلك قال أفلاطون : إن كل مايتعلمه الإنسان هى فى قرارة نفسه ، وإن تجاربه وما يحيط به من الخارج ما هى إلا أسباب تساعده ليصير عالماً بما فى نفسه ، وهذا التيقظ الهام يسمى (أنا منيسيس) أى التذكر ، فإذا كان هذا صحيحا لأى معرفة فالأحرى أن يكون أصح بالنسبة للمعرفة الأسمى والأعمق ، فإذا شَخَصَ الحصول على تلك المعرفة فإن كل الوسائل الخارجية الحسية تصبح — شيئا فشيئا — غير كافية حتى أنها أخيرا تكون عديمة الفائدة ، ومع أنها ربما تساعد على الاقتراب عدة درجات نحو الحكمة فإنه لا يمكن بواسطتها الحصول عليها تماما ، ومن الشائع فى الهند أن (الجورو) الحقيقى أى (الشيخ) هو فى نفس الإنسان ، ولا ينبغى البحث عنه فى العالم الخارجى ، أما المساعدة الخارجية فربما تكون ضرورية فى البداءة ، وذلك لتجهيزه ليصير قادرا على أن يجد فى نفسه بنفسه مالا يمكنه أن يجده فى العالم الخارجى ، وخصوصا ما كان فوق مستوى المعرفة العقلية ، فإنه يحتاج لتحقيق حالات تتعمق دائما فى باطن الكائن وتتجه نحو المركز المرموز إليه بأنه القلب ، وعنده ينبغى انتقال إحساس الإنسان حتى يصير قادراً على الحصول على المعرفة الحقيقية ، وهذه الحالات التى كانت تتحقق فى [الغيبيات] كانت درجات فى الانتقال من العقل إلى القلب ، وقد كان فى هيكل دلفى حجر يسمى [الأومفالوس] يمثل به مركز الكائن الإنسانى ، وفى نفس الوقت مركز العالم ، وذلك للصلة التى بين (العالم الأكبر) ، و (العالم الأصغر) أى الإنسان ، ولذا تجد أن كل مافى أحدهما يتصل اتصالا تاما بما فى الآخر .

قال ابن سينا :

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ومما يدعو إلى التسلية حقا هذا الاعتقاد الذى سار قديما بأن [الأومفالوس] كان قد سقط فى السماء ؛ وإنك لتدرك شدة اعتقاد اليونان القدماء فى هذاالحجر إذا علمت أنه يقرب من اعتقادنا فى الحجر الأسود الذى فى الكعبة المقدسه ، وهذا التشابه الذى بين العالم الأكبر والعالم الأصغر (الإنسان) هو الذى لا يجعل من أحدهما صورة للآخر ، وهذا الاتصال بين العناصر التى يحتويها كلاهما يبين لنا أن الإنسان يجب أن يعرف نفسه أولا لكى يمكنه أن يعرف كل ماحوله ؛ لأنه يمكنه أن يجد كل شىء فى نفسه ولهذا السبب تجد أن لبعض العلوم — وخاصة تلك التى كانت جزء من المعرفة القديمة ، والتى أصبحت غير معروفة تقريباً عند الحديثين — معنيين :

ففى الشهود العينى تشير هذه العلوم إلى « العالم الأكبر » فتعتبر صحيحة من هذه الوجهة ، كما يوجد لها فى نفس الوقت معنى أكثر عمقاً وهو يشير إلى الإنسان وإلى الطريق الباطنى الذى بواسطته يمكنه إدراك المعرفة الحقيقية فى نفسه ، أى : إدراك كائنه الخاص ، وقد قال أرسطو فى ذلك : « الكائن هو كل من يعرف ماهيته » ولذلك حيث توجد المعرفة الحقيقية — لا ظواهرها ولا شبحها — تندمج المعرفة والكون ويصيرا شيئاً واحدا .

والشبح فسره أفلاطون بأنه كل معرفة بالحس حتى المعرفة العقلية فإنها ولو أنها تتكون من درجه أعلى من مصدرها فإن مصدرها الأول هو الحس والمعرفة الحقيقية هى فوق مستوى العقل ، ولهذا نرى أن تحقيقها أو تحقيق ماهية الكائن نفسه يشابه أو يطابق تكوين العالم كما ذكرنا سابقاً ، ولذا فإن بعض العلوم تحت ظواهر هذا التكوين قد استعملت (الغيبيات) القديمة على هذا المعنى

الثنائى ، كما وجد أيضا فى كل أنواع التعاليم التى كانت ترمى إلى نفس الغرض بين الأمم الشرقية ، وفى الغرب يظهر أن مثل هذه التعاليم وجدت فى زمن القرون الوسطى ، ولو أنها فقدت الآن تماماً لدرجة أن غالبية الغربيين ليس عندهم أقل فكرة عن طبيعتها أو وجودها أو مكانها .

مما سبق ترى أن المعرفة الحقيقية ليس طريقها العقل ، بل طريقها النفس والروح ، ويمكن أن نضيف إليهما الكائن الكلى ، لأنها ما هى إلا الإدراك الكلى لهذا الكائن فى كل حالاته ، وهذا هو نهاية وكمال المعرفة ، والحصول على الحكمة السامية ، وحقيقة كل ما يختص بالنفس وما يختص بالروح أيضا ، يظهر فقط الدرجات فى هذه الطريق إلى الجوهر الباطنى : أى النفس الحقيقية .

وهذا يمكن إدراكه فقط عندما يصل الكائن إلى مركزه الخاص ؛ متحدةً كل أجزاء فؤاده ومركزه فى نقطة واحدة ، عندها تظهر له كل الأشياء تحتويها جميعها تلك النقطة كما كانت فى مبدئها الأول ، وهذا يمكن أن يعرف كل الأشياء كما هى فى نفسه ومن نفسه ، كما يظهر الوجود الكلى الأوحد فى وحدة جوهر الفرد : ومن السهل أن نرى الفرق بين هذا ، وبين علم النفس فى المعنى الحديث ؛ فإن الأول يسمو على الثانى بمعرفة للنفس أصح وأعمق ، والثانى ما هو إلا خطوة أولى فى الطريق . ويجب أن نلاحظ أن المعنى لا ينبغى أن يقصر على النفس لأن كلمة (النفس) مستعملة فى اللغة العربية بما يطابقها فى اليونانية (بسيخى) لا يظهر معناها إلا فى الجملة الأصلية التى تبحثها ، ففى مثل هذه الحالة لا يمكن أن يسرى لهذه الكلمة المعنى الدارج ، بل لابد أن يكون لها معنى أكثر سمواً يجعلها مطابقة لكلمة (ذات) ويجعلها تطابق النفس الحقيقية ، ولدينا ما يثبت هذا المعنى فى الحديث الشريف الذى يطابق الجملة اليونانية هو « مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ » .

فعندما يعرف الإنسان نفسه، ويعرفها حقاً فى جوهره الباطنى أى : فى مركز كائنه ؛ عندئذ يعرف ربه ؛ فإذا عرف ربه عرف كل الأشياء التى منه تصدر وإليه ترجع ، يعرف كل الأشياء فى الوحدة السامية للمبدأ الإلهى الذى لا شىء خارج عنه على الإطلاق ، وهذا معنى ما قاله سيدى محيي الدين بن عربى من أن لا شىء يخلو من اللامحدود ؟

عبد الواحد يحيى

التصوف الإسلامى[1]

هو الوسيلة الصادقة للمعرفة الحقة

ربما كانت العقيدة الإسلامية ، من بين العقائد الموحاه ، هى العقيدة التى يظهر فيها بوضوح التفرقة بين جزأين متكاملين هما « الظاهر » و « الباطن » أعنى « الشريعة » ، وهى الباب الذى يدخل منه الجميع ، و « الحقيقة » ، ولا يصل إليها إلا المصطفون الأخيار وهذه التفرقة ليست تحكمية ، وإنما تفرضها طبيعة الأشياء ، ذلك أن استعداد الناس متفاوت وبعضهم معد بفطرته لمعرفة الحقيقة .

وكثيراً ما نجدهم يشبهون الشريعة والحقيقة بالقشر واللب ، أو بالدائرة ومركزها . والشريعة تتضمن فضلا عن الناحية الاعتقادية — الناحية التشريعية والناحية الاجتماعية ، وهما جزآن لا يتجزآن عن الدين الإسلامى : إنها أولا وقبل كل شىء قاعدة للسلوك . أما الحقيقة[2] فإنها معرفة محضة ، ولكن يجب أن نعلم أن هذه المعرفة هى التى تعطى للشريعة معناها السامى

---

(١) ترجمنا هذا المقال عن مقالات باللغة الفرنسية للشيخ عبد الواحد يحيى وحاولنا استكماله واستطعنا بالتعليقات الكثيرة التى اقتطفناها من كتب أئمة التصوف الإسلامى .

(٢) الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية ، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول ، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق ، فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده ، والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قضى وقدر وأخفى وأظهر .

العميق ، بل هى التى تبرر وجود الشريعة إنها فى الحقيقة — وإن لم يشعر بذلك المؤمنون — المركز الأساسى : مثلها فى ذلك مثل مركز الدائرة بالنسبة لمحيطها .

بيد أن (الباطن) لا يعنى فقط الحقيقة ، وإنما يعنى كذلك السبل الموصلة إليها ، أعنى : الطرق التى تقود الإنسان من الشريعة إلى الحقيقة .

وإذا رجعنا إلى الصورة الرمزية : الدائرة ومركزها ، قلنا : إن الطريقة هى الخط الذاهب من محيط الدائرة إلى المركز ، وكل نقطة على محيط الدائرة هى مبدأ الخط . وهذه الخطوط التى لا تحصى ، تنتهى — كلها — إلى المركز.

إنها « الطرق » وهى طرق تختلف تبعاً لاختلاف الطبائع البشرية .

ولهذا يقال : « الطرق إلى الله كنفوس بنى آدم » .

ومهما اختلفت فالهدف واحد : لأنه لا يوجد إلا مركز واحد ، وإلا حقيقة واحدة . على أن هذه الاختلافات الموجودة فى المبدأ تزول شيئاً فشيئاً مع زوال الإنيّة وذلك حينما يصل السالك إلى درجات عليا تزول فيها « صفات العبد » التى ليست إلا سجنا : « الفناء » ، فلا تبقى إلا الصفات الربانية وقد تحققت « الذات » بها : « البقاء » .

والطريقة والحقيقة مجتمعتان يطلق عليهما : التصوف . وهو ليس مذهباً خاصاً : لأنه الحقيقة المطلقة . وليست الطرق مدارس مختلفة ؛ لأنها طرق ، أى :

= سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله يقول : قوله إياك نعبد حفظ للشريعة ، وإياك نستعين إقرار بالحقيقة . واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره ، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث إن المعارف به سبحانه أيضاً وجبت بأمره .

« عن الرسالة القشيرية »

سبل موصلة جميعها إلى الحقيقة المطلقة : « التوحيد واحد » .

ويجب أن يلاحظ أنه لا يمكن لأحد أن يطلق على نفسه أنه صوفى ، اللهم إلا إذا كان ذلك منه جهلا محضا ؛ لأنه بذلك يبرهن على أنه حقيقة ليس بصوفى : وذلك أن هذه الصفة « سر » بين الصوفى الحقيقى وبين ربه ، ويمكن أن يقول الإنسان عن نفسه إنه متصوف : وهو عنوان يطلق على « السالك » فى أى مرحلة كان . ولكن الصوفى بمعناه الحقيقى لا يطلق إلا على من بلغ الدرجة العليا . أما أصل هذه الكلمة : صوفى [1] ، فقداختلف فيه اختلافا كبيراً ، ووضعت فروض متعددة ، وليس بعضها بأولى من بعض ، وكلها غير مقبولة ، إنها فى الحقيقة تسمية « رمزية » وإذا أردنا تفسيرها ينبغى لنا أن ترجع إلى القيمة العددية لحروفها ، وإن لمن الرائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف « صوفى » تماثل القيمة العددية لحروف : « الحكمة الإلهية » ، فيكون الصوفى الحقيقى إن هو الرجل الذى وصل إلى الحكمة الإلهية ، إنه « العارف بالله » إذ أن الله لا يعرف إلا به . وتلك هى الدرجة العظمى « الكلية » فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة :

---

(١) هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال . رجل صوفى وللجماعة صوفية ومن يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف وللجماعة المتصوفة • وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق والأظهر فيه أنه كاللقب . فأما قول من قال إنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف ، كما يقال تقمص إذا لبس القميص • فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف • ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالنسبة إلى الصفة لا تجىء على نحو الصوفى • ومن قال إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة • وقول من قال إنه مشتق من الصف ، فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف ، ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج فى تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق « عن الرسالةالقشيرية »

من كل ما سبق يمكننا أن نستنتج أن الصوفية ليست شيئاً أضيف إلى الدين الإسلامى ، إنها ليست شيئاً أتى من الخارج فألصق بالإسلام ؛ وإنما هى ، بالعكس تكون جزءاً جوهرياً من الدين[١] . إذ أن الدين بدونها يكون ناقصاً ؛ بل يكون ناقصاً من جهته السامية أعنى جهة المركز الأساسى . لذلك كانت فروضاً رخيصة تلك التى تذهب بالصوفية إلى أصل أجنبى : يونانى، أو هندى فارسى ؛ وهى معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها ، تلك المصطلحات التى ترتبط باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً . وإذا كان هناك من تشابه بين الصوفية وبين ما يماثلها فى البيئات الأخرى فتفسير هذا طبيعى لا يحتاج إلى فرض الاستعارة . وذلك أنه ما دامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد فى جوهرها وإن اختلفت فيما تلبسه من صور .

ويجب أن لا نعطى عناية كبيرة — حينما نتحدث عن أصل التصوف — لتلك المناقشات التى لا تنتهى بين مؤرخى التصوف خاصة لتحديد الفترة الزمنية التى وجدت فيها لفظة صوفى .

---

(١) قال الأستاذ ماسينيون فى دائرة المعارف الإسلامية : الترجمة العربية ، مادة (تصوف) . أما دراسة مصادر التصوف فإن الشقة بيننا وبين استكمالها مازالت بعيدة ، وقد حار علماء الإسلاميات الأول فى تعليل ذلك الخلاف الكبير فى العقيدة بين مذهب الوحدة الحالى ومذهب أهل السنة الصحيح ، فذهبوا إلى أن التصوف مذهب دخيل فى الإسلام مأخوذ إما من رهبانية الشام (وهو رأى مركس) وإما من أفلاطونية اليونان الجديدة ، وإما من زرادشتية الفرس ، وإما من فيدا الهنود (وهو رأى جونس) وقد بين نيكولسون أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام غير مقبول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التى اختص بها متصوفة المسلمين نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث وتقرئهما ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث وما حل بالأفراد من نوازل ، على أنه إذا كانت مادة التصوف إسلاميه عربيه خالصه فما لا يخلو من فائدة أن نتعرف على المحسنات الأجنبيه التى أدخلت عليه ونمت فى كنفه .

فإن الشيء قد يوجد قبل اسمه الخاص ، سواء وجد تحت اسم آخر أو وجد ولم تكن هناك الحاجة لتسميته (١) . وعلى كل حال ففيصل الحق فى مسألة أصل التصوف هو ما يأتى : إن السنة ترشد فى صراحة لا لبس فيها إلى أن الشريعة والحقيقة ، كليهما ينبعان مباشرة من تعليمات الرسول صلوات الله

(١) اشتهر هذا الاسم قبل المائتين من الهجرة ، فهو اسم محدث بعد عهد الصحابة والتابعين (ابن خلدون) .

ويقول بعض العلماء : إن هذا الإسم معروف فى الملة الإسلامية من قبل ذلك بل يذهب بعضهم إلى أنه لفظ جاهلى عرفته العرب قبل ظهور الإسلام . قال أبو نصر عبد الله بن على السراج الطوسى المتوفى سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) فى كتاب « اللمع » فى التصوف : « وأما قول القائل إنه إسم محدث أحدثه البغداديون فحال ، لأنه فى وقت الحسن البصرى كان يعرف هذا الاسم وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم ، وقد روى عنه أنه قال : (رأيت صوفياً فى الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال معى أربعة دوانيق فيكفينى ما معى) .

وروى عن سفيان الثوى رحمه الله أنه قال: لولا أبو هاشم الصوفى ماعرفت دقيق الرياء . وقد ذكر فى الكتاب الذى جمع أخبار مكة عن محمد بن اسحاق ابن يسار وعن غيره يذكر فيه حديثاً : إن قبل الإسلام قد خلت مكة فى وقت من الأوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد . وكان يجىء من بلد بعيد رجل صوفى فيطوف بالبيت وينصرف . فإن صح ذلك يدل على أن قبل الإسلام كان يعرف هذا الإسم . وكان ينسب إلى أهل الفضل والصلاح والله أعلم » .

ويعقب المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق على ذلك فيقول :

فاستعمال لفظ صوفى ومتصوف لم ينتشر فى الإسلام إلا فى القرن الثانى وما بعده ، سواء أكان هذا التعبير عن الزاهد « بالصوفى » حدث فى أثناء المائة الثانية كما هو رأى ابن خلدون المتوفى عام ٨٠٦ هـ (١٤٠٦ م) فى مقدمته ، أم كان لفظاً جاهلياً على ما ذكره صاحب « اللمع » الذى يحاول أن يبرىء الصوفية من انتحال اسم مبتدع لم يعرفه الصحابة ولا التابعون .

«عن دائرة المعارف الإسلامية : الترجمة العربية»

عليه . والواقع أن كل طريقة صحيحة تعتمد على « سلسلة » تصل دائماً إلى الرسول . وإذا كانت بعض الطرق ، فيما بعد ، « استعارات » أو بتعبير أصح « تبنت » بعض التفاصيل فى الطريق (وإن كان التشابه هنا أيضاً يمكن أن يعزى إلى التماثل فى المعارف وعلى الخصوص فيما يتعلق « بعلم المقاطع والأوزان » فى مختلف فروعه) فإن أهمية ذلك لا تعدو أن تكون أهمية ثانوية لا تمس الجوهر من قرب أو من بعد . والحق أن التصوف عربى إسلامى ، كما أن القرآن — الذى تستمد التصوف أصوله منه مباشرة — عربى إسلامى . إذا كان التصوف يستمد أصوله من القرآن ، فمن الطبيعى ألا يوجد قبل أن يفهم القرآن ويفسر ويتدبر تدبراً تتفجر عنه ينابيع « الحقائق » التى هى فى الواقع معناه العميق . ولقدفسر القرآن أولا لغوياً ومنطقياً ، وكلامياً ، ولكن تفسيره صافياً اقتضى مرور زمن لتأمله فى عمق وشمول . وإذا كان القرآن مصدر الشريعة والحقيقة معاً فلا يوجد بينهما تناقض أو اختلاف ما . وكيف يوجد الاختلاف ومصدرهما واحد ؟ وكيف يوجد الاختلاف والحقيقة لاتقوم إلا على الشريعة فى أساسها وفى سندها .

التصوف الإسلامى والتصوف المسيحى المزعوم

على أنه يجب ملاحظة أن التصوف الإسلامى — خلافاً للفكرة الشائعة حالياً عند الغربيين — لا يمت بأية صلة إلى ما يزعمون أنه تصوف مسيحى : أعنى ذلك النوع الذى يطلق عليه : الميستيسيسم » . أما أسباب ذلك فإنها سهلة الفهم وقد تضمنها ما سبق من حديثنا وهى :

١ — يبدو واضحاً أن الميستيسيسم شىء خاص بالمسيحية . وإنه لتشبيه قائم على ضلال ، ذلك الذى يستندونه إليه فى إدعاء وجود ما يماثل الميستيسيسم فى الأوساط التى لا تعتنق المسيحة .

ولا شك فى أن هذا الفهم الخاطىء يرتكز على شىء من التشابه الخارجى الذى يتمثل فى استعمال بعض التعبيرات . ولكن هذا لا يبرر قط دعوى التشابه ؛ وذلك لأن الفروق الجوهرية تفجأ النظر ولا تدع للتماثل مجالا : فالميستيسيسم خاص بالمسيحة إذن .

٢ — ثم إنه جزء من الشريعة ، إنه من قسم الظاهر ، وهدفه بعيد كل البعد عن أن يكون المعرفة المحضة . بينما التصوف على خلاف ذلك .

٣ — ثم إن المسيحى الذى اتخذ الميستيسيسم سبيلا فى الحياة ينهج فى سلوكه منهجاً سلبياً . إنه يقتصر على تلقى ما يأتيه دون أن يكون له أثر شخصى ، إنه لا طريقة له إذن يسلكها هادفاً من وراء سلوكها إلى بلوغ غاية معينة .

ومن أجل ذلك لم يكن فى المسيحة طرق صوفية : ولذلك لا يتخذ المسيحى « شيخاً » وليس عنده فكرة عن السلسلة أو الإسناد الذى بواسطته

يصل إليه التأثير الروحى الذى لا بد منه فى التصوف .

٤ — والاختلاف فى الهدف أيضاً واضح : فهدف التصوف المعرفة ، وهدف الميستيسيسم الحب ، والنتيجة الحتمية من كل ما سبق هى أن التصوف والميستيسيسم مختلفلان كل الاختلاف . بل إن اللغة العربية لا تشتمل على أية كلمة تترجم ، ولو تقريبياً ، كلمة ميستيسيسم : ذلك أن الفكرة التى تعبر عنها هذه الكلمة غريبة كل الغرابة عن السنة الإسلامية .

التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية [1]

يبدو أن كثيراً من الناس يشكون فى ضرورة التزام الشريعة لمن يريد أن يسلك السلوك الصوفى ، وهذا فى الواقع استعداد نفسى لا يوجد إلا فى الغرب الحديث .

ولا شك فى أن أسباب ذلك متعددة ، ولا يعنينا هنا البحث فى مدى المسئولية التى تقع على عاتق رجال الدين أنفسهم الذين يميلون إلى إنكار كل ما يتجاوز حدود الشريعة فى مظهرها الحرفى ، فليس ذلك جوهر بحثنا هنا .

بيد أنه من المدهش أن بعض من يزعمون الانتساب إلى التصوف يقعون فيما وقع فيه رجال الشريعة ، وإن كان بطريقة عكسية ، ذلك أنهم ينكرون ضرورة الشريعة أو يهماون العمل بها .

وقد يكون من المحتمل أن نرى أحد ممثلى الشريعة يجهل التصوف ، وإن كان جهله لا يبرر إنكاره ، ولكن ليس من المحتمل وليس من الطبيعى أن يجهل رجل التصوف ميدان الشريعة ، ولو من جانبها العملى ، ذلك أن الأكثر ، وهو : «التصوف» يتضمن بالضرورة الأقل ، وهو : « الشريعة ».

على أن نظرة من يريد أن يسلك السلوك الصوفى ، إلى الشريعة ، من حيث عدم أهميتها ، وعلى الخصوص ، أهمية الجانب العملى منها بالنسبة له . . . هذه النظرة تتضمن ، ولو نظرياً ، تقليل أهمية الجانب العملى فى التصوف

---

(١) لخصنا هذا الموضوع عن مقال بالفرنسية للشيخ رحمه الله .

نفسه . وفى هذا الخطورة كل الخطورة ، فإنه من المشكوك فيه كثيراً ، أن يتوفر للشخص الذى عنده الفكرة ، الاستعداد الصوفى ، ومن الخير له أن يلتزم الشريعة التزاماً كلياً قبل أن يبدأ السلوك ، فإذا لم يمكنه التزامها فلا خير فيه ، بالنسبه للجانب الصوفى .

إن تقليل شأن الشريعة إنما هو مظهر من مظاهر الروح التى لا تبالى بما أنزل الله . وإعادة تكوين الروح الخاضعة لما أنزل الله هو أول خطوة فى طريق السالكين .

وتجاهل الناحية العملية : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث على الخصوص ، ومن الطبيعى أن يقوم الجو الدنيوى الذى يعيش فيه الغربيون عقبة فى سبيل فهمهم للجانب العملى من الشريعة وممارستهم له ، بيد أن مقاومتهم لهذا الجو الدنيوى ، هو بالضبط العلاج لانحرافهم هذا ، وهو السبيل إلى عودتهم إلى النهج المستقيم ، أعنى التزام الشريعة .

قلنا : إن الاتجاه النفسى الذى نتحدث عنه هنا : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث . وفى الواقع لا يمكن أن يوجد هذا الاتجاه فى الشرق ؛ ذلك أن الروح الدينية الصحيحة لاتزال مسيطرة فى بيئاته .

ثم إن الشريعة والحقيقة متصلتان اتصالا يجعل منهما مظهرين لشىء واحد، أحدهما خارجى والآخر داخلى ، أو أحدهما ظاهر والآخر باطن .

لذلك كان ما يوجد فى الغرب الآن ، من جماعات تدعى أنها على النهج الصوفى وهى مع ذلك لا ترتكز على أية شريعة إلهية ، مجرد خداع ، ومن البديهى أن هذه الجماعات — ومن وجهة النظر الصوفيه الصحيحة — ليست على شىء .

ولشرح الأشياء بأبسط الطرق نقول :

إن الإنسان لا يشيد القصر فى الهواء ، إنه لا يشيده على غير أساس ، وكل فكرة لا ترتكز على أساس من السنة الصحيحة إنما هى بناء فى الهواء ، إنها بناء على غير أساس .

والبناء الذى يمكن أن يبقى على الدهر لابد له من أساس مدعم ، وعلى الأساس يرتكز البناء كله ، حتى الأجزاء العليا منه ، والارتكاز على الأساس يستمر حتى بعد انتهاء البناء .

وعلى هذا النمط تكون النسبة بين الشريعة والتصوف ، فالشريعة الصحيحة هى الأساس الذى لابد منه لكل سالك ، وكالأساس تماماً ، لا يمكن طرح الشريعة بعد سلوك الطريق .

بل نقول أكثر من ذلك : إنه كلما سار المتصوف فى طريقه واستغرق فيه ، بدت له ضرورة الشريعة واستنارت معرفته بها ، وأصبح فهمه لها أكثر عمقاً وأكثر دراية بحقيقتها من هؤلاء الذين درسوها وآمنوا بها دون أن يضربوا بسهم فى الميدان الصوفى ؛ ذلك أنهم لايرون من الشريعة إلا مظهرها الخارجى ، ولكن الصوفى يعيش فى جوها الروحى ، ويحياها ، إذا أمكن هذا التعبير .

على أن هذا الذى لا يعتنق شريعة صحيحة ولا يلتزمها ، لا يمكن أن يحيا إلا حياة دنيوية بحتة ، فلا يمكن أن يطلق عليه رجل دين ، فضلا عن أن يطلق عليه وصف الصوفى .

على أن الغربيين الذين يجعلون الدين بمعزل عن نشاطهم اليومى ، كما هو

شأن الأكثرية الساحقة منهم ، لا يمكن أن يوصفوا بأنهم متدينون ، وإن آمنوا بعيسى وأدوا الشعائر الكنسية .

وإذا كان لا يقبل من رجل الدين أن يعلن تدينه دون أن يجعل للشريعة السيطرة على قياده ، فإنه لا يقبل من باب أولى من رجل التصوف أن يزعم انتسابه إلى الصوفية دون أن تسيطر شعائر الدين والتزاماته على حياته .

وهناك ، لاشك ، نوعان من الحياة : حياة دينية وحياة دنيوية ، ومع ذلك فالفرق بينهما إنما هو من جهة ما تصطبغ به فكرة الإنسان عن الأعمال التي يؤديها .

أريد أن أقول : إن الأعمال في نفسها لا توصف بأنها دينية أو دنيوية ، وإنما يتأتى لها أحد الوصفين بسبب سيطرة الفكرة الدينية عند القائم بهذه الأعمال أو عدم سيطرتها ؛ وقد يكون العمل واحداً في نوعه ويؤديه شخصان فيوصف عند أحدهما بأنه ديني ، وعند الآخر بأنه دنيوي . فإن كان القصد « الله » فالعمل ديني وإن كان القصد شيئا آخر ، فالعمل دنيوي ، والحديث الشريف يوضح هذه الفكرة كل التوضيح .

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

ومن البديهي أن الحديث في أوله عام بالنسبة لكل الأعمال ، وأن مسألة الهجرة فيه . تطبيق جزئي لقضية عامة .

وفي العصور القديمة لم يكن هناك تفرقة بين دين ودنيا ، بل لم يكن هناك مجرد الفهم أو مجرد التخيل لفكرة الانفصال هذه ، وإنما نشأت هذه

الفكرة حينما تدهورت الإنسانية وانحطت شيئاً فشيئاً ، وها نحن أولاء قد وصلنا فى هذا التأخر إلى أن الغرب حالياً يصعب عليه كل الصعوبة أن يفهم فكرة : ضرورة سيادة الروح الدينية فى مجتمعاته ؛ إنه على نهج انفصالى لا يوجد فى الحياة السليمة .

وإننا نرى ضرورة التزام الشريعة لكل إنسان ، ولكننا نؤكد — ونحن على يقين من الأمر — لهؤلاء الذين يريدون أن يسلكوا الطريق الصوفى بأنهم لن يصلوا حتى إلى أولى مراحل الطريق إذا لم يلتزموا الشريعة التزاماً تاماً . وبالله التوفيق .

علوم التصوف(١)

إن التصوف فى جوهره معرفة فى محيط ماوراء الطبيعة ؛ على أن التصوف وإن كان « معرفة » عليا فإن بعض العلوم تتصل به اتصالا وثيقا ، بل إنها ليست إلا تطبيقا لبعض جوانبه ، وهذا مما يميزه أيضا عن الميستيسيسم : من هذه العلوم علم الفلك القديم ، وهو ليس « تنجيما » كما يعتقد الباحثون الحديثون ، وإنما يتعلق بمعرفة أسمى وأعمق ، وكذلك الأمر فى الكيمياء القديمة : إنها ليست استخراج الذهب الحقيقى من المعادن الحقيقية وإنما كانت رمزاً لمعرفة لا صلة لها بالمادة وليس لها بالكيمياء الحديثه أى ارتباط أو تشابه . إن الباحثين الحديثين لايعرفون عن المعنى الحقيقى لهذين العلمين شيئاً ، على أن هناك علوماً أخرى لا يعرف عنها متفلسفة العصر الحديث إلا اسمها مع أنها كانت من الدقة بحيث تبلغ درجة العلوم الرياضية .

(١) الصفحات التالية ترجمة لكلمات للشيخ باللغة الفرنسية تحرينا فى ترجمتها الدقة التامة .

من شروط التصوف

ولابد فى التصوف من شرط جوهرى هو « التأثير الروحى » أو بتعبير أدق « البركة » وهى لا تتأتى إلا بواسطة « شيخ[١] ومن هنا كانت «الطرق» ومن هنا كانت السلسلة . وهل السلسلة إلا بركات تنتقل من شيخ إلى مريد يوشك أن يصبح شيخاً فيؤثر بدوره فى مريد أو مريدين ؟

ونختم هذه الكلمة بملاحظة جوهرية تتعلق بطبيعة التصوف وهى :

أن التصوف ليس عملا علمياً ولا بحثاً نظرياً ، إنه لا يتعلم بواسطة الكتب[١] على الطريقة المدرسية بل إن ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم

---

(١) يجب على المريد أن يتأدب بشيخ فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً . هذا أبو يزيد يقول : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان . وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ، لكن لا تثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفساً فنفساً ، فهو عابد هواه لا يجد نفاذاً .

« الرسالة القشيرية ص ١٩٩ »

ويشترط الإمام الرازى فى الشيخ أن يكون مخلصا صادقا قد انتهج الصراط المستقيم ، وأن يكون سالكا (أما السالك فلأن الوصول تارة بالجذبة على ما قال عليه السلام : جذبة من جذبات الحق توازى عمل الثقلين ، وأخرى بالسلوك . والأول لا يصح أن يقتدى به لأنه مثل من وجد كنزاً فصار غنياً فانه وإن كان ذا مال لكنه غير عالم بكيفية اكتساب المال، فلا ينتفع به التلميذ الطالب لتعلم كيفية الاكتساب ، وأما الثانى فهو الذى يصلح لتربية المريد: لأن من سلك الطريق ، وعرف مراحلها ومنازلها ، واطلع على متالفها ومعاطبها ، أمكنه إرشاد الغير إلى سواء السبيل والإخبار عن كيفية تلك الأحوال على التفصيل » .

« شرح الإشارات ١١٢ »

(٢) من كلام الإمام الغزالى فى المنقذ من الضلال :

« ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل » .

لا يستخدم إلا كحافز مقو للتأمل ، والإنسان لا يصير بمجرد قراءته ، متصوفا ؛ على أن ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه إلا من كان أهلا لفهمه . ولأجل أن يسير الإنسان فى طريق التصوف لابد له من :

١ — استعداد فطرى خاص(١) لا يغنى عنه اجتهاد أو كسب .

= وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل : « قوت القلوب » لأبى طالب المكى — رحمه الله — وكتب الحارث المحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد ، والشبلى ، وأبى يزيد البسطامى قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعليم والسماع .

فظهر لى أن أخص خواصهم ، مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعاناً ، وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على الفكر وبين أن يكون سكراناً .

بل السكران لا يعرف حد السكر ، وعلمه وهو سكران ، وما معه من علمه شىء .

والصاحى يعرف حد السكر ، وأركانه ، وما معه من السكر شىء .

والطبيب فى حالة المرض يعرف حد الصحة ، وأسبابها ، وأدويتها ، وهو فاقد الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا ، فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال ، لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك . «المنقذ من الضلال»

(١) يرى الإمام الرازى أنه لابد — لتكون الرياضة نافعة — أن تكون نفس المريد : (مستعدة لهذا الحديث ، ملائمة له : إذ لو لم يكن كذلك ما نجحت فيه الرياضة أصلا : لان تأثير الرياضة ليس إلا فى ازالة العوائق ، ورفع الحجب والاستار . وزوال العائق لا يكفى فى حصول المطلوب ، بل لابد معه من القابل المستعد ، فإذا لم تكن النفس مستعدة لم تفد الرياضة سعادة أصلا ، لكنها تفيد السلامة) . « شرح الإشارات ص ١١٢ »

٢ — الانتساب إلى « سلسلة » صحيحة ، إذ أن البركة التى تحصل من الانتساب إلى السلسلة الصحيحة هى الشرط الأساسى الذى لا يصل الإنسان بدونه إلى أى درجة من درجات التصوف حتى البدائية منها .

٣ — ثم يأخذ المتصوف ، الطيب الفطرة ، الذى باركه شيخه ، فى الجهاد الأكبر : التأمل الروحى، وفى الذكر: أى استحضار الله فى كل مايأتى وما يدع، وفى تركيز الذهن فى الملأ الأعلى فيصل موفقاً من درجة إلى درجة حتى يصل إلى أعلى الدرجات ، وهى حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت فيصبح ربانياً . ذلك هو الصوفى الحقيقى .

مقامات اوصول

وحينما يقطع الإنسان الطريق يصل إلى الولاية .

والولى إما أن يمكث ولياً فقط فتكون معرفته خاصة به ، أو يختاره الله لتأدية رسالة إلى الآخرين فيكون نبياً ، أو يكون رسولا .

والرسول نبي ولكن رسالته تأخذ صبغة عالمية . أما رسالة النبى فإنها محددة الأهداف محدودة المكان . إن الرسول مظهر الصفة الإلهية «الرحمن» فى جميع أنحاء العالمين . إنه « رحمة للعالمين » فلا تقتصر رسالته على دائرة خاصة .

ولا شك أن النبوة أسمى من الولاية ، ومع ذلك فقد رأى بعضهم أن مقام الولى « القرب » من الله بينما النبى متجه ، بطبيعة رسالته إلى الخلق ، ولكن ذلك خطأ محض فإن النبوة تتضمن الولاية ، فهى متضمنة لمقام القرب ، ثم إنها أكثر من الولاية وعلى ذلك فإن حالة الولى « ناقصة » بالنسبة لحالة النبى ، إنها ليست قاصرة بالنسبة لطبيعتها الخاصة ، ولكنها قاصرة بالنسبة لدرجتها فى العموم . وهذا العموم يصل إلى أعلى درجات ازدهاره فى الرسالة : إذ هى عالمية ، والرسول — لا غيره — هو حقيقة « الإنسان العالمى » .

وللرسول كما للنبى اتجاهان .

١ — اتجاه داخلى : إنه الاتجاه نحو الحق .

٢ — اتجاه خارجى : إنه الاتجاه نحو الخلق .

ودرجة الرسول العالمية أسمى من درجة النبى المحدودة ، ودرجة النبى المحدودة ، أعلى من درجة الولى الخاصة ، ومقام الجميع القرب .

الباب الثالث

العارف بالله

الشيخ عبد الفتاح القاضى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي خير المرسلين

وعلي آله ومن اتبع هديه إلى يوم الدين

مقدمة
وذكريات

كيف عرفت الشيخ عبد الفتاح القاضى

صلينا العصر فى رحاب مولانا الحسين رضوان الله عليه : وكنا على موعد فى المسجد المبارك .

ثم يممنا شطر محطة مصر لنأخذ القطار إلى بلد القطب الملثم .

كان ذلك فى شهر أكتوبر سنة ١٩٦٠ ، وكنا نستقبل فى المساء الليلة الكبرى لمولد السيد البدوى رضى الله عنه .

وركبنا القطار فى صعوبة ، وحمدنا الله على أن وجدنا فى القطار مكانا للوقوف .

وقفنا لنسير مع الزمن متحدثين تارة وصامتين أخرى ، وكلنا أمل فى أن نحظى بليلة تتسم بالإشراق وتفيض بالمدد فى رحاب شيخ العرب . . .

وسار القطار .

وكان فى مواجهتنا ـ جالسا ـ رجل ريفى تبدو عليه سمات الصالحين، يلبس جلبابا من الصوف ، وعلى رأسه عمامة ، وعلى جبهته علامة الإقبال على الصلاة .

وكان على يمينه سيدة ، ريفية هى الأخرى : لعلها أخته أو لعلها زوجته ، فقد كان يتحدث إليها فى ألفة بادية ، وفى ابتسامة سهلة لا تكاد تفارق شفتيه: لقد كان منظره وهو يتحدث مع السيدة يشعر بأنه نسى العالم من حوله ، وتلاشى

بالنسبة له كل شيء . كان وجهه سمحا ، وقسماته لا توتر فيها ، وكان كل شيء فيه يدل على أنه لا يحمل فى قلبه كراهية لأحد ، ولا حقدا لمخلوق : لقد كانت ترتسم على وجهه صورة البراء أصفى ما تكون البراءة .

وراقنى منظره ، منظر البراءة والسماحة ، وراقنى أن أنظر إلى هذا الوجه السمح وهذه البراءة البادية ، وتعلقت عيناى به .

ويبدو أنه وصل فى حديثه مع السيدة إلى نهاية قصة أو خاتمة حديث ، فأخذ يدور بوجهه فى من حوله ، جالسين وواقفين ، ثم نظر إلىّ : فمد عينيه نحوى ، وتركزت عيناه على وجهى ، وزال من وجهه شىء قليل من سماحته ، وحل محلها نوع خفيف من التوتر ، وبدا عليه الاهتمام .

وأردت أن أنهى هذا الوضع فاتجهت إلى صديقىّ أتحدث إليهما متكلفا الحديث ، وكان أحدهما بجوار الرجل ، فانتهز الرجل فرصة صمت منا واتجه إلى من بجواره قائلا له :

بشر صاحبك — مشيرا إلىّ — بالحج هذا العام .

وأخذت الأمر على أنه فأل حسن ، وعلى أنه بشرى من الجائز أن تتحقق ، وكان فى هذا النبأ على كل حال تخفيف من الشعور بزحمة القطار ، وسلوى عن حرارة الجو .

ومضت الأسابيع والشهور ، وقرب موعد الحج ، ثم أعلنت الجرائد موعد قبول الطلبات .

ولم أكن قد اتخذت العدة للحج فلم أتقدم بطلب وإن كنت فى شوق ملح للحج وللزيارة إذ لم أكن قد أديت الفريضة بعد .

وحينما أعلنت الجرائد عن موعد قبول الطلبات ، تذكرت الفأل الحسن ، وتذكرت البشرى التى . . . يجوز أن تتحقق .

ولـكن ها هى ذى المدة المحددة لقبول الطلبات تنقضى يوما فيوما ، حتى أوشكت على الإنتهاء .

فلم أحرك ساكنا ، وكأنى بموقفى هذا أتحدى نبوءة هذا الشيخ ، تلك النبوءة التى . . . يجوز أن تتحقق . . . ثم . . . ثم انتهت المدة وضعف بانتهائها الأمل فى أداء فريضة الحج هذا العام ، وإن لم يضعف الأمل فى أن تحدث معجزة .

وبدأت أفواج منْ استجابوا للأذان بالحج تتجه نحو الأرض المقدسة ، تحييهم الزغاريد ، وتودعهم الدعوات .

وكانت محطة كوبرى الليمون تقع فى طريقى اليومى المعتاد : فـكنت أرى هذا المنظر السار البهيج وأتحسر إذ لم أكن فى الركب ،

ولم يبق على سفر آخر فوج إلا ستت أيام .

وذات يوم . . . .

فى صباح اليوم السادس قبل سفر آخر فوج : اتصل بى أحد الأصدقاء يستفسر عن أسماء كتب الشيخ عبد الواحد يحيى ، وعن كيفية الحصول عليها ثم قال :

إن السيد / حسن عباس زكى يحب أن يشترى بعضها أو كلها إذا أمكن ، ويحب أن يعرف أسماءها والسبيل إلى شرائها .

وبعد حديث بينى وبين هذا الصديق اتفقنا على أن أحضر له المجموعة

كاملة لينظر فيها السيد الوزير حتى إذا ماراقه بعضها اتصلنا بالمكتبات الفرنسية في القاهرة لتحضر الكتب من باريس .

وفي عصر اليوم نفسه سلمت صاحبي مجموعة الكتب .

وفي مساء اليوم نفسه أيضا ، مر على صاحبي قائلا :

إن السيد الوزير يحب أن يراك ، فهيا بنا لزيارته ، ولم أكن قد التقيت به من قبل .

والتقينا بالسيد الوزير وأخذنا نتحدث عن الشيخ عبد الواحد يحيي ، ثم ذهب السيد الوزير ليجيب على نداء التليفون ، وأراد صاحبي أن لا يمر الوقت في صمت وأن يقطعه بالحديث ، فقال كعادة الحجاج :

ألا ترغب في شيء من الحجاز ؟ منتظرا أن أقول له سبحه مثلا ، أو شيئا من هذه الأمور التي يتزود بها الحجاج في عودتهم .

فرأيت نفسي مندفعا إلى أن أقول له فورا : وكأني مسخر بقوة لاقبل لي بردها .

نعم أرغب في أمر سهل بالنسبة لك وأرجو أن تقوم به مشكورا .

وتهيأ صاحبي لسماع الطلب في انتباه ظاهر .

فقلت : أرجوك أن تقف أمام الضريح الشريف وتقول :

إن عبد الحليم يقبل اليد الشريفة ، ويرسل تحياته ، ويبلغ أشواقه إلى سيده رسول الله ، ويرجو منك يا أكرم الخلق على الله أن تدعوه لزيارتك : فإنك إذا فعلت زالت كل العقبات ، وأني يسعى ليلبي النداء .

وقال صاحبى فى نوع من التأمل البادى على ملامحه : أرجو أن تكون قد استجيبت ، ولعلها قد استجيبت .

وانتهى أمير الحج من الحديث التليفونى ـ فقد كان السيد حسن عباس زكى هو أمير الحج فى ذلك العام ـ وجاء ، فذكر له صاحبى ما تحدثنا به فى غيبته ، فقال أمير الحج : إنه يدعو الله أن يتحقق الرجاء ، وانتهى الحديث عند ذلك .

ثم اتفقنا على أن نذهب سويا إلى منزل الشيخ عبد الواحد يحيي لزيارة أسرته ، وليأخذ السيد الوزير صورة أوضح عن حياته .

ولن أنس صورة السيد الوزير وهو واقف فى غرفة المكتبة بجوار المكتب الذى كان يجلس عليه الشيخ قارئا وكاتبا ، وقف مستغرقا وكأنه يسافر بروحه فى الزمن عودة إلى الماضى ، يريد أن يتعرف إلى الشيخ فى حياته ، أو كأنه بعبارة أدق يسافر فى الحاضر إلى عالم لأرواح ، يريد أن يرى فى عالم الغيب صورة الشيخ الحقيقية .

إن شيئا من آثار الشيخ رضوان الله عليه ، ما زال باقيا - لا شك - فى هذا المكان . وخيل إلى حينئذ أن السيد الوزير بروحه الشفافة ، وبروحانيته القوية ، وببصيرته النافذه ينطلق مسترشدا بالأثر إلى . . . صاحب الأثر .

إن عبير الشيخ الزكى ، مازال يملأ أرجاء المكان ، ولا يزال الأريج الطيب يعطر الجو ، يشعر بذلك كل من رق شعوره ، وشفت نفسه وأنار الله بصيرته . . .

وافترقنا ،

وفى اليوم التالى - الخامس قبل سفر آخر فوج - بينما أنا جالس فى كلية

أصول الدين مشتركا فى أعمال الامتحان ، إذا بالنداء : احضر لاتخاذ الإجراءات للحج . . . . فقلت :

صلوات الله وسلامه عليك يا أكرم الخلق على الله .

وتكرر اللقاء بأمير الحج أثناء الحج ، ثم لم ينقطع الاتصال به بعد العودة

وفى يوم من الأيام دعانى السيد الوزير لتناول الغذاء فى منزله .

وكان الشيخ عبد الفتاح القاضى هناك : بسمته الوقور ، وهيبته المطمئنة ، ووجهه المشرق نورا . . .

وكان يتحدث :

ولم يكن الشيخ عبد الفتاح القاضى يتحدث حديثا شعبيا ، ولا حديثا مألوفا ، وإنما كان يتحدث حديث قمه . إنه يفاجىء الحاضرين بالمشكلة : يشرحها باعتبارها مشكلة ، ويوضح جوانبها من حيث الإشكال ، ثم يطلب من السامعين حلها .

وما كان رحمه الله يطلب الحل إلا ليثير انتباههم بصورة أعمق ، حتى إذا كان انتباههم كاملا بدأ فى ذكر الحل .

هذه المشاكل كانت تدور حول آيات من القرآن ، فيرى السامع فى النهاية أن القرآن ما زال بكرا .

وتدور كذلك حول أحاديث للرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فيرى السامع فى النهاية أيضاً أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أوتى حقا جوامع الكلم .

وهكذا كانت مجالس الشيخ : إنها تفسير للقرآن الكريم ، أو شرح للسنة الشريفة .

لقد كان الناس ينسون الدنيا فى مجلسه ، ولم يكن مجال فى مجالسه للغو الحديث ، ولا للزور والباطل، سواء أأبسا هذا الزى ، أم ذاك : لم يكن للشيطان إلى مجلسه من سبيل .

هذا التفسير ، وهذا الشرح ، أهما عقليان ؟

أكان الشيخ يتحدث عقليا ؟

أكان يتحدث علميا ؟

أكان يتحدث إلهاميا ؟

إن العقل والعلم والإلهام ، إن البصيرة والإشراق والنص ، إن كل ذلك ، كان يتكاتف ويمتزج ، ويتألف منه باقة ترضى الذوق المترف والعقل الراشد ، والتدين المستنير .

لقد فوجئت بالشيخ : فوجئت به شخصية مكتملة متناسقه ، وفوجئت به شخصية قوية مسيطرة ، وفوجئت به شخصية ودودة متحببة ، وفوجئت به شخصية عالمة ناقدة ، وفوجئت به شخصية ملهمة تستمد النور من منابع النور .

لقد كانت الأعين معلقة به ، والآذان مشدودة إليه ، والعقل يدور فيما يهيئه من مجال لتفكيره .

والقلب راض مغتبط .

ثم يسكت الشيخ ويتجه نحو الشيخ عبد الجليل ويقول له ، فى مودة بادية : تـكلم أنت الآن « يا ولد يا عبد الجليل » .

وهذا الذى يخاطبه الشيخ بقوله : « يا ولد يا عبد الجليل » من علماء الأزهر النابهين ، يعمل مدرساً بوزارة التربية ، فنى فى الشيخ حبا ، وإجلالا ، وتقديرا ، وعيناه دائماً معلقتان بالشيخ ، وسمعه على الدوام مصغ إلى الشيخ .

إنه يسمع الهمس من حديثه ، ويرى مالا يكاد يُرى من إشاراته ، ويلبى كلّ ما يريد الشيخ من أمر ولو لم يعلن الشيخ عن رغبته .

ومع أنه فنى فى الشيخ فإن شخصيته بالنسبة للآخرين غير فانية ولا خفية .

إن أتباع الشيخ يعرفون ذكاءه اللماح ، وعلمه الجم ، واتزانه فيما يأتى وفيما يدع ، ويعرفون تصرفه الحـكيم فيما يعرض لمجتمعهم الخاص من مشاكل ،

ويعرفون اجتهاده فى العبادة ، ويعرفون حب الشيخ له . . . .

ويقوم الشيخ عبد الجليل ويتحدث مفسراً آية أو شارحا حديثا .

وقد أمره الشيخ فى تلك الجلسة أن يفسر قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ .

وقلت فى نفسى حينما سمعت أمر الشيخ له بتفسير هذه الآية :

وماذا عسى أن يقول الشيخ عبد الجليل فى هذه الآية الواضحة المعنى ، السلسة التركيب ؟ إن مجرد قراءتها بيان لمعناها . . .

وتحدث الشيخ عبد الجليل ، فأجاد ، وأفاد ، وبهر .

وكان من الواضح أن الشيخ يعد الشيخ عبد الجليل للخلافه :

لقد كان يربيه بالتعليم ، ويربيه بالأوامر ، ويربيه بالعبادة ، ويربيه بالصمت .

لقد كان يهيئه ليملأ مركز المرشد بعده .

ولقد كان عند الشيخ عبد الجليل الاستعداد التام للخلافه .

وقد كان انتهاء الشيخ عبد الجليل من كلمته إيذانا بانتهاء الجلسة .

وافترقنا جسمانيا وبقيت ذكرى الشيخ فى القلوب حية نابضه .

وتكرر اللقاء بالشيخ فى داره بشبلنجه ، وفى القاهرة .

من هو الشيخ عبد الفتاح القاضى ؟

ذلك هو حديث الفصل التالى :

الفصل الأول

حيــاته ومجــاهداته

حـــياته

إنه الإمام العارف بالله تعالى ، الشيخ (عبد الفتاح بن سيد أحمد بن محمد القاضى) الحسنى أبا الحسينى أما ، الشافعى مذهبا، المحمدى تربية ، الشاذلى طريقة ، الشبلنجى دارا ومزارا .

ولد رضى الله عنه فى « شبلنجه[1] » من أبوين شريفين فى آخر صفر ١٣١٧ من هجرة خاتم المرسلين ، الموافق ٨ من يوليو ١٨٩٩ ميلادية .

وبرغم الوثائق الظاهرية التى تؤكد صدق انتسابه إلى الدوحة النبوية المباركة . كان شديد الشغف إلى ما يحقق له نسبه الشريف عن طريق كشفى لا مجال للشك فيه . فمنَّ الله تعالى عليه بذلك : إذ سمع فى منامه من مصدر علوى ذلـكم النداء .

« أنت شريف أبا وأما » .

فاستراح فؤاده ، واطمأن خاطره ، وحمد الله تعالى، على هذه المنة العظيمة .

وبعد سنوات ست من ميلاده تقريبا ، توفى والده إلى رحمة الله ، وتركه يتيما فى رعاية أمه الهاشمية .

ولا نسأل عما قامت به هذه الهاشمية — مع صغر سنها — من تربية صادقة له ولإخوته اليتامى ، وتوافرها وعكوفها على أداء ما يلزم لهؤلاء الصغار ، الذين لا عائل لهم إلا الله ، وهى مستعينة — بعد الله — على تربيتهم بما ورثته من

---

(١) بالقرب من بنها .

قراريط من المرحوم والدها الشيخ « حسن هاشم » وبما تركه المرحوم زوجها (الشيخ سيد أحمد) من عقار يسير .

ثم أرسلته أمه إلى المكتب ، لحفظ القرآن الكريم ، فاشتهر بين لداته وأترابه بسرعة الحفظ وحدة الذكاء ، مما جعل معلم المكتب يقبل عليه ويخصه بمزيد من الرعاية والعناية . ولشديد تعلقه به ، اختاره مساعدا له فى تعليم القرآن بالمكتب بعد أن حفظه وجوده ، وأتقن أحكام قراءته ، فى سن مبكره ، وظل فى تعليم القرآن ، لأولاد قريته ، حتى اجتباه الله ، فجذبه إليه ، فاختلى فى بيته متعبدا لله ذاكرا .

وقد تجلت فيه رجولة مبكرة ، فما إن خطا خطواته الأولى ، فى طريق الشباب حتى خالط الرجال ، وجالس أصحاب الرأى واستمع منهم وأصغى لحكمهم ، فبدأ يسير سيرهم ، حتى لقد كان أحيانا يشير عليهم فيجدون عنده الرأى ، فاشتهر بينهم ، وعرف عندهم بالرأى السديد ، والحكم العادل النزيه ، فصار الشيوخ والمسنون من أهل البلدة ، وذوو الخبرة والتجربة ، يستعينون به ، ويستشيرونه فى مهام الأمور ، ويدعونه فى مجالس الصلح ، ويصحبونه لفض المنازعات ، وللحكم فى القضايا والخصومات .

وكانت عادته البكور ، فيستيقظ قبيل الفجر ليؤدى فرض ربه ويذكره ويسبحه ، ثم يتناول فطوره ، ويغدو معتمدا على الله تعالى إلى المكتب لتعليم القرآن ، حتى وقت الظهيرة ، فيعود إلى داره ، فيتناول غداءه ويستريح قليلا وقت القيلولة ، ثم يشتغل بالاشراف على الزراعة ، وترتيب شئونها ثم يعود إلى البيت لقضاء مهامه ، وبعد ذلك يفرغ بقية يومه لقراءة كتب الدين وسير الصالحين ، وقص مآثرهم وكراماتهم على أصحابه وأهل مجلسه ، إذ كانت هذه هوايته لتتبع سننهم والسير على طريقهم .

وذات يوم حضر إلى منزله أحد شيوخ القرية من العلماء المسنين ، وبعد حديثهما عن الصالحين ومناقبهم قدم هذا العالم للشيخ مخطوطا جمع صيغا متعددة الفضل ، مضاعفة الثواب والأجر ، فى الصلاة على المصطفى صلى الله عليه وسلم وقال له :

خذ هذه وانقلها ، واجعلها وردك ، فإنها عظيمة النفع والبركة » .

فقال له فضيلة الشيخ .

« عمن نقلتها ؟ »

فقال : « نقلتها عن الشيخ الأشمونى رضى الله عنه عالم الأزهر المشهور ، وأوصانى بقراءتها لأنها ذات سر عجيب فى الفتح ،ومقربة من حضرة الرسول ، صلى الله عليه وسلم .

فعلم الشيخ أن هذه منة من الله تعالى مساقة إليه على يد هذا العالم ، وفعلا نسخها فى أيام قليلة كما كانت عادته المسارعة والتعجيل فى أمور الدين والآخرة ، وجعلها الشيخ ورده فكانت مفتاح كل خير له ، وكان يقول عنها ، لم أجد فى طريق الله أسرع سبيلا إلى الفتح وأقرب طريقا إلى حضرة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وأجلب لرضا المولى سبحانه وتعالى ، من هذه الصلوات ، إنها سبب فى تذليل صعوبات الحياة كتفريج الكروب ، وإدرار الرزق ، وقضاء الحوائج ، وكان كلما حزب الشيخ أمرفزع إلى الصلاةوإلى قراءة هذه النسخة .

أما فزعه إلى الصلاة فاقتداء بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ كان يفزع إلى الصلاة كلما حزبه أمر .

وأما فزعه إلى قراءة هذه النسخة فمما جربه كثيراً أنه ماهمه أمر أو أحاط به مكروه وقرأ هذه النسخة إلا وجد بعدها الفرج والتيسير ، لذا كان حرص الشيخ عليها شديداً جداً ، ووصيته لأولاده بالمحافظة عليها وتلاوتها أشد ، لما لمسه فيها من النور والبركة ، ورضا النبى، صلى الله عليه وسلم عنها ، ولما يعلمه من أن الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، مفتاح لمغاليق الأمور وسبيل السعادة فى الدارين (١) ، وكانت هذه الصلوات ديدنه وشعاره ، وكان يقرؤها فى اليوم مرات ، وإذا سئل عن ذلك يقول : إنما أقرأ لى مرة ، وأجبر تقصير أولادى بالمرات الأخرى ، ولشغفه الشديد بها سمع منه مراراً تلاوته لها مرتبة بصوت مسموع أثناء نومه يسمعه من حوله ، وعندما كان يستيقظ يكمل تلاوتها حيث وقف وكان هذا قبيل انتقاله بقليل . وحسبك دليلا على عظم فضلها ، وكبير نفعها وخيرها أن الرسول، صلى الله عليه وسلم أمسكها بيده الشريفة وقال للشيخ مناما : « إنى أحبها ، إنى أحبها » .

لذا لم يتركها الشيخ أبداً لافى سفر ولافى حضر ، ولافى صحة ، ولافى مرض، حتى اليوم الذى لقى الله تعالى فيه قرأها كعادته ، ولتعلق الشيخ بها وولوعه بحبها رُؤى كثيراً فى المنام ممسكا بها تاليا لها حاثاً عليها مبيناً فضلها ، حتى قال لبعض من رآه كذلك مناماً : إنها أهم ورد فى الطريق بل هى الطريق جله .

وهذه الصلاة هى للشيخ عبد الله بن محمد الهاروشى المغربى الفاسى منشأ ودارا ثم التونسى رحلة ومزارا ، وهو مدفون فى تونس وقبره مبارك . ومن المشهور بين أهل تونس أن من زار ضريحه متعمداً مخلصاً كان هذا علامة على قبول الله له وعلى أنه من أهل الجنة .

---

(١) ولقد جمعت هذه الصلوات مع بعض أحزاب للشيخ الشاذلى رضى الله عنه وغيره وطبعت فى أخريات أيام الشيخ بإذنه على نفقة العارف بالله تعالى السيد الدكتور « حسن عباس زكى » جزاه الله خير الجزاء ، وبلغه مناه فى الدارين ، ليعم النفع بها .

ونتقل هنا أزهاراً موفقة من هذه الصلوات المباركة نفعنا الله بمن قيلت فيه ونفعنا بها وبصاحبها . ونرجوه سبحانه أن يمن بالرضوان على مَن عَرَّف بها أتباعه ومريديه .

« اللهم إنا قد عجزنا من حيثُ إحاطةُ عقولِنا ، وغايةُ أفهامِنا ، ومُنتهى إرادتِنا وسوابقُ هِمَمِنا أن نصلي عليه من حيثُ هو وكيفَ نقدر على ذلك وقد جعلت كلامكَ خُلُقَهُ وأسماءكَ مظرَهُ ومنْشأ كونِك منه وأنت ملجَؤه وركنُه وملؤكَ الأعلى عصابَتُه ونصرتُه . فصل اللهم عليه من حيثُ تعلُّقُ قدرتِك بمصنُوعاتِك وتحقُّقُ أسمائك بإرادَتِكَ منه ابتدأت المعلوماتِ وإليه جعلت غايةَ الغاياتِ وبه أُقيمت الحجَجُ على المخلوقات ، فهو أمينُك خازن علمك حامِلُ لواءِ حمدِكَ معدِنُ سرك مَظهرُ عزكَ نقطـــةُ دائرةِ مُلـكِكَ ومُحيطهُ ومركَّبُه وبسيطهُ » .

« اللهم إنا نسألك أن تحشرَنا فى زُمرته وأن تجعلَنا من أهل سنته ولا تخالف بنا يامولانا عن ملته ولا عن طريقته إنك سميعُ الدعاء مجيبٌ لمن دعَا أو ألقى السَّمْعَ وهو وشهيدٌ .

اللهم كما مَنَنْت علينا بالصلاة عليه فامْنُن علينا بفَهْم الـكتاب الذى أُنزل إليه لأنه شفاء للمؤمنين ورحمة للعالمين وآخِرُ دعوَانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين » .

اللهم صلى على سيدنا محمد المبعوثِ رحمةً لـكل الأُمَمِ . اللهم صلى سيدنا محمد المختارِ للسِّيادةِ والرسالة قبل خَلْقِ اللوح والقلمِ . اللهم صلى على سيدنا محمد الموصوف بأفضلِ الأخلاقِ والشِّيَمِ . اللهم صلى على سيدنا محمد المختص بجوَامِع الـكَلِم وخصائصِ الحِـكَمِ . اللهم صلى على سيدنا محمد الذى كان لا تُنْتَهَكُ فى مجالسه الحرَمُ ولا يُغْضِى عمَّن ظلم . اللهم صلى على سيدنا محمد الذى كان إذا

مشى تُظلِّله الغمامةُ حيثما يَمَّمَ . اللهم صلى على سيدنا محمد الذى انشقَّ له القمر وكلمه الحجر وأقر برسالته وصَمَّمَ . اللهم صلى على سيدنا محمد الذى أثنى عليه ربُّ العزة نصًّا فى سالف القدمِ . اللهم صلى على سيدنا محمد الذى صلى عليه ربُّنا فى محكم كتابه وأمر أن يصلى عليه ويُسلم . اللهم صلى عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته ماهلَّت الدِّيمُ وماجرت على المذنبين أذْيالُ الكرم وسلم تسليما كثيراً وشرِّف وكرِّم ، والحمد لله رب العالمين » .

اللهم صلى على أشرفِ موجودٍ وأفضلِ مولودٍ وأكرمِ مخصوص ومحمودٍ سيد ساداتِ برِيَّاتك ومن له التفضيل على جملة مخلوقاتك صلاة تناسب مقامُه العالى ومقدارَه وتعم أهلَه وأزواجَه وأولياءه وأنصارَه . اللهم صلى عليه وعلى جُملة رسلِك وأنبيائك وزُمَرِ ملائكتك وأصفيائك ، صلاة تعم بركاتُها المطيعين من أهل أرضك وسمائك . اللهم إنى أعوذ بعلمك من جهلى وبغناك من فقرى وبعزِّكَ من ذُلى وبحولك وقوتك من عجزى وضعفى ، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذلِ العُمُر . اللهم إنى أعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أُحصِى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك . اللهم إنى أعوذ بك من منكراتِ الأخلاقِ والأعمالِ والأهواءِ والأدْوَاءِ والآراء .

اللهم يامن بيده خزائن السموات والأرض عافنا من مِحَنِ الزمان وعوارِضِ الفتن فإنا ضُعفاء عن حملها وإن كنا أهلا لها فعافيتك أوسع لنا ياواسعُ ياعليمُ . اللهم أحسن عاقبتَنا فى الأمور كُلِّها وأجرنا من خزى الدنيا وعذابِ الآخرة . اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنيايَ التى فيها معاش ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادةً لى فى كل خير ، واجعل الموت راحةً لى من كل شرٍّ ، اللهم اجعل خير عمرى آخرَهُ ، وخير عملى خواتِيمَه ، وخير أيامى يوم ألقاكَ فيه . اللهم لاتجعل عيشى كدًّا ، ولا تجعل دعائى ردًّا ،

ولا تجعلني لغيرك عبداً ، ولا تجعل في قلبي لسواك وُدًّا ، إني لا أقول الك ضِدًّا ولا شريكا ولا نِدًّا . اللهم ارزقني نفساً قانعةً بعطائك ، موقنةً بلقائك ، شاكِرَةً لنعمائك ، محبة لأوليائك ، مُبْغِضَةً لأعدائك . اللهم وسع على رزقي في دنياي ، ولا تحجُبُني بها عن أخراى ، واجعل مقامي عندك دائماً بين يديك وبك ناظراً إليك وأرني وجهك الكريم وَوَارِنِي عن الرؤية وعن كل شيء دونك ، وارفع البَيْن بيني وبينك يامن هو الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكل شيء عليم .

اللهم صل على سيدنا محمد كما أمرتنا أن نصلى عليه ، اللهم صلى على سيدنا محمد كما هو أهله .

اللهم صل على سيدنا محمد كما تحب وترضى له » .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدِنا ومولانا محمد سيدِ الأولين والآخرين قائد الغُرِّ المُحَجَّلين السيدِ الكامل الفاتح الخاتَم الحبيبِ الشفيع الرءوفِ الرحيمِ الصادقِ الأمينِ السابقِ للخلق نورهُ والرحمةُ للعالمين ظهوره عدد من مضى مِنْ خلقك ومن بَقِيَ ومن سعد منهم ومن شقى صلاة تستغرق العدَّ وتحيط بالحدِّ صلاة لاغاية لها ولا مُنْتهى ولا أمدَ ولا انقضاء ، صلاة دائمة بِدَوَامِكَ باقية ببقائك وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأصْهَارِه وأنصاره وسلم تسليما مثل ذلك واجر يامولانا خفي لطفك في أمورنا كُلِّها وأُمورِ المسلمين » .

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله صلاةَ أهل السَّموات والأرضينَ عليه واجر يا مولانا لُطفك الخفِيِّ في أمري وأرني سِرَّ جَمِيل صنعك فيما أؤمله منك يا رب العالمين » .

اللهم فاطرَ السموات ِ والأرض ِ عالمَ الغيبِ والشهادَةِ الرحمنَ الرحيمَ إني

أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا : إنك أنت اللهُ الذى لا إلهَ إلا أنتَ وحدكَ لاشريك لك وأن محمدا صلى الله عليه وسلم عبدُك ورسولُك فلا تَـكِلْنِى إلى نفسى طرفةَ عين إنك إن تـكلنى إلى نفسى تُقربنى من الشر وتُبعدنى من الخير، فإنى لا أثق إلا برحمتك فاجعل لى عندك عهدا تؤديه إلى يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد »

اللهم لك الحمدُ كما أنت أهلُهُ ، فصل على سيدنا محمد كما هو أهلُهُ وافعل بى ما أنت أهله ، فإنك أهل التقوى وأهل المغفرةِ » .

اللهم إنى أسألُك بحقه عليكَ الذى أثبته وبقَسَمِكَ بعَمْرِه الذى شرَّفْتَهَ به وفضلته وبمكانه منك الذى خصصته واصطفيته ، أن تجازيَه عنا أفضَلَ ما جزَيْتَ به نبيا عن أمته وتؤتيهُ من الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة فوق أمنيَّته وتُعْظِمَ عن يمين العرش نوره بما نورت به من قلوب عبيدِكَ ، وأن تضاعف فى حضيرة القدس حُبُوره بما قاسى من الشدائد فى الدعاء إلى توحيدك وأن تجدِّد عليه من شرائف صلواتك ولطائف بركاتك وعوارف تسليمك وكراماتك ماتزيده به فى عرصات القيامة إكراما وتعليه به فى عليين مُستقرًّا ومُقاماً .

اللهم وأطلِقْ لسانِى بإبلاغِ الصلاةِ عليه والتسليم واملأجنانى من حبه وتوفيه حَقِّه العظيم واستعمل أركانى بأوامره ونواهيه فى النهار الواضح والليل البهيم وارزقنى من ذلك مايبوِّئنى جنات النَّعيم ويُشعِرُنى رُحماكَ وفضلَكَ العَمِيمَ ويقرِّبنى إليك زلفى فى ظلِّ عرشِكَ الـكريمِ وتحلُّنى دارَ المقامَةِ من فضلِكَ وتُزحزِحُنى عن نارِ الجحيم ، وتُعطِينِى شفاعَتَهُ يومَ العرضِ وتُورِدُنى مع زُمرته على الحوض ، وتؤَمننى يوم الفزع الأكبرِ يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ ، وارفعنى معه فى الرفيقِ الأعلى واجمعنى معه فى الفردوس وجَنَّةِ المأوَى واقْسِمْ لِى أوْفَرَ حظٍّ من كأسه الأوفى ، وعيشِهِ الهنى الأصفَى واجعَلْنِى ممَّن شفى غليله بزيارة قبره وتشفَّى ، وأناخَ ركابَهُ بعرصات حرِ بكَ وحزبه قبل أن نتوَفَّى » .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله ما أكرمك على الله

الصلاة والسلام عليكَ يارسولَ اللهِ ما خاب من توسل بك إلى الله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله كلٌ من دونك محب وأنت حبيب الله

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله الأملاكُ تستغيثُ بك عند الله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول اللهِ الأنبياء والرسل مُمَدُّون من مَدَدِكَ الذى خُصِّصْتَ به من الله .

الصلاة والسلام عليك يارسول الله الأولياء أنت الذى واليتهم فى عالم الغيبِ والشهادةِ حتى تولاَّهم الله .

الصلاة والسلام عليك يارسول الله من سلَكَ على محجتِك و[illegible] أيده الله .

الصلاة والسلام عليك يارسول الله المخذُولُ من أعرضَ عن الاقتدَاءِ بك إلى والله .

الصلاة والسلام عليك يارسول الله من أطاعَك فقد أطاع الله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله من عصاكَ فقد عصى الله .

الصلاة والسلام عليك يارسول الله من أتى لبابك متوسلًا بك قبلَهُ الله

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله من حطَّ رحل ذنوبه فى عتَبَاتك غفر له الله .

الصلاة والسلام عليك يارسول الله من دخل حرَمَك خائفا أمّنه الله .

الصلاة والسلام عليك يارسول الله من لاذ بجنابك وعَلِقَ بأذيالِ جاهِكَ أعزَّه الله .

الصلاة والسلام عليك يارسول الله من أم لك وأمَّلَكَ لم يَخِبْ من فضلك لا والله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله أملُنا شفاعَتُك وجوَارُك عند الله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله توسَّلْنا بك فى القبول عسى ولعل نكون مِمَّن تولاه الله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله بِك نرجو بلوغَ الأملِ ولا نخافُ العكس حاشا الله .

الصلاة والسلام عليك يارسول الله مُحِبُّوكَ من أُمتِكَ واقفُونَ ببابِكَ يا أكرم الخلق على الله .

الصلاة والسلام عليك يارسول الله قصدناك وقد فارقنا سِوَاك ياوسيلتَنَا إلى الله .

الصلاة والسلام عليك يارسول الله قد جئناك بشوق المحبة ضيوفا نرجو القِرى فاجعل قِرانا ما يليق بكرمك من إحسان ربك يا عزيز القدر عند الله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله العرب يحمون النزيل ويجيرون الدخيل وأنت سيد العرب والعجم يا رسول الله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله قد نزلنا بحيك واستجرنا بجنابك وأقسمنا بحياتك على الله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله أنت الغياث وأنت الملاذ فأغثنا بجاهك الوجيه الذى لا يرده الله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله .

الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله .

الصلاة والسلام عليك يا نبى الله .

الصلاة والسلام عليك يارسول الله ، ما دامت ديمومية الله صلاة وسلاماً ترضاها وترضى بهماعنا يا مولانا يا رسول الله .

الصلاة والسلام عليك وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى سائر الملائكة أجمعين .

اللهم وارض عن أصحاب رسول الله أجمعين وعن التابعين وتابع التابعين ومن تبعهم بخير وإحسان إلى يوم الدين .

اللهم يا على يا عظيم يا حليم يا حكيم يا كريم يا غفور يا رحيم إنا نتوسل إليك بجاه هذا السيد الكامل الذى من جميع خلقك اخترته واصطفيته وبجميع المكارم خصصته واجتبيته أن تُميتنا على الإيمان والإسلام وأن تسعدنا به وبلقائك يارحيم يارحمن ياسلام .

واجعل اللهم ما مننت به علينا فى جميع هذه المواهب التى وهبتها لنا تاجاً فى قلوبنا ومحوا لذنوبنا ونوراً فى يقيننا وقوة فى إيماننا وتزكية لأعمالنا وزخرا لآخرتنا .

وارحم بها والدينا وإخواننا وأشياخنا وكل من انتمى إلينا .

وانفع اللهم بها كل من طالعها واقتبس منها نورا يزكيه، وخيرا ينميه ولا تؤاخذ بذنوبنا وسوء أفعالنا وعاملنا بما أنت أهله من الجود والكرم ياأرحم الراحمين.

اللهم إنا نتوسل إليك بل ونسألك لا نسأل غيرك بحقك وحق نبيك أن تميتنا على دينه وملته وأن تحشرنا في زمرته وتحك لوائه وغايته وأن تغفر ذنوبنا وأن تستر بمنك عيوبنا وأن تطهر من صدإ الغفلة قلوبنا .

وامح اللهم زللنا وخطايانا وأن تتجاوز عنا وعن سيئآتنا وأن تهوّن علينا سكرات الموت وما بعده من فتنة القبر والحشر وأن تطيبنا للموت وأن تجعل فيه راحتنا وقنا اللهم من الأهوال العظيمة التي لا يسعنا حملها ولا ضعفنا إلا ما كان من عفوك وجودك ورحمتك فأنت الجواد الكريم الغفور الرحيم .

الصلاة والسلام التّامّان الأكملان على سيدنا ومولانا محمد الذى انعقدت له العزة فى الأزل وانسحب فضلها إلى ما لا يزال وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته.

سبحان الله عدد ما خلق فى السماء . سبحان الله عدد ما خلق فى الأرض. سبحان الله عدد ما بين ذلك . وسبحان الله عدد ما هو خالق . والحمد لله عدد ما خلق فى السماء . والحمد لله عدد ما خلق فى الأرض . والحمد لله عدد ما بين ذلك والحمد لله عدد ما هو خالق .

ولا إله إلا الله عدد ماخلق فى السماء . ولا إله إلا الله عدد ماخلق فى الأرض ولا إله إلا الله عدد مابين ذلك . ولا إله إلا الله عدد ما هو خالق .

والله أكبر عدد ما خلق فى السماء . والله أكبر عدد ماخلق فى الأرض . والله أكبر عدد ما بين ذلك والله أكبر عدد ما هو خالق . ولا حول ولا قوة إلا بالله عدد ما خلق فى السماء . ولا حول ولا قوة إلا بالله عدد ماخلق فى الأرض . ولا حول ولا قوة إلا بالله عدد ما بين ذلك . ولا حول ولا قوة إلا بالله عدد ما هو خالق .

اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه . وأستغفرك من كل ما وعدتك به من نفسى ثم لم أوف به واستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك . وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فاستعنت بها على معصيتك . وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيته فى بياض النهار وسواد الليل فى ملإ وخلاء ، وسر وعلانية يا حليم .

اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ماصنعت أبوء لك بنعمتك على' وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ثلاثا . أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم وأتوب إليه .

اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبى' ورحمتك أرجى عندى من عملى . ثلاثا .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

هذه بعض مقتطفات مما ورد فى الصلاة التى كان يهيم بها حبا شيخنا رضى الله عنه ، وكل فقرة منها تعتبر ذكرا قائما بنفسه وقد أوردناها على هذا الاعتبار .

أما فيما يتعلق بالصيغ المفردة فقد سئل الشيخ رضى الله عنه عن أفضل صيغة فى الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنها ،

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد عبدك عدد خلقك ورضاء نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك

فسأله أتباعه :

أهى أفضل من :

« اللهم صل على سيدنا محمد النور الذاتى والسر السارى سره فى جميع الأسماء والصفات »

وكان الأتباع يعرفون حبه أيضا للصيغة الأخيرة ، فقال :

إن العبودية فى قولنا ـ فى الصيغة الأولى ـ « محمد عبدك » أفضل من أى صيغة أخرى .

وكان رضى الله عنه يقول عن الصلاة الإبراهيمية : إنها الصلاة التامة ، لأنها من جميع المقامات ، فكما أن إبراهيم عليه السلام له مقامات كثيرة ـ الخلة ـ التسليم كونه أمة . . . الخ فيصل عليه من جميع ذلك فكذلك محمد صلى الله عليه وسلم مع عدم الاتحاد فى الحكم والكيفية بل المعنى :

كما صليت عليه فى جميع المقامات صلاة تليق به ، فكذلك صل على محمد صلاة تليق به فى جميع المقامات وكذلك آل كل وصحب كل .

ونعود من جديد بعد هذه الترويحة فى الدعاء والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سيرة الشيخ العطره فنقول :

وظل الشيخ فى الجهاد الأكبر حتى جاوزت سنه الثلاثين بقليل ، فأحس برغبة ملحة ، ودفع قوى وميل شديد إلى نسخ القرآن الكريم بيده أجزاء ، ولم يلبث أن سارع مستجيبا لهذه الرغبة كعادته ، فاعتكف لهذا العمل الجليل ، خمسة وعشرين يوما أتم بانتهائها كتابة المصحف كله أجزاء بخط النسخ الواضح مع وضع علامات الوقف والشكل والرموز التى بالمصحف ، وزخرفته أوائل السور والأجزاء ، وتجليد كل جزء من الأجزاء الثلاثين بغلاف جميل متين ،

وكان فى هذه الفترة قليل النوم والطعام يشعر بروحانية عجيبة وهمة عليه ، ونشاط كبير ، فعلم أن هذا الأمر من الله ، وأن له ما بعده .

ولعلمه بأن لمن كتب القرآن الكريم دعوة مجابة فساءل نفسه ، أى دعوة أدعو بها ؟ ولم يجد فى قلبه غير الابتهال إلى الله عقيب الفراغ منه أن يتقبل هذا العمل خالصه لوجهه وأن يسلك به السبيل إليه ، وأن يوفقه لما يحبه ويرضاه ويحسن له الختام .

وبعد كتابته القرآن الكريم مباشرة ، رأى فى نومه جمعية من رجال الله تقلب صفحات أجزاء هذا المصحف ، وينظر بعضهم إلى بعض نظرة إعجاب وتقدير ، ثم قررت هذه الجمعية قبوله ، وتداوله فى المناسبات بين أهل القرية ، لتوافر الإخلاص فى كتابته ، وفعلا تداول المسلمون هذا المصحف فى مناسباتهم الدينية .

عزلته :

وبعد كتابته المصحف الشريف بأيام ، وجد عنده نزوعا إلى الاعتكاف ، وميلا إلى عزلة الناس ، فترك المكتب ، واعتكف فى منزله بعيدا عن الخلق ، واشتغل بالعبادة والذكر ، ولهج بقراءة القرآن الكريم ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم .

واستمر الشيخ فى عبادته وذكره وعزلته الدائمة ، ثم خطر على قلبه ، ما يراد بى ؟ أأسلك طريق القوم بلا شيخ ؟

فأتاه الرسول صلى الله عليه وسلم فى المنام وقال له :

« خير الأمور أوساطها الروح المحمدى يتولاك »

فاستيقظ الشيخ مستبشرا مطمئنا وزاد ذلك فى همته .

خلواته :

ثم أمر الشيخ رضى الله عنه بالخلوة فى الأيام التسع الأولى من ذى الحجة ، إذ لها فضل عظيم ، ولقد نزل فيها قوله تعالى « والفجر وليال عشر » وهذه أولى خلواته .

ثم أمر بعد ذلك بخلوة أربعين يوما .

وكان فى هذه الخلوات مأخوذا ناسياً نفسه مسلمها إلى ربه ليطهرها ، فكنت تسمع منه أنه كان لا يفكر فى أمور الحياة حتى رغب عن الطعام ، فصار لا يتناول منه إلا القليل ، وتعجب منه حاله إذ يقول :

« كنت أفطر على خمس زبيبات أو سبع ، وعند السحور قد أكتفى بلقمتين أو ثلاث ، ومع ذلك لا أحس بضعف ولا فتور .

ومن شروط الخلوة عدم الخروج إلا لحاجة ، فكان الشيخ رضى الله عنه لا يخرج من خلوته إلا لصلاة الجمعة فى المسجد ، ويخرج على هيئة مخصوصة حتى لا تتفرق جمعيته بربه ، وبعد الصلاة مباشرة يعود إلى خلوته .

وقد أذن للشيخ فى بعض خلواته ، بزيارته لأمه فى حجرتها الخاصة بها فى المنزل ، فكان يدخل عليها بين الحين والحين ، ويقدم لها الطعام ، ويطعمها بيده ، وقد يكون هذا الطعام من الأطعمة الغير مباحة له فى الخلوة كالسمك واللحم ويظل يطعمها حتى تشبع ، ويحدثنا عن ذلك يقول :

كنت أجد فى ذلك لذة لا تعد لها لذة ، وكأن لذة هذا الطعام تدخل بطنى .

ولذا كانت أمه لا تفتر عن الدعاء له وكان الشيخ يقول فى ذلك :

إنى أعتقد أن ما أنا فيه من خير إنما هو بركة دعاء أمى لى ورضاهـا عنى طول حياتها ، إذ أن أكبر سعادة هو رضا الأم ، وبعد هذه الخلوة الأربعينية أمر بخلوة أربعينية أخرى .

وبعدها بمدة قليلة أمر بخلوة تسعينية أى ثلاثة أشهر وحددوا له وقتها من يوم كذا إلى يوم كذا فوجدها أشد أيام الصيف الشديدة الحرارة وأطولها ، وكان فى كل خلواته ، يصوم النهار ، ويقوم الليل ، وطعامه من غير ذى روح مع خبز الشعير ، وكان إدامه أحيانا فى بعض هذه الخلوات الملح فقط ، وفى البعض الآخر السكر فقط .

ثم اختتم الشيخ خلواته بالخلوة الصمدانية . وهى التى أمر بها فى شهر رجب الفرد ، وشرطها فوق شروط الخلوات السابقة . يعرفها أهل الله وسميت بالصمدانية لمحاولة التخلق فيها بأخلاق الله وما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلا .

وبعد انتهاء فترة الخلوات تلك ، وكانت نحو ثلاث سنوات أمره الرسول صلى الله عليه وسلم مناما بالتوجه إلى السيد العارف بالله تعالى فضيلة الشيخ : عبد الوهاب ابن فضيلة مولانا الكبير الشيخ حسنين الحصافى الشاذلى رضى الله عنهما ، ليأخذ منه الخلافة لتكون هذه الخلافة كسلاح له فى المجتمعات وحجة على من يعترض طريقه فى الإرشاد والدعوة .

وكان من آخر الأعمال الجليلة التى قام بها فى أخريات ، حياته هذا المسجد العظيم بمئذنته السالقه التى تجذب الأنظار من بعيد :

فلقد اشترى أرضه وأعد مواد بنائه ، وهيأ له ما تيسر من مال لاقامته

وإنشائه واطمأن على رسمه وأشار بتنفيذه ولكن المنية عاجلته .

وهذا المسجد يعد واحة فى صحراء الحياة ففيه يجتمع المريدون كل يوم على الذكر وعلى العلم تحفهم الملائكة ، وتنزل عليهم الرحمة ، ويذكرهم الله فيمن عنده .

أما عمله الخالد حقا فهو تربية هؤلاء الصفوة الذين تتلمذوا عليه وعلى رأسهم خليفته الشيخ عبد الجليل قاسم وابنه الأستاذ سليمان القاضى ، نفع الله بهم وجعلهم منارة يستضىء بها المهتدون .

الفصل الثاني

في جهاده

أساس طريقته رضى الله عنه هو أساس الطريقة الشاذلية عادة، وهو مايلى:

١ — أستَغفر الله « مائة » اللهمَّ صلِّ على سيِّدنا مُحمَّد عبدكَ ونبيك ورسولِكَ النبّى الأمِّيّ وعلى آله وَصَحبِه وسَلِّم تَسْلِيماً بِقَدْر عظمة ذاتك فى كل وقت وحين « مائة » .

لا إله إلا الله « مائة » سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم « مرة »

وإذا فات لا يقضى ولكن القضاء أولى من تركه إذا فاته اضطراراً »

وهذا الأساس هو الورد اليومى للشيخ وللمريد على حد سواء :

ومن أوراد الشيخ اليومية :

١ — المسبعات :

٢ — سفينة النجاة لسيدى أحمد زدوق .

أما الأسماء التى يجب على المريد سلوكها فى بدايته فهى :

٢ — « الأصول » : لا إله إلا الله — الله — هو — حَيٌّ — واحدٌ — عزيزٌ — ودودٌ .

« الفروع » : حق — قهّارٌ — قيُّومٌ — وهَّابٌ — مُهَيْمِنٌ — باسطٌ .

يقرأ كل إسم مائة مرة على مدى الأيام حَسَبَ قدرته وفَرَاغِهِ ، ولاينتقل من إسم إلى آخر قبل تمام العدد ، إلا إذا رأى رؤيا وعرضها على شيخه، ووجد منها الإنتقال نقله ، وإلا فليتم العدد .

ولـكن الشيخ رضى الله عنه لم يـكن يـكتف بهذا ، وقد جمعت أوراده – فيما عدا ما سبق – فى كتاب طبعة السيد / حسن عباس زكى بعنوان « كنوز الأسرار » فى الصلاة والسلام على النبى المختار ، وفى هذا الـكتاب صلوات الشيخ عبد الله الهاروسى الفاسى ، وقد اقتطفنا منها زهرات فيما سبق ، وفى الـكتاب صلوات أخرى مباركة كثيرة ، وفيه تسبيح ودعاء مأثور ، ووصايا للنبى صلى الله عليه وسلم ، وفيه من الأحزاب للشاذلى ، رضى الله عنه ، حزب اللطف ، وحزب الإخفاء ، وحزب الشكوى ، وحزب البحر ، وفيه مناجاة واستغاثات وقصائد وصيغ لتفريج الـكروب .

وكان الشيخ رضى الله عنه يداوم على قراءته ويجتهد فى أن يقرأه يوميا .

ومما كان يقرأه يوميا فى هذا الـكتاب حزب اللطف ، لسيدى أبا الحسن الشاذلى ، نثبته هنا بتمامه لما فيه من لطف ، ولما لثمرته من لطف الله ، ورعايته لمن يقرأه .

حزب اللطف

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين .

اللهم اجعل أفضل الصلوات ، وأنمى البركات فى كل الأوقات على سيدنا محمد أكمل أهل الأرض والسموات وسلم عليه يا ربنا أزكى التحيات فى جميع الحضرات .

اللهم يا من لطفه بخلقه شامل ، وخيره لعبده واصل ، لاتخرجنا عن دائرة الألطاف وآمنا من كل ما نخاف وكن لنا بلطفك الخفى الظاهر يا باطن يا ظاهر ، يا لطيف نسألك وقاية اللطف فى القضاء ، والتسليم مع السلامة عند نزوله والرضا.

اللهم إنك أنت العليم بما سبق فى الأزل فخفنا بلطفك فيما نزل يا لطيفا لم يزل ، واجعلنا فى حصن التحصن بك يا أول يا من إليه الالتجاء وعليه المعول.

اللهم يا من ألقى خلقه فى بحر قضائه ، وحكم عليهم بحكم قهره وابتلائه اجعلنا ممن حمل فى سفينة النجاة ووقى من جميع الآفات .

إلهنا من رعته رعايتك كان ماطوفا به فى التقدير، محفوظا ملحوظا بعنايتك يا قدير يا سميع يا قريب يا مجيب الدعاء ارعنا بعين رعايتك يا خير من رعى .

إلهى لطفك الخفى ألطف من أن يرى ، وأنت اللطيف الذى لطفت بجميع الورى ، حجبت سريان سرك فى الأكوان فلا يشهده إلا أهل المعرفة والعيان فلما شهدوا سر لطفك بكل شيء أمنوا به من سوء كل شيء فأشهدنا سر هذا اللطف الواقى مادام لطفك الدائم الباقى .

إلهنا حكم مشيئتك فى العبيد لا ترده همة عارف ولا مريد، لكن فتحت لنا أبواب الألطاف الخفية المانعة حصونها من كل بابة فأدخلنا بلطفك تلك الحصون يا من يقول للشيء كن فيكون .

إلهنا أنت اللطيف بعبادك لاسيما بأهل محبتك ووِدادك، فبأهل المحبة والوداد وخصنا بلطائف اللطف يا جواد .

إلهنا اللطف صفتك والألطاف خلقك ، وتنفيذ حكمك على خلقك حقك ، ورأفة لطفك بالمخلوقين تمنع استقصاء حقك فى العالمين .

إلهنا لطفت بنا قبل كوننا ونحن للطف غير محتاجين أفتمنعنا منه مع الحاجة له وأنت أرحم الراحمين ، حفنا بلطفك الكافى وجودك الوافى .

إلهنا لطفك هو حفظك إذا رعيت وحفظك هو لطفك إذا وقيت ، فأدخلنا سرادقات لطفتك واضرب علينا أسوار حفظك يا لطيف نسألك اللطف أبدا ، يا حفيظ قنا السوء وشر العدايا لطيف ثلاثا » من لعبدك العاجز الخائف الضعيف .

اللهم كما لطفت بى قبل سؤالى وكونى كن لى لاعلى يا أمين وعونى .

الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز .

آنسنى بلطفك يا لطيف أنس الخائف فى حال المخيف تآنست بلطفك يالطيف

وقيت بلطفك الردى ، وتحجبت بلطفك عن العدا ، يا لطيف يا حفيظ والله من ورائهم محيط . بل هو قرآن . مجيد فى لوح محفوظ .

نجوت من كل خطب جسيم بقول ربى : ولا يوده حفظهما وهو العلى العظيم سلمت من كل شيطان وحاسد بقول ربى : وحفظا من كل شيطان مارد . كفيت كل هم فى سبيل بقولى : حسبى الله ونعم الوكيل . الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له مافى السموات وما فى الأرض، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يوده حفظهما وهو العلى العظيم. لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم : لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبد وارب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

اكتفيت بكهيعص .

واحتميت بحمعسق . قوله الحق وله الملك . سلام قولا من رَبٍّ رحيمٍ . أحون ق أدُمَّ حَمَّ هاء آمين . اللهم بحق هذه الأسرار قنا الشَّرَّ والأشرار ، وكل ما أنت خالقه من الأكدار . قل من يكلؤكم بالليل والنهار ، بحق كلاءة

رحمانيَّتك آكلأنا ولا تكلنا إلى غير إحاطتك .

رب هذا ذُلُّ سؤال فى بابك لا حول ولا قوة إلا بك .

اللهم صلى على من أرسلته رحمة للعالمين : محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ومجَّد وعَظَّمَ وَشَرَّف وكَرَّمَ ، سَيِّدى لا تُخْلِنِى من الرَّحْمَة والأمان ياحَنَّان يامَنَّان .

وسلام على جميع الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين » .

أما الوسيلة الكبرى لتقرب الشيخ من الله سبحانه وتعالى ، فهى ما لا حظناه نحن من تعلق قلبه دائماً بالله سبحانه وتعالى .

لقد كان مجالسه ذكر الله ، وكانت خلواته ذكر الله .

لقد كان من أولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » .

إن ذكر الله سبحانه وتعالى كان شعاره الدائم ، وطابعه ، ويدنه الذى لا ينفك عنه .

والذكر كما يقول القشيرى ركن قوى فى طريق الوصول إلى الحق سبحانه وتعالى .

بل هو العمدة فى طريق القوم .

ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر » .

وقد وصل شيخنا بدوام الذكر إلى الله سبحانه وتعالى .

وللشيخ رضى الله عنه مبادىء ونصائح نفيسة فى أصول الطريق ، وفيما يعين على الطاعة ويقرب إلى الله ، وفى آداب الذكر ، كتبها بخطه ، ننقلها على صورتها حرفياً .

٣ — أصول الطريق :

يقول رضى الله عنه ، مما يجب على المريد :

(١) أن يتقرب إلى الله تعالى بما شرعه وسنه رسوله صلى الله عليه وسلم .

(٢) أن تكون عبادته لوجه الله تعالى مخلصا فى قوله وعمله ، دون رياء مكتفياً بعلم الله فيه ، وإياه وحب الظهور فإنه يقصم الظهور .

(٣) أن يحفظ جوارحه عن المحرمات ، وليدع الفضول فى الأقوال والأفعال ، والتدخل فيما لا يعنيه ، وأن يطهر قلبه من الرذائل والخواطر النفسية، وألا يشغل نفسه بهمِّ الرزق وخوف الخلق ، فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين .

(٤) ألا يعترض على الخلق ، وألا يركن إلى دنيا أو جاه ، وإنما يعتمد على الله وحده ، وأن يفوض لله تعالى فى جميع أموره ، ويرضى عنه فى السراء والضراء .

(٥) أن يكون عفواً صفوحاً عن زلات أخيه ناصحاً له إن أمكن ، وألا يهجر أخاه فوق ثلاث ، وأن يبدأه بالسلام إذا التقى به .

(٦) أن يتحلى بالصدق فى الأقوال والأفعال ، وأن يتجمل بالصبر فى كل أموره .

(٧) أن تلازمه مراقبة الله تعالى فى السر والعلن .

(٨) أن يحسن الظن بربه والناس .

(٩) أن يكثر من الصدقات فإنها أقرب الطرق الموصلة إلى الله تعالى .

(١٠) أن يجدد التوبة كلما وقع فى هفوة أو شهوة أو غفلة .

(١١) أن يديم الاستغفار ويكثر من الصلاة على الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم .

(١٢) أن يحاسب نفسه ويتهمها فى كل شىء ، متوسلا بجاه سيد البشر وبعترته الطاهرة .

(١٣) وعليه التسليم الكامل لشيخه ، والتفانى فى خدمته ، واتباع أوامره ، وألا يعزم على أمر حتى يستأذنه فإذنه سبب نجاحه .

(١٤) أن يشغل أوقات فراغه بمجالسة أهل التحقيق أو مطالعة كتبهم » .

٤ — ومما يعين على الطاعة ويقرب إلى الله تعالى :

ألا يملأ بطنه من طعام حلال وأن يبتعد عما فيه شبهة من طعام أو شراب أو قول أو عمل واجتناب اللغو من الكلام والفرار من أهل الدنيا ما أمكن ، وألا يسهر إلا فى طاعة ربه ولاينام إلا عن غلبة ، وعليه باستعمال السواك ودوام الوضوء وكلما أحدث توضأ وكلما توضأ صلى ركعتين مع المواظبة على الصلوات الخمس فى أول وقتها مع الجماعة وألا يتخلف عن رباط الصوفية إلا لعذر وإلا حرم بركتهم ، وأن يصوم من كل شهر عربى ثلاثة أيام ، الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر .

وتلاوة ما تيسر من القرآن يومياً وعليه بقيام الليل فهو سبب الخير .

٥ — ومن آداب الذكر فيما يرى الشيخ رضى الله عنه :

ألا يتلو ورداً إلا بإذن من شيخه ، أو يلقنه إياه ، وأن يجلس فى الذكر على هيئة المتشهد ، متوضئاً مستقبل القبلة ما أمكن مغمضا عينيه ، وألا يشغل قلبه حال الذكر إلا بالمذكور ، وأن يراقب صورة شيخه فى جميع عباداته ، وأن يستمد بقلبه من شيخه ، وأن يلاحظ أن استمداده من شيخه هو الاستمداد من النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الشيخ الصادق نائب عنه .

وألا يشرب عقب الذكر مباشرة ، ولينتظر قليلا فى مكانه بعد الذكر الذكر صامتاً مستحضراً لتلقى ما يرد عليه من وارد الذكر ، وليؤد أوراده كاملة فى أوقاتها وإلا حرم المدد وينبغى ألا يتقدم أحد المريدين فى بدء ذكر ولا حزب ولا ورد على من قدمه شيخهم مادام حاضراً » .

الفصل الثالث

فى إلهاماته

الهامات عن الطريق

وطريق الشيخ يتلخص - مع المحافظة على الفروض - فى أمرين .

١ — ذكر كثير

٢ — خُلُق كريم

وكان مما يذكر رضى الله عنه لمريديه ما قاله أبو العباس المرسى رضى الله عنه :

طريقنا : المداومة على الذكر ، وترك الغيبة ، وترك سوء الظن بعباد الله ، فمن واظب على ذلك رزقه الله من حيث لا يحتسب .

ومن وارداته رضى الله عنه فى شأن المريد :

١ — لزوم الجد فى الطاعات ، وارتكاب خطر أهوال المجاهدات ، وذبح النفوس بسكين المخالفات ، وحبسها فى سجن الرياضة حتى يفتح الله عليه بالسراج فى رياض المعرفة .

٢ — ومن شأنه أيضاً (المريد) أن يذكر فى كل وقت حتى يصل إلى الغَيْبة والحضور :

والغيبة عما دون الحق حتى يغيب عن نفسه إلى درجة أن لا ينظر إلى نفسه فى حال غيبة نفسه والحضور مع الحق ، فإن الغيبة عن النفس حضور مع الحق .

وموقف المريد من العلوم ظاهرة وباطنه ، قد حدده الشيخ فيما يلى :

من لم يستعد بالعلوم الظاهرة تكون العلوم الحقيقية بالنسبة له ، ظلمات في القلب .

ومن لم يستعد بالعلوم الباطنة تكون الظاهرة بالنسبة له ، ظلمات في القلب أيضا .

إن المريد يحتاج في البداية أن يكون عارفا علميا ، فتكون نهايته عارفا حقيقيا .

وينصح الشيخ المريد قائلا :

راقب صورة شيخك وأنت تقرأ صورة وردك ، واستمد منه ، واعلم أن الرسول محيط بكما ، والله محيط بالكل : فهذه أساس الجمعية التي بها يتم الفلاح .

والنصيحة الحقة بالنسبة للمريد هي :

المجاهدة في إزالة رذيلة ، وإحلال فضيلة محلها كمحو البخل وإحلال الكرم محله ، أو استبدال الكبر بالتواضع .

ولقد نصح الشيخ مرة مريديه ـ وكان ذلك يوم الجمعة ٢٤ من ذي الحجة ١٣٨١ هـ ـ فقال :

من عمل بهذه النصائح أبشره بدخول الجنة : ـ حفظ الجوارح جميعها إلا فيما يرضى الله ، ترك الغيبة أو نهش أعراض الناس : ـ عدم الاعتماد على حب الشيخ من غير عمل ، أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك .

المجذوب والسالك :

والإنسان فى سيره إلى الله إما أن تكون بدايته جذبة من جذبات الحق ، وإما أن تكون سلوكا ، وفى المجذوب والسالك يقول الشيخ رضى الله عنه :

المجذوب من جذبه الله إليه ، ولذلك كان سيره من أول خطوة فى الطريق بالله لا بنفسه ، وهذا جاء من باب القدرة : كن فيكون .

ويوضح ذلك من فاجأته العناية فتغيرت حاله فجأة وانقاد إلى طريق مولاه وهذا هو المجْتَبَى مباشرة .

أما السالك فأنواع : —

(ا) نوع قدر الله له الوصول وهذا يقال له مُجْتَبَى من وراء حجاب لأنه أتى من باب الحكمة .

(ب) نوع ظل سائرا ولم يصل وفاجأته المنية وذلك يكمل الله سبحانه له الوصول فى قبره .

(حـ) نوع لم يقدر الله له الوصول وذلك هو النوع المستدرَجُ والعياذ بالله .

والسالك المقدر له الوصول أفضل من المجتبى مباشرة، لأن المجتبى لم يجاهد ، والمجاهد يجاهد نفسه وهواه وهذا هو مقام الجهاد الأكبر .

والمجذوب فاته هذا المقام والدليل على ذلك قوله سبحانه :

« لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من اللذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بماتعملون خبير ».

وهناك مرتبة أعلى من المرتبتين : مرتبة (المجذوب المجاهد) وهى مرتبة المجاهد الذى سلك بنفسه ثم أدركته العناية فجُذِب واجتُبِيَ قبل الوصول ، فقد أحرز المنزلتين .

البصيرة :

وينتهى السلوك ، بتوفيق الله ، بالكشف عن البصيره .

والبصيرة ناظر القلب ، والبصر ناظر القالب . وهى ـ أى ـ البصيرة ـ أقسام .

بصيرة فاسدة : للكفار إذ أنها أنكرت نور الحق .

وبصيرة مسدودة : لمرض أصابها إنها محاطة بالنور ولكنها لا تقوى على مشاهدته ولا تشهد قربه منها ولا يعده عنها وهى لعامة المسلمين . فالمسلم نطق بالشهادتين وأقر بالوحدانية لكنه لا يرى هذه الوحدانية لماران على قلبه بما سد ناظر بصيرته .

وهناك قسمان آخران للبصيرة وهما : —

١ — عين البصيرة

٢ — حق البصيرة : وهما داخلان فى نطاق مقام الإحسان .

(ا) فعين البصيرة : نور الإحسان لأهل المشاهده .

(ب) وحق البصيرة : نور الإحسان لأهل المكالمة .

وكل ما بعد ذلك ترقى فى مقام الإحسان .

وقد أشار إلى ذلك ابن عجيبة ، وانفرد محى الدين برأى خاص به ، بأن هناك مقاما فوق مقام الإحسان ، وهو ما بعد الصديقية الكبرى وقبل مرتبة النبوة وهو مقام الإيقان الذى فيه الخضر وقد ذاقه ابن عربى .

والحق أنها ترقيات فى مقام الإحسان ، وليس بعد مقام الإحسان إلا مقام النبوة ، ويشهد لذلك حديث الإسلام والإيمان والإحسان .

ويجمع الطريق الوارد التالى :

لذ بجنابنا ، واطرح أثقالك برحابنا ، واجعل مطالبك مطالبنا : نجعلك إماما لنا : أى من أئمتنا فى الأرض الموالين لنا .

يقول الشيخ : إن هذا الوارد يقصد بذلك المشايخ المسلكين ، وهذا الوارد — كما يقول — جمع الطريق كله مختصرا .

إلهامات فى التفسير

ونبدأ بعون الله الآن فى ذكر ما تحدث به الشيخ رضى الله عنه فى تفسير آيات من القرآن الكريم .

١ — بسم الله الرحمن الرحيم :

افتتح السور بالبسملة : لأن السور بيوت ومنازل، فباب كل بيت البسملة.

ومعناه أن من دخل آمن : لأنه طمأنه بالرحمة التى فى البسملة التى هى الباب .

٢ — « وإِذْ قال رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فى الأَرْضِ خَلِيفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم مالا تعلمون »(١) .

وموقف الملائكة من خَلْق آدم عدم منهم .

والأمر بالسجود للخليفة تشريف للخليفة .

وإبليس زعيم فرقة النار ، ومحمد صلى الله عليه ، زعيم فرقة الجنة .

إبليس من الجن وعلا بالعبادة إلى رتبة الملائكة ، فلما أمرت الملائكة بالسجود له وهو معهم ، شمله الأمر ، فغلبت عليه نفسه باعتبار أصله ، فلم يسجد ، أما الملائكة فلأنهم أرواح محضة : سجدوا .

---

(١) البقره آية ٣٠

٣ — واذْكُرُوا نعمَةَ اللهِ عَليْكُمْ وميثاقه الذى واثقكُم به ، إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور »(١) .

أى اشكروا نعمته الكبرى : الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ووارثه فى كل عصر ، وشكره التأدب فى حضرته والعمل بما يحبه ، والرسول خير نعمته « إنما أنا رحمة مهداه » .

٤ — إنْ تُعَذِّبْهم فَإنَّهُمْ عِبادُكَ وَإنْ تَغْفِرْ لهُم فَإنَّك أنْتَ العَزيزُ الحكيم (٢) .

الحكمة تقتضى عدم المغفرة لهم ، فكيف يخالف الحكمة ؟ :

المراد الستر فى المواقف من الفضيحة .

٥ — لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الابصَارَ وَهُوَ اللطِيفُ الْخَبِير (٣) .

العارفون يدركونه ببصائرهم ، والآية : نفى للإدراك بالبصر ، لا البصيرة .

٦ — أهل الأعراف :

« وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كلاًّ بِسِيمَاهُم وَنَادَوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلاَمٌ عَليْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ » .

مدحوا بقوله : رجال . سواهم الله بيدى الجلال والجمال ، فهم بين

---

(١) المائدة آية : ٧ .

(٢) المائدة آية : ١١٨ .

(٣) الأنعام : ١٠٣ .

الغضب والرحمة ، النار والجنة ، فلو مال أحدهم إلى أيهما لا يكون كاملا ، بل إن وضعه كالميزان لا يميل إلى الجنة ولا إلى النار ، ويسلمون على أهل الجنة ، وقلوبهم مع الله لامع الجنة .

ويقول الشيخ مرة أخرى :

هناك من خلقه الله بيد : إما جمال محض ، أو جلال محض .

وهناك من خلقه الله بيدين : الجمال والجلال ، فهو الخليفة ، كآدم ، يقول الله تعالى :

« ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى » .

فكل من جعله الله خليفة يكون مخلوقا باليدين جسما وروحا ، وله تسجد الملائكة كآدم .

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ(١) ﴾

ذلك المعصوم فكيف يرجع إلى ملة الكفر ، وذلك ينافى العصمة .

هذا من باب ملاحظة العلم المطلق ، فليس هناك فيه قيد ولا عصمة ولا غيرها : لأن الشرع مقيد ، وعلمه المطلق لا إطلاع لأحد عليه .

ومنه دعاء النبى يوم بدر .

---

(١) الأعراف آية ٨٩ .

ومنه قول أبى بكر . لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمى فى الجنة .

ومنه قوله : ﴿ وإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

٨ — الأفعال من الله :

ويحبهم ويحبونه .

ففى الحقيقة ما أحب إلا نفسه : لأنه لا يحبهم إلا لفعالهم ، وهو منه :

نعم الأفعال كلها منه .

والفعل فى حالة صـــدوره من الله لا يكون إلا خيراً ، ولـكن الوعاء الذى تنزل عليه تلك الأفعال هو الذى يشكلها ، فلذا نسب لله فى الصدور إن كان خيراً ، وللعبد فى الظهور إن كان شراً ، لأن العبد هو الذى شكله .

٩ — مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحياةَ الدنيا وَزينتها نُوَفِّ إِلَيْهِم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبْخَسُون . أولئك الذين ليس لَهُم فى الآخِرَةِ إلا النَّار وَحَبِطَ ما صنعوا فيها وَباطِلٌ مَّا كانوا يعملون (١) »

دليل على زيادة أرزاق الظلمة وكل من كان يريد بعمله الدنيا .

وقوله : « أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة . . . الخ

قضاء عليهم ، وقصم لهم . وبيان لضياعهم فيما هو أهم فى الآخرة .

﴿ وَيَصْنَعُ الفُلْكَ وَكلَّما مَرَّ مَلأٌ مِّن قَومه سَخِرُوا مِنْه ، قَالَ :

---

(١) هود آية ١٥ ، ١٦

إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُون (١) ﴾ .

لما كان نوح يصنع السفينة فى البرية ، ويقول لهم سأعمل بيتا يسير على الماء ، فكانوا يسخرون منه ، وكذلك المصلح يكون ظاهر حاله يدعو للاعتراض والعجب ، ولكنه على حق والعبرة بالنتيجة .

١١ — قول لوط :

﴿قال لو أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْءَاوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٢) ﴾ .

فهو يقول « لو أن لى بكم قوة ، يعنى الجلال والغضب عليهم شديد ، والرحمة التى عليه خاصة ، فهى أقل فيقول : لوأن الرحمة التى معى تغلب الغضب الذى عليكم .

أو آوى إلى ركن شديد معناه : أو يتجلى على مولاى بالرحمة العامة فتغلب كل غضب .

ولقد كان لوط فى كل حال يأوى إلى مولاه ولم يبرح الحضرة الإلهية . ولا يليق بنبى إلا كذلك ، ولذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم .

« رحم الله أخى لوطاً كان يأوى إلى ركن شديد » .

فيشير إلى أنه كان دائما آوياً إلى مولاه .

وإنما كان يطلب غلبة الجمال الجلال ، أو الرحمة الكلية العامة الغضب ، والله أعلم .

١٢ — ﴿ فاسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ وَمَن تَابَ معك ولاَ تَطْغَوْا إنه بِمَا تَعْمَلونَ بَصِير (٣) ﴾ .

---

(١) هود آية ٣٨ (٢) هود آية : ٨٠ (٣) هود آية : ١١٢

قوله : « شيبتنى هود وأخواتها »

لقوله : « فاسْتَقِمْ كما أمرت »

فالذى شيبه قوله : « أمرت » لأن الأمر خلاف الإرادة . الأمر قد يُعْصَى ولكن الإرادة لاتُعْصَى أبداً ، فلو قال كما أردتُ لما شيبه ذلك ولم يكن ذلك له ، بل لأمته ، لأنه قائم بالأمر وزيادة لأنه مراد الإرادات .

١٣ — ﴿وَإِذْ قال إبراهيمُ ربِّ اجعل هذا البلدَ آمِنًا واجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام(١)﴾ .

كيف ذلك لإبراهيم المعصوم ؟

المراد بالأصنام الأغيار والعلائق ، وكل ما يشغل عنه ، إذ أن ما يشغل العبد عنه يأسره ، ويكون الإنسان عبداً له : « تعس عبد الدرهم »

١٤ — ﴿وَلِلَّهِ غيبُ السَّموات والأرض وَمَا أَمْرُ السَّاعةِ إلا كَلَمْحِ البصرِ أو هُوَ أقْرَب ، إنَّ اللهَ على كل شيءٍ قدير(٢)﴾ .

أو للتحقيق فأمر الساعة للناس كلمح البصر ، وهو أقرب للأنبياء والمرسلين .

١٥ — ﴿ماعِندَكُمْ يَنْفَدُ وَمَاعِنْدَ اللهِ باق،ولَنَجْزِينَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ما كانوا يَعْمَلُونَ(٣)﴾ .

الذى عند نفسه فان ، والذى عند الله فى مقام العندية لا ينفد علمه ، ولا يغنى عرفانه .

---

(١) ابراهيم آية ٣٥ (٢) النحل آية ٧٧ (٤) النحل آية ٩٧

١٦ — ﴿ وإذا أَرَدْنَا أن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمْرنا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْل فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً(١) ﴾ .

هناك أمر تشريعى ، وهو ما جاء على لسان الرسل ، وهناك أمر الإرادة ، والأخير لابد من وقوعه وتحققه ، والأمر قد يقع وقد لايقع ، ومثل الأول الأمر بطاعة الله ، ومثل الثانى : « أمرنا مترفيها ففسقوا فيها » .

فهو أمر الإرادة ، أما قوله إن الله « لا يأمر بالفحشاء » فهو أمر تشريعى ظاهرى وآدم عليه السلام ، رأى أمر الإرادة فأكل من الشجرة وكان الأمر الظاهرى مخالفا لذلك ، فتركه لأنه رأى أنه غير واقع ، ولذا نال بعد ذلك الخلافه .

١٧ — ﴿ وَتَحْسَبُهُم أَيْقَاظًا وَهُم رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُم ذاتَ اليَمِين وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم باسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوَصِيدِ لَو اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُم فِرارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُم رُعْبًا(٢) ﴾ .

وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة والهيئة التى كانوا عليها من طول الشعر والأظفار وغير ذلك . ولم يتجل الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم(٣) ، بمثل ذلك . وكانت أعينهم مفتحه كالمستيقظ الذى يريد أن يتكلم .

١٨ — ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إلاَّ سَلاَماً وَلَهُم رِزْقُهُم فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٤) ﴾ .

---

(١) سورة الإسراء آية : ١٦ .
(٢) سورة الكهف آية : ١٨ .
(٣) بل تجلى الله عليه بالهيبة والمحبة معا .
(٤) سورة مريم آية : ٦٣ .

الجنة فى الدنيا ، والمراد الحث على الأوراد ، لأنها تسبب الأرزاق المعنوية والحسية ، وفى جنة الآخرة التى سقفها عرش الرحمن .

وهم يعلمون مقدار اليوم بعلامات .

١٩ — ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى[1] ﴾ .

قول سيدنا موسى عليه السلام :

« هى عصاى » .

معرفتى بك ، أعتمد عليها .

« أَهُشُّ بها على غنمى » .

أولادى فى التربية .

ولى فيها مَآرِبُ أخرى .

من باب لى وقت مع ربى لا تسعنى فيه أرض ولا سماء .

٢٠ — ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ .

فكيف يعصى وهو معصوم ؟

الحق أن هناك أمرا إراديا لا يعصى أبداً ، وأمراً شرعيا ، وهو قد يعصى،

---

(١) سورة طه آية : ١٨ .   (٢) سورة طه آية : ١٢١ .

وقد لا يعصى ، وعصمته تقتضى عدم عصيانه : إذ أنه اطلع على ما فى علمه ورأى عدم وقوع ذلك الأمر ، فعصى الأمر الظاهرى ، وغوى أمر الإرادة ، فهو طائع حقا ، إذ أنه يعلم أن ما فعله هو الواقع حتما .

والفرق بيننا وبين أمثال الأنبياء والمطلعين على علمه وعلى ما فى اللوح أنهم قبل الإقدام على العمل يرون ما فى علم الله ويشاهدونه ويأتون ما أراده الله سواء وافق الأمر الظاهرى أم خالفه .

ومثلنا لا اطلاع له ، فلا يدرى ما فى الإرادة ، وإنما يعلم أن هذا كان فى العلم بعد وقوع المقدور ، والعقاب والحساب على القدوم وعلى مخالفة الأمر وهو لا يدرى ما أراد الله .

أما هم فيرون ما فى علمه ، ويأتون الأمر الإرادى استجابة لما فى العلم لا لشهوة ولا لهوى ونحوه .

٢١ — ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فى الظُّلُمَاتِ أَن لاّ إِله إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(١)﴾ .

أى خرج من قومه من غير إذن .

لن نقدر عليه .

لن نقتر عليه بالرحمة ونضيق . وهناك غلب الرجاء ، والميزان استواء الرجاء والخوف .

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٨٧ .

٢٢ — ﴿ ومن آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فى ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (١) ﴾ .

ولم يقل بالنهار ، دليل على أننا فى غفلة تامة ، بالليل والنهار ، لأن النوم غفلة .

ومع غفلتنا التامة عنه ، وعن شهوده ومعرفته ، نرجوه ونطلب منه .

٢٣ — ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي من يَشاء وَهُو أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٢) ﴾ .

« إنك ببشريتك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء .

٢٤ — سأله مرة سائل فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣) ﴾ .

قائلا :

كيف يتفق أن النفس لا تدرى ماتكسب غدا مع مايختص الله به أولياءه من أسرار ومغيبات المستقبل ؟

فكان جوابه فى إيجاز بليغ « لقد قال سبحانه : [وما تدرى نفس ،

---

(١) سورة الروم آية : ٢٣ .
(٢) سورة القصص آية : ٥٦ .
(٣) سورة لقمان آية : ٣٤ .

ولم يقل روح] وإيضاح ذلك كما سمعناه منه ونرويه بالمعنى لا باللفظ .

أن النفس بما غطى عليها من رأن الطباع ، وما غشاها من كثافة ذميم الخصال لا يمكن أبدا أن تدرك شيئا من أسرار الله ، وهذه هى النفس المرادة فى الآية.

فإذا ما ارتقت من نفس أمارة بالسوء إلى نفس لوامة، ومن لوامة إلى ملهمة ومن ملهمة إلى مطمئنة ، ومن مطمئنة إلى راضية ، ومن راضية إلى مرضية دخلت فى حيز النفس الكاملة وحينئذ تكون قد تخلصت من ران الطباع وكثافة ذميم الخصال وتحكم سجن الجسد فيها فيكون لها الشفافية والإطلاق فتتحكم هى فى الجسد ولا يتحكم الجسد فيها ، ويكون صاحبها روحانيا وهذه المرتبة هى التى تسمى فيها النفس روحا ، والروح سر من أسرار الله، ولأنها سر الله فهى دراكة عالمة بما كان وما يكون ، فإذا ما وصل صاحبها إلى هذه المرتبة انكشف الغطاء ورأى أمامه غرائب الماضى ، وخفايا الحاضر ، وعجائب المستقبل وكل روح فى أصلها كذلك فإذا ما غيبت فى الجسد سيطر عليها بكثافة ، وغطى ما تحويه من أسرار ، فمن جاهد وأخرجها من هذه الكثافة عاد بها إلى أصلها واستحقت أن تنادى .

﴿ يأَيَّتها النَّفسُ المُطْمَئِنَّة ارجِعى إلى رَبِّكِ رَاضيةً مرْضية فأَدْخِلى فى عِبَادى وادْخُلى جنتى ﴾ .

وأولياء الله الذين اختصهم بأسراره منهم من وصل إلى هذه المرتبة ، ومنهم من تجاوزها وبذلك تنجلى الشبهة فى السؤال ولا تعارض الآية ما يختص الله به أحبابه من أسرار ، فهم علماء الله بحق ، الذين عناهم بقوله [وما يعلم تأويله

إلا الله والراسخون فى العلم] وهم بعينهم الذين تناولتهم الآية الكريمة إنما يخشى الله من عباده العلماء(١) .

٢٥ — ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ على السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والجِبال فأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَملها الإِنْسَانُ ، إِنهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً(٢) ﴾ .

الأمانة المعرفة الحقة ، وهى للغوث فما فوق ، وهى الخلافة الحقيقية . والإنسان الحق ، كان قبل حملها ظلوما جهولا .

٢٦ — ﴿ إِنمَّا أَمْرُهُ إِذا أَرَادَ شَيْئاً أَن يقولَ له كُن فَيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليهُ ترجعون (٣) ﴾ .

كيف يكون شيئا ، ويقول له كن ؟

فإن كان موجودا فلا داعى لوجوده ، وإن لم يكن موجودا فلمن يقول له كن ومن يخاطب ؟ .

يخاطب هذا الشىء المعلوم لله . الموجود فى علمه ، الحاضر لديه . المعدوم فى ذاته . الذى لم يأت أوان خلقه، إذ أن العلم تعلق بالمعلومات كلها وإلا كان علما. لأن العلم لابد له من معلوم يتعلق به، إلا أن هذا المعلوم لله معدوم فى ذاته فى حاجة إلى تكوين وبروز ، فيخاطب هذا المعلوم بالتكوين والخروج إلى حيز الوجود.

٢٧ — ﴿ فَلَمَّا بلغ معهُ السَّعْى قال يا بُنَيَّ إِنِّى أَرَى فى المَنامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فانْظُر ماذَا تَرَى قال يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَر سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ الله من الصَّابِرين (٤) ﴾ .

---

(١) من مذاكرت الأستاذ سليمان القاضى عن والده .
(٢) الأحزاب آية : ٧٢ (٣) يس آية : ٨٢ ، ٨٣
(٤) الصافات آية : ١٠٢

« قوله تعالى » :

« إنى أرى فى المنام أنى أذبحك » .

قال إسماعيل :

« يا أبت افعل ما تؤمر » .

ولم يقل : مارأيت ، فلم يكن رآه أمرا، ولو كان رآه أمرا لقال : إنى أمرت.

وكيف يذبحه ولم يؤمر بذلك ؟

إنما ذلك شدة مسارعة لتنفيذ ما رأى .

رؤيا الأنبياء والصالحين على قسمين .

١ — كشف .

٢ — رؤيا تحتاج إلى تأويل .

فالأول لابد من حصوله كما هو .

والثانى يؤول .

فرؤيا الخليل عليه السلام ، من الثانى إلا أنه لم يوقن أنها منه « من الثانى » فسارع إلى تحقيقها ولذا قال تعالى :

« صدقت الرؤيا » ولم يقل صدقتنا . أما الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فكان عنده علامة يعرف بها رؤيا الكشف من الرؤيا التى تؤول . مثال ذلك لما رأى أنه شرب لبنا ، وأعطى الفضلة لسيدنا على ، فقالوا له :

ماأدلته . قال : العلم

ومثله رؤيا يوسف عليه السلام :

رأيت أحد عشر كوكبا .

احتاجت إلى تأويل .

الكواكب : إخوته .

عروج النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج

فقد كان صلى الله عليه وسلم يرقى جسمه الشريف ويتلطف بما يتناسب والروحانية العلوية ، فكان يرقى تدريجيا من سماء إلى سماء حتى يصير فى شفافية ملائكة كل سماء، حتى وصل مع جبريل إلى سدرة المنتهى، فكان فى غاية الشفافية والروحانية ، وهنا توقف جبريل وطلب منه سيد البشر أن يواصل سيره فقال :

٢٨ — ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم(١) ﴾ . تقدم أنت يا محمد فهذا مقامك وهنا زُجَّ بسيدنا محمد فى الأنوار فوصل إلى حيث لا أين ولا بين ولا زمان ولا مكان ، فقد انتفى حين ذلك المكان ، وهنا لا مجال للقول ولا للعقل ، وكل ما يمكن أن يقال : إنه رأى مولاه بعين بصيرته ويمكن تفسير قوله صلى الله عليه وسلم :

« رأيت ربى بعينى رأسى » .

أنه قد انعكس نور بصيرته على بصره فرأت عيناه بنور بصيرته من ليس كمثله شىء .

---

(١) سوره الصافات آية : ١٦٤

٢٩ — ﴿ وقال رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (١) ﴾ .

قال رضى الله عنه . إجابة عن سؤال كيف نعبد الله بلا علاقة ؟

مع أنه تعالى قال . « ادعونى أستجب لكم » قال ادع الله ائتمارا لا للطلب ولكن اظهارا للعبودية والتذلل ومثل ذلك سيدنا أبى الحسن مخاطبا الشيطان أعوذ بالله منك ومن أنت ؟ حتى أستعيذ منك ؟

ولولا ما أمرنى ربى ما استعذت بالله منك .

٣٠ — ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان (٢) ﴾ .

المراد : جنة فى الدنيا ، وهى جنة المحبين العارفين .

وهى معنوية : لما يستشعرونه من لذة ومتعة فى عباداتهم ، وأنسهم بربهم ، ومن هنا يدرك معنى قولهم .

ونحن فى لذة لو علمها الملوك ، لجالدونا عليها بالسيوف » وهذا هو المعنى المراد من جنة الدنيا ، وهو الأنسب والأليق .

وهل المراد بجنة الدنيا ، الجنة الحقيقية الحسية ؟ فالله يطعم أحبابه فى الدنيا من الجنة هذه ، وذكر رضوان الله عليه قصة الولى الذى استضافه ملك ، فقدم إليه فاخر الطعام ، فعزف الولى عن هذه الألوان ، فسأله الملك عن سبب امتناعه ، فقال :

---

(١) غافر آية : ٦٠

(٢) سورة الرحمن آية : ٤٦ .

مثل لا يأكل من هذا الطعام ، ثم أمسك بنوع منه وعصره ، فكانت عصارته دما ، وأمسك اللحم وعصره فكانت عصارته ، قيحا وصديدا ، فتعجب الملك ، ثم نظر إليه العارف قائلا : أترضى أن آكل من هذا الطعام ؟ كله من حرام ، ومثلى لا يأكل الحرام ، فسأله الملك ماذا تأكل ؟

فأجاب طعامى سيأتينى وإذا بالباب يطرق ؛ ثم يفتح فيدخل خادم يحمل طعاما على رأسه ، ويقدمه للولى قائلا : سيدى الأكبر أمرنى أن أقدمه إلى سيدى الأصغر ؛ ثم وضعه الولى أمامه وأخذ يمسك ببعضه ويعصره فتنزل العصارة لبنا خالصاً ؛ ويمسك ببعض ثان ويعصره ، فيجده عسلا خالصا ؛ وببعض ثالث فيجده خمراً لا غول فيها ولا هم عنها ينزفون ؛ وببعض رابع : فيجده ماء غير آسنٍ . وهى من أنهار الجنة الأربعة ؛ ولعل الولى عمل هذا لحكمة ، وهى عمل الملك ليحث ؛ على البعد عن الحرام عن طريق هذا التصوير البشع ؛ فجنة الدنيا إما المتعة واللذة . المعنوية التى تفوق كل لذة ، وإما جنة المأكولات . والملذات .

وكثير من الأولياء ؛ كان يخرج إلى الناس . ويُشَمّ منه ريح الشواء وغيره من ألوان الأطعمه ؛ ولم يعهد أنها عنده ؛ أو طبخها فى بيته ، إذ لم يكن لديه المال لجلب ذلك . ولذا كان الرسول يقول :

« إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » .

والمراد طعاما حقيقيا حسيا يشبع منه .

أما الجنة الثانية : فهى جنة الآخرة .

٣١ — ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١) ﴾ .

---

(١) سوره البروج آية : ١٢ .

قرئت هذه الآية أمام أبى يزيد البسطامى ؛ رضى الله عنه فقال :
إن بطشى أشد .

وسئل رضوان الله عليه ، فى معنى ذلك ، فقال حقا ما يقوله أبو زيد : لأن بطش الله ممزوج بالرحمة ، أما بطش أبى يزيد فخال من الرحمة .

٣٢ — ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى (١) ﴾ .

مع قوله : كنت نبياً وآدم بين الماء والطين . فكان نبيا للأرواح ، وعلم علوما لا تحصى ، فلما جاءت البشرية كانت لا تعرف شيئاً ، فكان يجب موافقة البشرية للروحانية .

فالبشرية ضالة عما فى الروحانية .

وموسى عليه السلام قال :

« فعلتها وأنا من الضالين » أى الضالين لطريقتكم .

٣٣ — ﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر (٢) ﴾ . حب المال ـ الخلق عن الخالق : المعرفة عن صاحب المعرفة ـ الصفات عن الذات ـ والأخيرة رحمة ، لأنه لولا ذلك لاحرقوا .

٣٤ — ﴿ ثم لَتُسْأَلُنَّ يومئذٍ عَنِ النَّعِيم (٣) ﴾

السؤال يشير إلى رحمة الله ، لأن فيه تعداد النعم التى أنعم الله بها على العبد فى الدنيا ، وإن تعدوا نعمه الله لا تحصوها .

---

(١) سورة الضحى آية : ٧ .
(٢) التكاثر آية : ١
(٣) التكاثر آية : ٨

واردات

١ — من غلبته شهوته فهو حيوان ، ومن غلب شهوته فهو إنسان .

ومن غلبت ناسوتيته روحانيته فهو من الغافلين ، ومن غلبت روحانيته ناسوتيته فهو من الأوابين .

الأول معاملات يعامل نفسه .

والثانى عبادات سائر فى مقام العبودية .

٢ — اعلم أن ابن آدم طلسم لا يدرى به إلا من اجتباه الله ، وأطلعه على سره الغامض فيه . فمن الس
كفه الأيسر رقم ٨١ ومجموع
عليه على حسب استعداده من الأر

أما خليفة الله فى كل عصر « الغوث » فهو متجلى بها عليه على راى منه وهذا سر قوله تعالى لإبليس عليه اللعنة : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ يعنى كان السجود لآدم شكلا ولكنه فى الحقيقة . كان لله لا لآدم عليه السلام .

وهذه الأسماء جامعة لليدين : أعنى الجمال والجلال ، والقبض والبسط والأنس والهيبة ، والعز والذل ، والفقر والغنى ، والكمال.

فمن أسعده الله وتحقق بهذه الأسماء ، كان العبد الكامل ، ونطق بالحكمة وخرج صندوق نفسه إلى جوهر روحانيته ودررها ولؤلؤها ويواقيتها ، وكان

خليفة الله فى أرضه ، ومن غفل عن ذلك فهو فى مشيئة الله تعالى وعاش كحيوان يرتع فى الفلاة .

وإذا أفردت الرقم الذى فى الكف الأيمن نطق باسمه « الحى » وإذا أفردت الرقم الذى فى كفه الأيسر نطق باسمه « الأحد المحى »

فمن عبد الله باسمه الحى ودام عليه واستغرق فيه ليلا ونهاراً شاهد حياة كل شىء ، وكوشف بسر الملك والملكوت ، ومن عبد باسمه الأحد المحى وأكثر منه ، ولا حد لأكثره ، شاهد حياة كل شىء ومحييه ، ومن ذكر بهم جميعاً صعدت روحه إلى الملأ الأعلى ، وصعدت روحه إلى العرش ، ليكتب عند الله من الكاملين الصديقين ، وكان أعجوبة زمانه عرف من عرف وأنكر من أنكر .

٣ — أكمل الكمال أن تعبد الله لله بالإخلاص وتغنى عن الإخلاص بالإخلاص لله بالله .

فالأول لمن له تطلع للمقامات فى البداية .

والثانى لمن طريقه عبودية الربوبية ، فهو النجم الذى لا يدرك .

٤ — أهل الخصوصية مزهود فيهم أيام حياتهم . متأسف عليهم بعد مماتهم ، وهناك يعرف الناس قدرهم حين لم يجدوا عند غيرهم ما كانوا يجدونه عندهم ، ولات حين مندم .

٥ — رأى من يقول له :

أكتب هذا الكتاب الجامع لميزان الأعمال .

فقال له نعم .

فقال : ليس لعبد أن يشغل قلبه بالاختيار بفعل شيء أو تركه في المستقبل، وإنما عليه أن يعطى ما أبرزناه على يديه حقه ، فإن كان طاعة حمدنا عليها واستغفرنا من تقصيره فيها ، وإن كان معصية استغفرنا من ارتكابه لمخالفة أمرنا ، وإن كان غفلة أو سهواً فعل ماهو اللائق بمقامه . وقد قربنا لك طريق الأدب معنا في كل ماتجريه عليك .

سلم سلاماً باطنياً وظاهرياً تسلم وتغنم .

لا تركن إلى عمل ولاعلم واركن إلى حب من يحبهم الله ورسوله ، وسارع في هواهم تفلح دنيا وأخرى والسلام .

٦ ـ الله الصادق الوعد الأمين ، ويتجاوز عن الوعيد لأحبابه المخلصين .

٧ ـ القلب للمشاهدة ، واللسان للعبارة عن المشاهدة ، فمن لم يشاهد فهو شاهد زور .

٨ ـ أدم قرع بابنا يدخلك علينا بوابنا ، وثق أنك لا تدخل علينا إلا بواسطة بوابنا ، واعلم أن بوابنا حبيبنا ، وهو لكل خلقنا .

٩ ـ الأقطاب الأربعة هم : (السيد البدوى ، سيدى ابراهيم الدسوقى ، سيدى الرفاعى ، سيدى الجيلانى .

أما السيد البدوى فهو حى فى قبره يجلس ويضطجع ويقابل جميع زواره هذا حاله .

(أما سيدى إبراهيم الدسوقى فهو من الأفراد) والمراد أنه ترك المقامات وزهد فيها حتى الغوثية تولاها وتركها زاهدا فيها .

(ا) السر فى الأشياخ لا فى الأذكار .

(ب) الورد الحقيقى الذى يبلغ المريد هو المحبة من المريد لشيخه محبة صادقة

(جـ) ومعنى قولهم السر فى الأشياخ يعنى : فى الإذن بالذكر .

(د) كل إنسان مركب من عقل ـ نفس ـ روح ـ فكر ـ قلب ـ فؤاد . وما عدا ذلك فهو للأرض .

(هـ) (الأولياء عرائس مخدرة) من نظر إلى محمد رسول الله آمن به ، ومن نظر إلى يتيم قريش كفر به .

(و) الرؤيا جزء من ستة وأربعون جزء من النبوة لأن مدة الرسالة ٢٣ سنة والمنام نصف اليقظة .

ف ٢٣ × ٢ = ٤٦ والله أعلم . كم من مصباح أطفأه الريح .

(ز) من لا أول له ولا آخر هو الله سبحانه جل شأنه .

ومن له أول وليس له آخر الروح وملائكة العذاب والنعيم .

ومن له أول وآخر الإنسان والجن والحيوان والطير .

(ط) من طلب الحكمة لذاتها وكله الله إليها .

ومن طلبها له وكلها إليه .

١١ ـ قلوبهم أعجب من ذكر النائم ربه . معناه والله أعلم ، أن قلوب أحبابه أعجب شىء إذ صاحب هذا القلب ذاكر ربه وهو نائم .

١٢ ـ وجد بخط فضيلة مولانا الشيخ فى كتاب متن أبو شجاع فقه

شافعى ويظهر أنه كتب أيام الخلوة الأولى أو الثانية ، مكتوب وارد اليوم .

الإخلاص هو الشكر بالعمل والعمل بالشكر .

وله ظاهر وباطن .

فظاهره العمل وباطنه الشكر .

والحافظ له ولنموه باطنه . أخلص لى عملك ولا تسألنى وأنا أعطيك أفضل ماأعطى السائلين ، وأما الشكر فهو تصرف كل جارحة لما خلقت له ، ثم ينسى ذلك وإن لم ينس فما شكر .

« لئن شكرتم لأزيدنكم (١) » .

فالإخلاص يقتضى العطاء والشكر يقتضى المزيد فالإخلاص هو الأب الصالح ، والشكر هو الابن الفالح ، والفاعل لهما هو المقرَّب النافع ، فاعرف قدر ما وصل إليك ، واعمل به تكن من الناجحين .

١٣ ـ العبادات كالحلواء المعجونة بالسم ، فكما لا ترضى النفس بالقليل منها فتسلم كذلك لا تصبر على الكثير منها فتغنم .

١٤ ـ أشد العذاب سلب الروح.

وأكمل النعيم سلب النفس .

وألذ العلوم معرفة الحق .

وأفضل الأعمال الأدب.

وبداية الإسلام التسليم .

---

(١) وإذ تأذن ربكم لإن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد .

وبداية الإيمان الرضا .

ثم الإيمان يتلون بحسب الجسد ، والجسد بحسب المضغة ، والمضغة بحسب إصلاح الطعمة . إياكم والجزع فى مواطن الامتحان يمتحنكم الحق بأشد من ذلك ، لا يكمل المريد حتى يحمل عن شيخه ، فإن رمى أشغاله على شيخه فهو سىء الأدب ، مع أنه إذا تعود ذلك ألفت نفسه ذلك فينقص استعداده .

فإذا جاءته صدمة هدت جداره وشيخه ليس بمقيم له . لا تأكل قط طعام أحد إلا إن كنت وليه فى التربية ، أو من أهل ، آية « ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم » فإن كل لقمة نزلت فى جوفك تنقص من عبوديتك بقدرها وتسترقك لصاحب تلك اللقمة .

من اجتمع فيه خصال أربع : الكبر ، والنفاق ، والغرور ، والبخل ، لابد من العلاج .

فإن دواء الكبر التواضع .

والنفاق دواؤه الإخلاص .

والغرور دواؤه العجز والانكسار .

وأما البخل فدواؤه التسخى .

فلا يصلح أبداً إلا بهذا العلاج ، ويحتاج إلى جهاد كبير وعناية ربانية ، وطريقه وعر وأعوذ بالله من غضب الله .

« وارد بصيغة سؤال »

س١ : ماملاك الجسم؟

ج : ملاكه العقل ، والعقل عقلان . عقل للنفس لتدبير أمور الدنيا ،

وعقل للروح لتدبير أمور الآخرة ، فإذا طغى عقل النفس على عقل الروح إندمجا معا ، وصار عقلا واحدا ، وكانا محلا لهواجس النفس ، ووساوس الشيطان ، وإذا طغى عقل الروح على عقل النفس إندمجا معاً ، وصارا عقلا واحداً ، وكانا محلا للتنزلات الإلهية ، والمعارف الربانية ، وسعدا سعادة لا شقاء بعدها .

س ٢ : وما ملاك العقل ؟

ج : ملاكه الدين ، والدين هو التوحيد المطلق الكامل والوحدة فى الكثرة ، والكثرة فى الوحدة ، واعتبار الأكوان كلها رسلا إليك ، تؤدى ما لديها من الأمانة من خير وشر ، ولذا وجب شكرك لها ، وأما شكرك للمكون لجميع ما وصل إليك من الرسل لأنها منه برزت وجميع ما وصل اليك منه من القدرة (أن اشكر لى ولوالديك)

س ٣ : وما ملاك الدين ؟

ج : ملاكه النور المحمدى ، والنور المحمدى هو أول التعينات الربانية ، والتجليات الذاتية ، وأول ظهور المظاهر الذاتية فى وجود العمائية .

س ٤ : وما ملاك النور المحمدى ؟

ج : ملاكه الله جل جلاله ، وهنا تنطمس العقول والأبصار ، والقلوب والبصائر . ما قدروا الله حق قدره .

الله أكبر فى الصلاة

لها معنيان :

١ — التنبيه من الغفلة : لأن الله أكبر من كل شىء ، فلا ينبغى أن تنشغل أذهاننا فى الصلاة بشىء من شئون الدنيا ، وإلا فلا معنى لقولك الله أكبر ، إذا لم يكن أكبر مما يشغلنا عنه ، ومن ذلك : تتكرر التكبيرة فى كل ركعة نحو ست مرات ، وينطق بها المصلى فى كل ركعة فهن تتخلل أعمال الصلاة وكأنها ناقوس يدق بين الحين والحين ، ينبه الإنسان من غفلته ويوقظه من انشغاله .

٢ — وهناك معنى ثانى لايخاطب به إلا أهل الخاصة ، وهو مقام المتوسطين منه . ويتلخص فى أن كل ركن إذا أداه الإنسان بخشوع وبتدبر كامل ، ينال به من الله درجة ، نختامه بلفظ الله أكبر ، بمعنى أنه سبحانه وتعالى ، أكبر من أن يقتصر عطاؤه على هذه الدرجة ، فإذا أنت أديت ركن الوقوف مع الفاتحة والسورة بالتدبير المطلوب ، حينذاك تنطق الله أكبر وتركع ، ومعناه أن عطاء الله أعظم . ثم تؤدى ركن الركوع بخشوع فتنال درجة أرقى ، ثم تعتدل لتكبر من جديد ويكون معنى ذلك أن الله أكبر من أن يقتصر عطاؤه على ذلك المقام أو تلك الدرجة ، فكلما أديت ركنا نلت درجة وسلمك هذا الركن إلى ركن ثان ، وهكذا تصعد من درجة راقية إلى درجة أرقى حتى تتم الصلاة ، وكالات الله لا تتناها ، وذلك هو العروج إلى أسمى المقامات الذى قصده الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله .

(الصلاة معراج أمتى) .

وهذا مقام المتوسطين .

والخلاصة أن معنى : الله أكبر فى هذا المقام : أن تجلى الله فى صلاتك وهى مما يورده عليك أكبر من صلاتك التى تؤديها ، أى ما يورده عليك من تجليات أكبر مما توردە من عملك .

أما مقام المنتهيين الصديقين المقربين فهو عند تكبيرة الإحرام التى يدخل بها فى الصلاة يحس كل منهم بما يأتى :

عند ألف لفظة الجلالة ، يحس أنه تدبر كل ما فى الصلاة من حركات وتكبير وتسبيح وقراءة : الخ

وإذن فقد تدبر الصلاة عند نُطْقِه بألف لفظ الجلالة ، وتكون بقية الصلاة بعد ذلك من أولها إلى آخرها شهوداً لذى الجلال والعظمة ، يترقون فى مقام الشهود عند كل تكبيرة حتى يفنى الحس فلا يكون فى الشعور إلا الله .

وبالطبع كل ركن ينال فيه مقاما من مقامات الشهود ويسلمه ذلك الركن إلى ركن آخر ينال فيه مقاما أسمى وهكذا حتى يخرج العبد من الصلاة ومعه من العلوم والمعارف أبكار الأفكار التى لم تدون فى كتاب .

أما الاستغفار بعد الصلاة كاستغفار الرسول صلى الله عليه وسلم واستغفار الأولياء بطريق الميراث من أنه (ليغان على قلبى لتراكم المقامات والأنوار) .

واستغفاره لترقيه من الأدنى إلى الأعلى ومعنى ذلك : أن ما كان فيه من مقام أدنى غير لائق فيستغفر الله لذلك وهكذا . وكل استغفار للرسول صلى الله عليه وسلم من هذا القبيل .

ونختم الكتاب كله بهذه الكلمة الجليلة : ﴿ الله أكبر ﴾ .

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهره في ١٢ من ذى الحجة سنة ١٣٨٧

عبد الحليم محمود

محتويات الكتاب

الموضوع	صفحة
الفصل السابع	
معارج ومرائى	١٤٧
الفصل الثامن	
الذكر والدعاء	
أو الأحزاب والأوراد	١٥٧
الدعاء	١٦١
الدعاء يرد القضاء	١٦١
أوقات الدعاء	١٦٢
من دعائه	١٦٨
من ذكره ودعائه	١٦٨
من دعواته	١٦٨
ومن ذكره ودعائه	١٦٩
من دعائه لضيق الحال	١٧٠
ومن دعائه	١٧٠
قال رضى الله عنه	١٧١
حزب الفتح	١٧٥
حزب البحر	١٨٠
حزب الآيات	١٨٤
حزب البر	١٩١
حزب الشيخ أبى الحسن	٢٠١
نصائح لأبى الحسن	٢٠٧

الموضوع صفحة

مؤلفات للدكتور

(عبد الحليم محمود)

• المحاسبي	:	(بالفرنسية) ، طبع باريس ، ١٩٤٠
• وازن الأرواح عن أندرية موروا	:	دار الكاتب المصرى ، ١٩٤٤
• الفيلسوف المسلم	:	مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٤
• التصوف عند ابن سينا	:	دار العروبة ، ١٩٥٦ (الطبعة الثانية)
• الرعاية لحقوق الله للمحاسبي	:	دار الكتب الحديثة ، ١٩٥٨ بالاشتراك مع الأستاذ طه عبد الباقى
• الفلسفة الهندية للبيرونى	:	مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٨ بالاشتراك مع الأستاذ عثمان عبد المنعم
• أوربا والإسلام	:	المكتب الفنى للنشر ، ١٩٥٩
• الفلسفة اليونانية عن ألبير ريفو	:	دار العروبة ، ١٩٥٩ بالاشتراك مع الأستاذ أبو بكر ذكرى
• التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى	:	مكتبة الحلبى ، ١٩٦٠ بالاشتراك مع الأستاذ طه عبد الباقى
• اللمع للطوسى	:	دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٠ بالاشتراك مع الأستاذ طه عبد الباقى

- الطريق إلى الله أو كتاب الصدق: للخراز : دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٤ (الطبعة الثانية) .
- فلسفة ابن طفيل ورسالته : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٥ (الطبعة الثانية) .
- المشكلة الأخلاقية والفلاسفة عن أندريه كريسون : دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٥ (الطبعة الثالثة) بالاشتراك مع الأستاذ أبو بكر ذكرى.
- الأخلاق فى الفلسفة الحديثة عن أندريه كريسون : دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٥ (الطبعة الثالثة) بالاشتراك مع الأستاذ أبو بكر ذكرى.
- الرسول صلى الله عليه وسلم : الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥.
- محمد رسول الله عن اتبين دينه : دار المعارف ، ١٩٦٦ (الطبعة الرابعة) بالاشتراك مع الدكتور محمد عبد الحليم.
- الرسالة القشيرية للقشيرى : دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٦ بالاشتراك مع الدكتور محمود بن الشريف
- المنقذ من الضلال للغزالى : دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٧ (الطبعة الخامسة) .
- الإسلام والعقل : دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٦ .
- المغنى للقاضى عبد الجبار : وزارة الثقافة والإرشاد ، ١٩٦٦ . بالاشتراك مع الدكتور سليمان دنيا .

- السنة فى تاريخها وفى مكانتها : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧
- الإيمان : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧
- أبو الحسن الشاذلى : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ (الطبعة الثانية)
- أسرار العبادات فى الإسلام : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ (الطبعة الثانية)
- التصوف الإسلامى . شخصيات ونصوص : معهد الدراسات الإسلامية ، ١٩٦٨
- التفكير الفلسفى فى الإسلام : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٨ (الطبعة الثالثة)
- الجهاد والنصر : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٨
- فى إحياء المفاهيم الإسلامية : دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٨
  - (١) القرآن والنبى
  - (٢) الإسلام والإيمان
  - (٣) العبادة (تحت الطبع)
    الذكر ، الدعاء ، الصلاة
  - (٤) العبادة
    الزكاة ، الصيام ، الحج ، الجهاد